

تطور الفكر السياسي الشيعي

من الشورى الى ولاية الفقيه

أحمد الكاتب

الطبعة السادسة

٢٠٠٨

حقوق الطبع محفوظة

Ahmad@alkatib.tv

بسم الله الرحمن الرحيم

قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ .. إن يتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون ! (يونس ٣٦)

إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى . (النجم ٢٣)

وما لهم به من علم .. إن يتبعون إلا الظن .. وإن الظن لا يغني من الحق شيئا .. (النجم ٢٨)

مقدمة الطبعة السادسة

عرف الفكر السياسي الشيعي تنوعاً وتعدد كبيرين خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، حتى بلغ لدى مؤرخي الشيعة كالنوبختي وسعد بن عبد الله الأشعري القمي سبعين فرقة، ولكنه استقر عبر التاريخ على ثلاث فرق رئيسية هي الزيدية والإسماعيلية والامامية الاثني عشرية. وقد كان أئمة الشيعة الزيدية يحكمون اليمن مئات السنين حتى أواسط القرن العشرين عندما قامت الثورة الجمهورية وقضت على حكم الإمامة. وأما الإسماعيلية فقد أقاموا الدولة الفاطمية التي امتدت حوالي ثلاث قرون إلى أن تهاوت وانقرضت. وأما الشيعة الإمامية الاثني عشرية، فبالرغم من قيام عدد من الدول باسمهم في التاريخ، فانهم كانوا يعانون من مشكلة ذاتية لا تسمح لهم بإقامة الدول إلا بالالتفاف على فكرهم السياسي أو التخلي عنه بصورة كاملة. والمشكلة كانت ولا تزال تتمثل باشتراط الفكر الإمامي العصمة والنص والسلالة العلوية الحسينية في الإمام، أي الرئيس أي رئيس. ولما كانوا يعتقدون بوجود ذلك الإمام المعصوم المعين من قبل الله وولادته في أواسط القرن الثالث الهجري، وهو "الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري" الذي قالوا إنه ولد بصورة سرية ثم غاب بعد وفاة أبيه العسكري غيبتين: صغرى امتدت حوالي سبعين عاماً (من ٢٦٠ إلى ٣٢٩ هـ) كان يتصل خلالها ببعض النواب الخاصين، وكبرى امتدت منذ ذلك الحين وإلى اليوم وإلى أن يظهر في المستقبل، فإنهم قالوا - بناء على ذلك - بعدم جواز قيام الشيعة بالثورة والعمل السياسي والعمل من أجل إقامة الدولة الإسلامية في "عصر الغيبة" ووجوب انتظار الإمام المهدي الغائب.

وقد كان هذا الفكر سبباً رئيسياً في تخلف الشيعة الاثني عشرية سياسياً وانسحابهم من مسرح التاريخ. ولكن تاريخ الشيعة الواقعي لم يكن صورة دقيقة ملتزمة بهذا الفكر، وإنما شهد محاولات عديدة للثورة والتمرد، اتخذ بعضها طابع الالتفاف على الفكر السياسي الشيعي الذي أصبح "عقيدة" يصعب التحرر منها بسهولة، كما فعل الصفويون في القرن العاشر الهجري، عندما ادعوا "النيابة الخاصة" من الإمام المهدي والحكم باسمه، أو كما فعل "الفقهاء المراجع" الذين ادعوا "النيابة العامة" عن الإمام الغائب، وإدارة أمور الشيعة بشكل أو بآخر، إلى أن ظهرت نظرية "ولاية الفقيه" العامة والمطلقة، التي اعتقد أصحابها بوجوب إقامة الحكم الإسلامي وعدم جواز انتظار الإمام المهدي الغائب بصورة سلبية، كما كان يفعل الشيعة سابقاً، وفسروا الانتظار بمعنى إيجابي معاكس، أي بمعنى العمل والتمهيد والإعداد للظهور، وذلك بإقامة الدولة في "عصر الغيبة".

وتعتبر التجربة الإيرانية "الثورة والجمهورية الإسلامية" أبرز مثل على نظرية "ولاية الفقيه". ولكنها بالرغم من محافظتها على الفكر الشيعي القديم "الإمامي الاثني عشري" في الظاهر، فإنها في الحقيقة شكلت ثورة جذرية عليه، وذلك بتخليها عن أهم أعمدة الفكر الإمامي وهي العصمة والنص والسلالة العلوية الحسينية، وإجارتها حكم الفقيه العادل بواسطة الشورى والانتخاب، وهو ما كان يقول به بعض الزيدية

والسنة من قبل، ودعوا الشيعة الإثني عشرية في القرن الرابع الهجري للقبول به ولكنهم رفضوه وردوا عليه بأن ذلك يعني التخلي عن المذهب الإمامي بالمرة. وقد صدقوا في ذلك فإن اختيار الإمام عبر الشورى يناقض الفكر الإمامي مائة بالمائة وهو الذي يشترط العصمة والنص فيه، فكيف إذا لم يكن الإمام من السلالة العلوية الحسينية؟

ولقد استطاع الشيعة المعاصرون القيام بهذه الثورة الفكرية والتحرر من الشروط الصعبة أو المستحيلة، والالتفاف على نظرية الإمامة الإلهية لأهل البيت، بتحويل هذه النظرية إلى عقيدة تاريخية دينية غير سياسية، والفصل بينها وبين مسألة الحكم والسياسة في هذا العصر، أو القول بأن حكم "ولاية الفقيه" امتداد لخط الإمامة الإلهية وبالنيابة العامة عن الإمام المهدي الغائب.

وذهب جيل آخر من الشيعة بعيدا في التخلي عن الفكر الإمامي، بتبني الفكر الديمقراطي وعدم اشتراط الفقه والعدالة حسب مفهوم نظرية ولاية الفقيه، ليتحدوا مع عامة المسلمين أو المواطنين في إقامة حكم عادل ديمقراطي يوفر الحرية والمساواة لجميع الناس.

وفي هذه الحالة لم يبق من مفهوم "التشيع الإمامي الإثني عشري" سوى بعض الطقوس والعادات والتقاليد والأدعية والزيارات وبعض المسائل الفقهية البسيطة التي لم تكن تشكل فارقا كبيرا بينهم وبين بقية المسلمين. وإذا كانت تحمل مخلفات التاريخ من عقد وإشكاليات تعكر حياة الشيعة وتوتر علاقتهم بإخوانهم من سائر الطوائف؛ فإن دراسة الفكر السياسي الشيعي منذ بداية تكوينه، وملاحظة التطورات التي حدثت فيه، والأزمات التي عصفت به، والحلول الجديدة الثورية التي قضت عليه، كفيلة بوضع النقاط على الحروف وتوضيح ما إذا كان الفكر الإمامي "عقيدة دينية خالدة" أو فكرا سياسيا تاريخيا ولد في ظروف معينة، ولا توجد مبررات كافية لاستمراره في هذا العصر.

ولقد حاول هذا الكتاب دراسة الفكر السياسي الشيعي بمراحله الرئيسية الثلاث: تبني الفكر الشيعي الأول لنظرية الشورى، ثم نشور نظرية الإمامة في القرن الثاني الهجري ومواجهتها للتحديات، وآخرها وفاة الإمام الحسن العسكري دون ولد ظاهر، واضطرار الشيعة الإمامية لافتراض وجود ولد دون أدلة تاريخية وشرعية كافية، ووقوعها نتيجة لذلك في أزمة الانتظار الطويلة التي امتدت أكثر من ألف عام، دون أن يظهر ذلك الإمام الغائب المفترض، مما أدى بالشيعة إلى القول بنظرية ولاية الفقيه، وتبني الفكر الديمقراطي بصورة كاملة.

وقد قمت في الطبعة الخامسة باختصار الجزء الأول من الكتاب الذي يتعلق بنظرية الإمامة الإلهية، وأبرزت الجزء الثاني المتعلق ببحث ولادة ووجود الإمام الثاني عشر، وطبعته تحت عنوان: الإمام المهدي "محمد بن الحسن العسكري" حقيقة تاريخية؟ أم فرضية فلسفية؟ تحت العنوان الأصلي: "تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه". وقد طلب مني الأستاذ نبيل مروة صاحب دار الانتشار العربي، إعادة طباعة الكتاب بنسخته الأصلية الأولى الموسعة، فاعتذرت منه بسبب تلبية الكتاب

المختصر لأهم أفكار ومواضيع الكتاب بطبعته الأولى، إضافة لأني أعمل منذ عام على توسيع بحث موضوع الإمامة لأهل البيت وآثارها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في القرنين الثاني والثالث الهجريين. وعسى أن أفرغ منه قريباً بإذن الله تعالى.

أحمد الكاتب

لندن

٢٠٠٨ / ٦ / ١٩

مقدمة الطبعة الخامسة

هل الإمام المهدي "محمد بن الحسن العسكري" حقيقة تاريخية؟.. أم فرضية فلسفية؟ هذا سؤال مهم جداً ينبغي طرحه اليوم من أجل التقدم في عملية بناء الأمة الإسلامية وتجديدها وتحديثها وتوحيدها.

ولكن ما هو الفرق؟ سواء كان المهدي حقيقة.. أم فرضية؟ مولوداً؟ أم غير مولود؟ وماذا يهمنا من الأمر في حياتنا المعاصرة؟ إذا كان ظهور المهدي أمراً غيبياً مستقبلياً؟ ولكن من قال ذلك؟ ومن قال إن موضوع المهدي "محمد بن الحسن العسكري" أمر تاريخي أو مستقبلي غيبي، وليس أمراً سياسياً فكرياً معاصراً؟

صحيح.. إن فكرة المهدوية بصورة عامة مسألة غيبية مستقبلية، وإن مسألة ولادة الإمام الثاني عشر "محمد بن الحسن العسكري" مسألة تاريخية قديمة، ولكن الإيمان بهذا الإمام مسألة حيوية معاصرة تدخل في عقيدة الشيعة الإمامية الاثني عشرية، وتشكل العمود الفقري لها. كما أنها شكلت وتشكل الأرضية الأيديولوجية لفكرهم السياسي القديم والمعاصر، ومن ثم فإنها تلعب دوراً كبيراً في علاقاتهم الداخلية والخارجية مع الطوائف الإسلامية الأخرى، وتدخل في صميم الوحدة الإسلامية والعملية الديمقراطية.

إن فكرة المهدوية لا تختص بشعب دون آخر، ولا بأمة دون أخرى.. فقد عرفها جميع شعوب الأرض حتى من غير المسلمين أو الموحدين. وذلك لأن كل شعب يتعرض للظلم والاضطهاد يحلم بغد أفضل وإمام عادل (مهدي) يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً. ومن هنا فقد عرف المسلمون بمختلف طوائفهم وأحزابهم كثيراً من الأئمة المهديين وأدعياء المهدوية الذين قادوا الحركات الشعبية المطالبة بالعدالة، ونجح بعضهم في تحقيق أهدافهم في الوقت الذي فشل فيه آخرون.

وكان لكل (مهدي) قصة.. ولكن قصة "الإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري" تختلف عن جميع الأئمة المهديين أو أدعياء المهديّة عبر التاريخ، وتحمل أبعاداً كثيرة وخطيرة. فالإمام "الحجة بن الحسن" ليس مجرد أمل يخلق في المستقبل، وإنما هو "إمام حي موجود ولد في منتصف القرن الثالث الهجري ولا يزال يعيش اليوم وسوف يظهر في المستقبل". وبالتالي فقد ترتبت وتترتب على هذه العقيدة أمور كثيرة فكرية وسياسية.

فقد ولدت على أثر الإيمان بوجود الإمام "محمد بن الحسن العسكري" الفرقة الاثنا عشرية، بعد أن كاد المذهب الإمامي يصل إلى طريق مسدود، وذلك بوفاة الإمام العسكري دون الإشارة إلى وجود ولد له في الظاهر، ودون الإشارة إلى مصير الإمامة من بعده. ورغم وجود تيارات شيعية أخرى تعتقد بسلسلة أخرى من الأئمة العلويين، أو تؤمن بنظام وراثي مرن يجيز الانتقال إلى الاخوة وأبناء العم، إلا أن تياراً شيعياً مهماً كان يعتقد بضرورة انتقال الإمامة إلى الورثة بصورة عمودية، أي في الأعقاب وأعقاب الأعقاب أبداً إلى يوم القيامة، اضطر إلى الإيمان بوجود ولد للإمام العسكري بصورة سرية، وخلافاً للظاهر، مما أدى إلى تشكل الفرقة الاثني عشرية. ولو لم يكن ذلك الفريق من الشيعة يؤمنون بولادة ووجود "الإمام محمد بن الحسن العسكري" لما تكونت الفرقة الاثنا عشرية، ولوصلت نظرية الإمامة إلى طريق مسدود، على الأقل في هذا الخط من أبناء علي والحسين والكاظم.

ولما كان الشيعة الإمامية يعتقدون بضرورة اتصاف الإمام بالعصمة والنص عليه من الله، وأنهم آمنوا بوجود ذلك الإمام المعصوم المعين من قبل الله، وهو "الإمام محمد بن الحسن العسكري" فقد تحتم عليهم انتظار ذلك الإمام، وعدم الخوض بأي نشاط سياسي ثوري أو حكومي إلا تحت قيادة ذلك الإمام المنتظر. وعندما طلت غيبة ذلك الإمام، وامتد انتظار الشيعة الاثني عشرية له؛ فقد دخل الشيعة في غيبة سياسية، وانسحبوا من مسرح التاريخ قروناً طويلة من الزمن. ورغم التطورات الإيجابية الحديثة التي حدثت في فكرهم السياسي فلا يزال قسم منهم يمتنع عن الخوض في السياسة انتظاراً لظهور الإمام المعصوم الغائب.

وفي هذه الأثناء، ومنذ أيام الغيبة الأولى، ظهرت في صفوف الشيعة دعوات أو ادعاءات بالنيابة الخاصة والعامة، عن الإمام المهدي الغائب، واللقاء به وأخذ التوجيهات والتعليمات والعلوم الشرعية عنه. وقد اشتهر حوالي أربعة وعشرين نائباً أو مدعيًا للنيابة الخاصة عن الإمام المهدي في فترة ما يسمى بالغيبة الصغرى، التي امتدت حوالي سبعين عاماً من وفاة الإمام العسكري، وادعى بعض العلماء كالشيخ المفيد، في القرن الخامس الهجري، استلام رسائل خاصة من الإمام المهدي، ثم ظهرت نظرية النيابة العامة للفقهاء، أي كون كل فقيه نائباً عن الإمام المهدي حتى إذا لم يسمه أو يعينه بالخصوص.

وفي ظل هذه الأجواء ظهرت المرجعية الدينية الشيعية التي اكتسبت هالة قدسية، سواء بواسطة النيابة الخاصة أو العامة، وأصبح المرجع الديني يحتل في صفوف الشيعة، موقعا متميزا لا يضاهيه إلا إمام معصوم.

ورغم حدوث تطور كبير في الفكر السياسي الشيعي في العقود أو القرون الأخيرة، وميل كثير من الفقهاء والسياسيين إلى إنهاء موقف الانتظار السليبي الممدود للإمام المهدي الغائب، واتخاذهم قرارا بالثورة أو إقامة الدولة في (عصر الغيبة) إلا أن إيمانهم بوجود الإمام المهدي "محمد بن الحسن العسكري" وأنه مصدر الشرعية الدستورية، دفعهم لإضفاء مسحة دينية على نشاطاتهم السياسية، والاستغناء عن اكتساب أية شرعية شعبية أو ديمقراطية، وبالتالي إعطاء أنفسهم صلاحيات مطلقة ديكتاتورية، وهو ما هدد ويهدد التجارب السياسية الحديثة التي يقوم بها الشيعة، ويقف عائقا أمام التطور الديمقراطي للمجتمعات الشيعية.

وعلى رغم انخراط الشيعة في العراق في هذه الأيام في عملية بناء النظام الديمقراطي، إلا أن بعض رجال الدين استغلوا فكرة وجود الإمام المهدي ليدعوا علاقات خاصة لهم معه، تتيح لهم مكانة فوق ديكتاتورية، وأبعد ما تكون عن الديمقراطية.

ومن هنا فإن مسألة وجود "الإمام المهدي الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري" لم تعد مسألة غيبية تاريخية أو مستقبلية، وإنما أضحت شأنا معاصرا حيويا فكريا سياسيا. وبالتالي فإن كثيرا من الأمور تصح إذا كان وجود الإمام حقيقة تاريخية، وتختلف إذا لم يكن كذلك.

ولقد ولد الكاتب ونشأ شيعيا إماميا أثني عشريا، ثم قام بدراسة هذه المسألة فتوصل إلى أنها فرضية فلسفية وليست حقيقة تاريخية. وقام بنشر دراسته قبل حوالي عشر سنين (في سنة ١٩٩٧) ضمن كتاب "تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه" الذي كان يبحث بالإضافة إلى مسألة وجود الإمام الثاني عشر، نظرية الإمامة لأهل البيت، وتطور الفكر السياسي الشيعي في عصر الغيبة. وقد طبع ذلك الكتاب عدة طبعات، وأثار عاصفة من الردود والنقاشات لم تهدأ بعد، فقد كتبت في الرد عليه عشرات الكتب والمقالات، ولا يزال النقاش مستمرا، ولكن كثيرا من الردود اتجهت لمناقشة الجزء الأول من الكتاب وإثبات صحة نظرية الإمامة، وأغفل كثير من الكتاب الحديث عن جوهر الكتاب وهو موضوع وجود الإمام الثاني عشر، وكنت أتمنى لو يركز الباحثون على هذا الموضوع ففيه غنى لهم عن تجشّم محاولة إثبات الموضوع الأول، إذ لو ثبت وجود الإمام الثاني عشر لثبتت صحة نظرية الإمامة، نوعا ما، وإذا لم يثبت وجوده يستحيل إثبات نظرية الإمامة بتلك الصورة المعروفة لدى الشيعة الامامية الاثني عشرية.

ومن هنا شعرت بضرورة إخراج الكتاب بشكل جديد، واختصار الجزئين الأول والثالث، مع التركيز على الجزء الثاني من كتاب "تطور الفكر السياسي الشيعي" وهو: "الإمام المهدي محمد بن الحسن

العسكري.. حقيقة تاريخية؟ أم فرضية فلسفية؟" وطباعته بصورة مستقلة. أملا في أن يساعد نشر هذا الكتاب في إثراء البحث حول الموضوع، وتطوير الفكر السياسي الشيعي خطوات أوسع نحو الديمقراطية، وتوحيد الأمة الإسلامية.

أحمد الكاتب

١١ آذار ٢٠٠٧

لندن

ملخص الجزء الأول^١

نظرية الإمامة الإلهية لأهل البيت

الشورى نظرية أهل البيت السياسية

يشكل "الإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري" الرقم الثاني عشر في سلسلة الأئمة المعصومين الذين يعتقد الشيعة الإثنا عشرية بتعيينهم من قبل الله، والذي يقولون إنه ولد في منتصف القرن الثالث الهجري، بصورة سرية واختفى بعد وفاة والده الإمام العسكري سنة ٢٦٠ للهجرة، في سامراء. والإثنا عشرية هم فريق من الإمامية الذين ولدوا في القرن الثاني الهجري من بين عدد من الفرق الشيعية التي كانت تحارب الدولة الأموية وتلتف حول عدد من الأئمة العلويين أو الفاطميين. وامتاز الإمامية بلقبهم هذا لأنهم طوروا ولاءهم لأهل البيت من ولاء سياسي إلى عقيدة دينية، واعتقدوا بأن الأئمة معصومين ومعينين من قبل الله. ورفضوا - بناء على ذلك - الشورى كطريق لانتخاب الإمام.

وكان قولهم هذا رد فعل على تسلط الحكام الأمويين بالقوة، وتداولهم للسلطة بالوراثة، وادعائهم للعصمة ومطالبتهم للأئمة بالطاعة المطلقة، فقالوا رداً على ذلك بأحقية أهل البيت من الأمويين بالخلافة، وضرورة تداولها في أعقابهم. ولكن هذه النظرية لم تكن نظرية أهل البيت أنفسهم ولا عموم الشيعة في القرون الأولى.

^١ - هذا ملخص الجزء الأول من كتاب "تطور الفكر السياسي الشيعي.. من الشورى الى ولاية الفقيه" ومن أراد التفصيل فعليه مراجعة الطبعات السابقة للكتاب.

وقد انطلق الإماميون في بناء نظريتهم من كون الإمام علي بن أبي طالب وصيا للنبي (ص) وهو أمر ثابت لا يختلف عليه المسلمون.^٢ ولكنه كان يتعلق بالأمور العادية والشخصية، ولم تكن له علاقة بالسياسة والإمامة أو الخلافة الدينية.^٣ كما انطلقوا من "حديث الغدير" الذي ورد أن النبي قال فيه: "من كنت مولاه فهذا علي مولاه". وهو حديث يعترف المسلمون بصحته ولكنهم ينفون دلالة على الإمامة. ومن هنا فإن الصحابة (رضي الله عنهم) لم يفهموا من حديث الغدير أو غيره من الأحاديث معنى النص والتعيين بالخلافة، ولذلك اختاروا طريق الشورى، وبايعوا أبا بكر كخليفة من بعد الرسول (ص). وكان منهم الإمام علي نفسه الذي بايع أبا بكر وعمر وعثمان. ولم يستلم الخلافة إلا بعد بيعة الناس له بيعة عامة في المسجد. وينقل الكليني رواية عن الإمام محمد الباقر يقول فيها إن الإمام علي لم يدع إلى نفسه وإنه أقر القوم على ما صنعوا وكنتم أمره.^٤ وعندما قتل عثمان وجاء المهاجرون والأنصار إلى الإمام علي يطالبونه بتولي الخلافة، دفعهم، وقال لهم: "دعوني والتمسوا غيري، واعلموا أني إن أحببتكم ركبت بكم ما اعلم، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً".^٥

وهناك رواية في (كتاب سليم بن قيس الهلالي) تكشف عن إيمان الإمام علي بنظرية الشورى وحق الأمة في اختيار الإمام، حيث يقول في رسالة له: "الواجب في حكم الله وحكم الإسلام على المسلمين بعدما يموت إمامهم أو يقتل.. أن لا يعملوا عملاً ولا يحدثوا حدثاً ولا يقدموا يداً ولا رجلاً ولا يبدؤوا بشيء قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً عالماً ورعاً عارفاً بالقضاء والسنة".^٦

^٢ - الكليني، الكافي، ج ١، ص ٢٣٦ عن محمد بن الحسين وعلي بن محمد عن سهل بن زياد عن محمد بن الوليد الصيرفي عن أبان بن عثمان عن أبي عبد الله (ع)

^٣ - المفيد، الأمالي، ص ٢٢٠، المجلس رقم ٢١، والمفيد، الارشاد، ص ١٨٨

^٤ - الكليني، روضة الكافي، ص ٢٤٦

^٥ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٤٥٠

^٦ - كتاب سليم بن قيس الهلالي، ص ١٨٢، والمجلسي، بحار الانوار، ج ٨، ص ٥٥٥ (الطبعة الحجرية)

وعندما أصبح الإمام علي (ع) حاكماً كان ينظر إلى نفسه كأنسان عادي غير معصوم ، ويطلب المسلمين أن ينظروا إليه كذلك ، ويقول لهم: "إني لست في نفسي بفوق أن أخطئ ولا آمن ذلك من فعلي ، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني، فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل".^٧

وعندما ضربه عبد الرحمن بن ملجم ، دخل المسلمون على الإمام علي، وطلبوا منه أن يستخلف ابنه الحسن ، فقال: " لا ، إنا دخلنا على رسول الله فقلنا: استخلف ، فقال: لا ، أخاف أن تفرقوا عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون، ولكن إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يختار لكم" . وسأله أن يشير عليهم بأحد ، فما فعل ، فقالوا له: إن فقدناك فلا نفقد أن نبايع الحسن . فقال: " لا آمركم ولا أنهاركم . أنتم أبصر".^٨

وقد قام الإمام أمير المؤمنين (ع) بالوصية إلى الإمام الحسن وسائر أبنائه، ولكنه لم يتحدث فيها عن الإمامة أو الخلافة ، حيث كانت وصيته شخصية وروحية وأخلاقية.^٩

وذكر المؤرخون: انه لما توفي الإمام علي (ع) خرج عبد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس فقال: إن أمير المؤمنين توفي ، وقد ترك خلفاً ، فان أحببتم خرج إليكم ، وان كرهتم فلا أحد على أحد. فبكى الناس وقالوا: بل يخرج إلينا.^{١٠}

وبعد أن بايعه الناس قام الإمام الحسن بالتنازل عن الخلافة إلى معاوية، واشترط عليه العودة بعد وفاته إلى نظام الشورى، حيث قال في شروط الصلح: "...على انه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين".^{١١}

^٧ - الكليني، روضة الكافي، ص ٢٩٢ و ٢٩٣ والمجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٤ ، ص ٣٠٢

^٨ - المرتضى، الشافي، ج ٣ ، ص ٢٩٥ ، والمرضى، تثبيت دلائل النبوة، ج ١ ، ص ٢١٢ و ابن أبي الدنيا، مقتل الإمام أمير المؤمنين، ص ٤٣ و المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧ ، باب أحاديث تنسب إلى سليم غير موجودة في كتابه.

^٩ - المفيد، الارشاد، ص ١٨٧ و الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا، مقتل الامام أمير المؤمنين، ص ٤١ - ٤٢ ، تحقيق مصطفى القزويني، مركز الدراسات والبحوث العلمية، بيروت

^{١٠} - المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ، ص ٤٤ وابن كثير ، البداية والنهاية، ج ٨ ، ص ١٣ ، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤ ، ص ٨ و ج ١٦ ، ص ٢٢

^{١١} - المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٤ ، ص ٦٥ ، باب : كيفية المصالحة، من تاريخ الامام الحسن المجتبي.

ولو كانت الخلافة بالنص من الله والتعيين من الرسول ، كما تقول النظرية الامامية ، لم يكن يجوز للإمام الحسن أن يتنازل عنها لأي أحد تحت أي ظرف من الظروف ، ولم يكن يجوز له بعد ذلك أن يبايع معاوية أو أن يدعو أصحابه وشيعته لبيعته ، ولم يكن يجوز له أن يهمل الإمام الحسين وإنما كان يجب أن يشير إليه من بعده .. ولكن الإمام الحسن لم يفعل أي شيء من ذلك وسلك مسلكا يوحى بالتزامه بحق المسلمين في انتخاب خليفتهم عبر نظام الشورى.

وهكذا نجد ذات الفكر السياسي عند الإمام الحسين الذي خرج على يزيد بن معاوية سنة ٦٠ للهجرة، حيث لا توجد أية آثار لنظرية النص في رسائله إلى شيعة الكوفة، ولم يكن يطالب بالخلافة كحق شخصي له "لأنه ابن الإمام علي أو انه معين من قبل الله". ولذلك فانه لم يفكر بنقل "الإمامة" إلى أحد من ولده ، ولم يوصِ إلى ابنه الوحيد الذي ظل على قيد الحياة (علي زين العابدين)، وإنما أوصى إلى أخته زينب أو ابنته فاطمة ، وكانت وصيته عادية جدا تتعلق بأموره الخاصة، ولا تتحدث أبدا عن موضوع الإمامة والخلافة.^{١٢}

وقد اعتزل علي بن الحسين السياسة ، ورفض قيادة الشيعة الذين كانوا يطالبون بالتأثير لمقتل أبيه الحسين، ويعدون للثورة ، ولم يدع الإمامة ، ولم يتصد لها ، ولم ينازع عمه محمد بن الحنفية فيها ، وكما يقول الشيخ الصدوق : " فانه انقبض عن الناس فلم يلق أحدا ولا كان يلقاه إلا خواص أصحابه ، وكان في نهاية العبادة ولم يخرج عنه من العلم إلا يسيرا".^{١٣}

وعندما قام المختار بن عبيدة الثقفي بحركته في الكوفة ، كتب إلى علي بن الحسين يريد به على أن يبايع له ويقول بإمامته ويظهر دعوته ، فأبى أن يجيبه عن كتابه ، فلما يئس المختار منه كتب إلى عمه محمد بن الحنفية يريد به على مثل ذلك ، واخذ يدعو إلى إمامته. وقد استلم محمد بن الحنفية قيادة الشيعة فعلاً ، ورعى قيام دولة المختار بن عبيدة الثقفي في الكوفة.

لقد كان أئمة أهل البيت يعتقدون بحق الأمة الإسلامية في اختيار أوليائها، وبضرورة ممارسة الشورى ، ويدينون الاستيلاء على السلطة بالقوة. ولعلنا نجد في الحديث الذي يرويه الصدوق عن الإمام الرضا عن أبيه الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن علي بن الحسين عن الحسين بن علي عن أبيه عن جده رسول الله (ص) والذي يقول فيه: " من جاءكم يريد أن يفرق الجماعة ويغصب الأمة

^{١٢} - راجع : الصدوق، الامامة والتبصرة من الحيرة، ص ١٩٨، والصفار، بصائر الدرجات، ص ١٤٨ و ١٩٨

^{١٣} - الصدوق، اكمال الدين، ص ٩١

أمرها ويتولى من غير مشورة فاقتلوه ، فان الله عز وجل قد أذن ذلك" ^{١٤} .. لعننا نجد في هذا الحديث أفضل تعبير عن إيمان أهل البيت بالشورى والتزامهم بها. وإذا كانوا يدعون الناس إلى اتباعهم والانقياد إليهم فإنما كانوا يفعلون ذلك إيمانا بأفضليتهم وأولويتهم بالخلافة في مقابل الحكماء الذين كانوا لا يتبعون الكتاب ولا يقيمون القسط ولا يدينون بالحق.

من هنا وتبعاً لمفهوم (الأولوية) قالت أجيال من الشيعة الأوائل، وخاصة في القرن الأول الهجري: "إن علياً كان أولى الناس بعد رسول الله لفضله وسابقته وعلمه ، وهو أفضل الناس كلهم بعده ، و أشجعهم و أشجاهم وأرعهم وأزهدهم" . وأجازوا مع ذلك إمامة أبي بكر وعمر وعدوهما أهلاً لذلك المكان والمقام ، وذكروا: "إن علياً سلم لهما الأمر ورضي بذلك وبايعهما طائعا غير مكره وترك حقه لهما ، فنحن راضون كما رضي المسلمون له ، ولمن بايع ، لا يحل لنا غير ذلك، ولا يسع منا أحداً إلا ذلك ، وان ولاية أبي بكر صارت رشداً وهدى لتسليم علي ورضاه" ^{١٥}.

وكانت نظرهم إلى الشيخين أبي بكر وعمر نظرة إيجابية ، إذ لم يكونوا يعتبرونهما "غاصبين" للخلافة التي تركها رسول الله شورى بين المسلمين، ولم ينص على أحد بالخصوص.

من الشورى إلى .. الحكم الوراثي

وحتى بداية القرن الثاني الهجري لم يكن الفكر السياسي الشيعي يعرف نظرية النص أو الإمامة الإلهية، حيث كان الإمام محمد الباقر يجادل منافسيه من أبناء علي والحسين بالعلم وامتلاك سلاح رسول الله وحق وراثته المظلوم ، أكثر مما كان يجادلهم بالنص الصريح أو الوصية الواضحة. وقد اعتمد الإمام الباقر في الدعوة إلى نفسه ، باعتباره أولى من الجميع ، للثأر من مقتل جده الإمام الحسين ، وبالتالي قيادة الشيعة لتحقيق هذا الهدف ، فكان يقول: "ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً" (الإسراء ١٧: ٣٣) ^{١٦} بينما كان أخوه الإمام زيد بن علي يعتمد في إمامته على الجهاد ويقول: ليس الإمام منا من جلس في بيته و أرخى ستره وثبط عن الجهاد ، ولكن الإمام منا من منع حوزته وجاهد في سبيل الله حق جهاده ودفع عن رعيته وذبح عن حريمه. ^{١٧}

^{١٤} - الصدوق، عيون اخبار الرضا، ج ٢ ، ص ٦٢

^{١٥} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٢٢، والأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ١٨

^{١٦} - العياشي، التفسير، ج ٢، ص ٢٩١

^{١٧} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ٢٥٧ و ٣٠٥

ولم يكن الإمام الصادق يطرح نفسه كإمام مفترض الطاعة من الله ، وإنما كزعيم من زعماء أهل البيت ، ولذلك فقد استنكر قول بعض الشيعة في الكوفة "إنه إمام مفترض الطاعة من الله". وقال لمن سأله: ما اعرف ذلك في أهل بيتي .^{١٨} وقد استطاع الإمام الصادق أن يثبت إمامته وجدارته في قيادة الشيعة بما كان يتمتع به من خلق رفيع وعلم غزير ومحدد كريم . ولم يكن بحاجة ماسة للوصية أو الإشارة إليه لكي يتبوأ ذلك المقام العظيم الذي احتله في المجتمع والتاريخ. ولا توجد في التراث الشيعي أحاديث كثيرة عن موضوع النص عليه أو الوصية له من أبيه بالإمامة ، ما عدا رواية تتحدث عن وصية عادية جداً .^{١٩}

ونتيجة لعدم تمتع الإمام الصادق بميزة "إلهية" خاصة ، وعدم معرفة الشيعة في ذلك الزمان بوجود أي نص إلهي حوله بالإمامة ، فقد قام عمه الإمام زيد بن علي بقيادة الشيعة، وفجر ثورة في الكوفة سنة ١٢٢هـ ، والتف الشيعة من بعده حول ابنه يحيى بن زيد الذي قام بثورة أخرى ضد النظام الأموي سنة ١٢٥هـ.. وبعد فشل هاتين الثورتين بثلاثة أعوام تفجرت ثورة شيعية أخرى واسعة عام ١٢٨ للهجرة ، بقيادة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار. وهي الثورة التي عصفت بجماهير الشيعة في مختلف مدن العراق وامتدت إلى الماهين وهمذان وقومس واصبهان والري وفارس ، وقد كان شعار الثورة : (إلى الرضا من آل محمد) وهي دعوة عموم الشيعة في ذلك الحين ، وقد اتخذ عبد الله ابن معاوية من اصبهان مركزاً لدعوته وحركته ومناطق نفوذه ، وبعث إلى الهاشميين علويين وعباسيين يدعوهم إليه ليساهموا معه في إدارة البلاد التي سيطر عليها فقدم عليه عدد كبير منهم.^{٢٠}

وبعد فشل هذه الثورة ذهب الشيعة إلى اتباع الإمام محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ذي النفس الزكية الذي ظهر في المدينة في أول رجب سنة ١٤٥هـ، في أيام المنصور العباسي.^{٢١}

بؤادر الفكر الإمامي

وفي تلك الأثناء، قام فريق صغير من المتكلمين الشيعة بالغلو في أهل البيت، وادعى بعضهم كهشام بن الحكم الكندي وهشام بن سالم الجواليقي ومحمد بن علي النعمان ، الملقب بمؤمن الطاق، وعلي بن

^{١٨} - المصدر

^{١٩} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٠٧ والمفيد، الارشاد، ص ٢٧٢

^{٢٠} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٢٤١

^{٢١} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٦٢ والمفيد، الارشاد، ص ٢٦٨، والاصفهاني، مقاتل الطالبين، ص ١٦٧

إسماعيل بن شعيب بن ميثم التمار ، وحران بن أعين ، وأبي بصير المرادي : " أن الإمامة مفروضة من الله ، وهي في أهل البيت ، وإنها متوارثة في ذرية الحسين بصورة عمودية إلى يوم القيامة ، وإنها تثبت بالنص أو الوصية أو المعاجز الغيبية".^{٢٢} وكانوا يغلفون أقوالهم بلغائف من الكتمان ، ويدعون أن الأئمة كانوا يسرون لهم بذلك، خلافا لما كانوا يعلنون ، ويفسرون نفيهم لهذه النظرية بالخوف والتقية.

فلسفة العصمة

وقد انطلق أولئك المتكلمون في بناء نظريتهم "الإمامية" من ضرورة "العصمة" في الإمام (أي الرئيس أو الخليفة أو السلطان) وذلك بناء على مفهوم الإطلاق في الطاعة لأولي الأمر، وعدم جواز النسبية فيها. وهو المفهوم الذي كان الحكام الأمويون يدأبون على ترويجه، ويطالبون المسلمين بطاعتهم طاعة مطلقة في الخير والشر ، على أساسه. وهو ما أوقع فلاسفة الإمامية والمتكلمين في شبهة التناقض بين ضرورة طاعة الله الذي يأمر بطاعة أولى الأمر، كما في الآية الكريمة: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم) النساء ٥٩ ، وضرورة طاعة الحكام بصورة مطلقة حتى في المعاصي والمحرّمات. فقال المتكلمون بضرورة أن يكون الإمام (مطلق الإمام) "معصوماً من الله" حتى لا يأمر بمعصية ولا يقع المسلمون في حرج التناقض بين طاعته في ذلك وعصيان الله ، أو معصيته وعصيان الله الذي يأمر بطاعته.^{٢٣}

وبالإضافة إلى قضية الطاعة وضرورة أن يكون الوالي أو صاحب الأمر معصوماً ، ادعى بعض المتكلمين الشيعة عدم استطاعة المسلمين التعامل مع القرآن والاستفادة منه مباشرة، وقالوا بوجود حاجة إلى مفسر للقرآن الكريم يستقي علمه من الله.^{٢٤} ورفضوا طريق الاجتهاد للحصول على العلم الشرعي.^{٢٥} ورأى بعضهم ضرورة توفر شروط أخرى في الإمام ، وهي وجوب أن يكون أفضل المسلمين ، وعدم جواز إمامة المفضول.^{٢٦}

^{٢٢} - الكليني، الكافي، ج ١، ص ١٧٤، والطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ١٤١

^{٢٣} - الطوسي، تلخيص الشافي، ج ١، ص ١٩٢

^{٢٤} - الكليني، الكافي، ص ١٦٩ و المرتضى، الشافي، ج ١، ص ١٤ - ١٥

^{٢٥} - المصدر، ج ١، ص ٢٣٦

^{٢٦} - المصدر ، ج ١، ص ١٩٩ - ٢١١

وبعد تقرير ضرورة اتصاف الإمام ، مطلق الإمام ، بالعصمة والأفضلية، وعدم جواز إمامة غير المعصوم أو الجاهل أو المفضول ، وهو ما لا يوجد طريق للتعرف عليه سوى إرشاد الله تعالى إليه، قام الفكر الإمامي بإسقاط الشورى طريقاً لاختيار الإمام ، ليحل محلها النص أو الوصية أو المعاجز الغيبية التي تميز الإمام المختار من قبل الله تعالى عن غيره من البشر.^{٢٧}

يقول الشريف المرتضى: "إذا ثبت وجوب كون الإمام علماً بكل الأحكام استحاله اختياره ووجوب النص عليه... وإذا ثبت أن الإمام لنا في جميع الدين وعلومه وأحكامه ، وجب أن يكون أفضل منا في جميع ذلك ، وفي ثبوت كونه أفضل وأكثر ثواباً وجوب النص عليه ، لأن ذلك مما لا طريق إلى معرفته بالاختيار".^{٢٨} ويضيف: "اعلم أن كلامنا في وجوب النص ، وأنه لا بد منه ولا يقوم غيره في الإمامة مقامه ، تقدم ، وذلك كافٍ في فساد الاختيار ، لأن كل شيء أوجب النص بعينه فهو مبطل للاختيار".^{٢٩}

وبعد أن يبطل الفكر الإمامي قانون الشورى والانتخاب، ينتقل إلى ضرورة النص على الإمام من الله كطريق وحيد لمعرفته ، ثم يحصر الإمامة في الأئمة المعصومين من أهل البيت ، وهم الإمام علي بن أبي طالب والحسن والحسين والأئمة من ذرية الحسين "الذين نصبهم الله تعالى قادة لخلقه إلى يوم القيامة". ولكن الفكر الإمامي يعجز عن إثبات النصوص على الأئمة الإثني عشر ، وخاصة الإمام علي بن الحسين ، الذي يشكل حلقة الوصل بين الإمام الحسين ، وبين بقية أبنائه إلى يوم القيامة. ولذلك يذهب إلى الاعتماد على وسائل أخرى غير النص في إثبات الإمامة للأئمة الآخرين ، وهي الوصية والعقل والمعاجز وما إلى ذلك.^{٣٠}

انحصار الإمامة في ذرية الحسين

واختلف الشيعة الأوائل في امتداد الإمامة في البيت الحسيني أو الحسيني، فقال بعضهم كالجارودية: إن حديث الثقلين يشمل الجميع. وبنوا نظريتهم في جواز الإمامة في أبناء الحسن والحسين على ذلك الحديث.^{٣١} وفضل بعضهم أبناء الحسن على أولاد الحسين، وذهبوا إلى كون المهدي المنتظر منهم. فيما

^{٢٧} - المفيد، الثقلان، ص ١٧٩

^{٢٨} - المرتضى، الشافي، ج ٢ ، ص ١٧ و ٤٢

^{٢٩} - المرتضى، الشافي، ج ٤ ، ص ٦

^{٣٠} - المفيد، الإرشاد، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ والحلي، نهج الحق، ص ١٦٨

^{٣١} - المفيد، الثقلان، ص ١٠

قام فريق ثالث بحصر الإمامة في ذرية الحسين فقط دون دليل ظاهر. وقد ادعى هشام بن سالم الجواليقي انه سأل الإمام الصادق كيف صارت الإمامة من بعد الحسين في عقبه دون ولد الحسن؟.. فقال: "إن الله تبارك وتعالى أحب أن يجعل سنة موسى وهارون جارية في الحسن والحسين، ألا ترى أنهما شريكين في النبوة كما كان الحسن والحسين شريكين في الإمامة".^{٣٢} ولكن الشيعة ظلوا يتساءلون عن سر حصر الإمامة في ذرية الحسين مع قيام أبناء الحسن بقيادة الشيعة عمليا وتفجيرهم للثورات المختلفة هنا وهناك.^{٣٣} وكان عبد الله بن الحسن بن الحسن ينكر حصر الإمامة في البيت الحسيني، ويقول مستنكرا: "كيف صارت الإمامة في ولد الحسين دون الحسن وهما سيدا شباب أهل الجنة؟! وهما في الفضل سواء، إلا أن للحسن على الحسين فضلا بالكبر، وكان الواجب أن تكون الإمامة إذن في الأفضل".^{٣٤}

الورثة العمودية

وإضافة الى ذلك قال الامامية بامتداد الإمامة في أولاد الحسين بصورة عمودية حتى قيام الساعة، وذلك في الأكبر فالأكبر، وعدم جواز انتقالها الى أخ أو ابن أخ، أو عم أو ابن عم.^{٣٥} وقد روى الكليني والصدوق والمفيد والطوسي أحاديث عن الإمام الصادق تشير الى قانون الورثة العمودية وامتداد الإمامة في الأعقاب وأعقاب الأعقاب، هكذا أبداً الى يوم القيامة.^{٣٦}

استمرار الإمامة الى يوم القيامة

وبعد سقوط نظرية الشورى، عند فلاسفة نظرية الإمامة الإلهية، كطريق لانتخاب الإمام، كان لا بد أن تمتد هذه النظرية من يوم وفاة الرسول الأعظم (ص) الى يوم القيامة، ولا تتحدد في فترة معينة. ومن هنا قال هشام بن الحكم في حوار مع ضرار: "لا بد من أن يكون في كل زمان قائم بهذه الصفة (العصمة) الى أن تقوم الساعة". وروى أبو بصير عن الإمام الباقر أن الإمامة في ولد علي وفاطمة الى أن

^{٣٢} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤١٦

^{٣٣} - الصدوق، إكمال الدين، ص ١٢٠

^{٣٤} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٢١٠

^{٣٥} - الصدوق، علي بن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ١٧٧ و المفيد، الرسائل العشر، مختصر من الكلام على الزيدية، ص ١٥٧

^{٣٦} - الكليني، الكافي، ج ١، ص ٢٨٦، والمفيد، الإرشاد، ص ٢٨٩، والصدوق، إكمال الدين، ص ٤١٤، والطوسي، الغيبة، ص ١١٨

تقوم الساعة".^{٣٧} وروى إسحاق بن غالب عن أبي عبد الله الصادق: "... كلما مضى منهم إمام نصب لخلقه من عقبه إماماً".^{٣٨}

وفي الحقيقة لم تكن هناك قائمة مسبقة بأسماء الأئمة القادمين ، وإنما كانت هذه القضية متروكة للزمن، وهناك أحاديث عديدة تقول: إن الأئمة لم يكونوا يعرفون بخلفهم من قبل، وانهم كانوا يعلمون بذلك في اللحظات الأخيرة من حياتهم، حيث يروي الصفار عن الإمام الصادق انه قال: "إن الإمام السابق لا يموت حتى يعلمه الله الى من يوصي، و إن الإمام التالي يعرف إمامته في آخر دقيقة من حياة الأول".^{٣٩}

ونظرا لعدم وجود قائمة مسبقة بأسماء الأئمة، معدة من قبل ، فقد كانت قضية معرفة هوية الإمام الجديد تعتبر قضية هامة عند الامامية. وكانوا يسألون الأئمة دائما عن مواصفات الأئمة القادمين، وكان الأئمة يجيبونهم بالعلامات لا الأسماء، كالسكينة والوقار والعلم والكبر والوصية.^{٤٠} وكثيراً ما كان الأئمة يرفضون إخبارهم بذلك.^{٤١} وهناك أحاديث كثيرة تصرح بإمكانية جهل الشيعة بالإمام، وترسم لهم الموقف في ذلك الظرف، كالتمسك بالأول حتى يستبين الآخر.^{٤٢}

وقد روى الكليني والصدوق والمفيد حديثاً عن عيسى بن عبد الله العلوي العمري عن أبي عبد الله جعفر بن محمد، قال قلت له: "جعلت فداك : إن كان كونٌ ولا أراني الله يومك فبمن أأتم ؟ قال: قال فأوماً الى موسى ، فقلت : فإن مضى موسى فبمن أأتم ؟.. قال : بولده ، قلت فان مضى ولده وترك أخا كبيراً وابناً صغيراً فبمن أأتم ؟.. قال: بولده ، ثم هكذا أبداً ، قلت: فان أنا لم اعرفه ولم اعرف

^{٣٧} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٢٢٢

^{٣٨} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٢٠٤ و الصدوق، إكمال الدين، ص ٢٤٥ و الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٢٦١، وج ٢ ، ص ١٣١ ، والعطاردي، مسند الرضا، ص ١٠٨

^{٣٩} - الصفار، بصائر الدرجات، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ و ٤٧٧ - ٤٧٨

^{٤٠} - الصفار، بصائر الدرجات، ص ٤٨٩ وابن بابويه الصدوق، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ٢٢٦ و الكليني،

الكافي، ج ١ ، ص ٢٨٤، والصدوق، الخصال، ص ١١٦

^{٤١} - الصفار ، بصائر الدرجات، ص ٢٣٦، و ٢٣٩

^{٤٢} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٤٢ و الصدوق، إكمال الدين، ص ٣٤٨ و ٣٥٠ - ٣٥١

موضعه فما اصنع ؟.. قال: تقول: اللهم إني أتولى من بقي من حججك من ولد الإمام الماضي، فان ذلك يجزئك".^{٤٣}

سرية نظرية الإمامة

إن نظرية الإمامة الإلهية القائمة على العصمة والنص، لم تكن شائعة ومعروفة في أوساط الشيعة أو أهل البيت أنفسهم في القرن الأول الهجري، ولم تكن لها رائحة في المدينة، وإنما بدأت تدب تحت الأرض في الكوفة في بداية القرن الثاني، وكان المتكلمون الذين ابتدعوها يلفونها بستار من التقية والكتمان.^{٤٤} وبما أن الأئمة من أهل البيت كانوا ينفون نظرية الإمامة الإلهية وينفون علمهم بالغيب، فقد أطلق المتكلمون الإماميون على هذه الحالة اسم "التقية". وذلك لكي يفسروا ظاهرة التناقض بين أقوال الأئمة وسيرتهم العلنية القائمة على الشورى والعلم الطبيعي، وبين دعوى "الإمامة الإلهية القائمة على النص والتعيين والعلم الإلهي الغيبي"، والتي كان ينسبها الاماميون الى أهل البيت سرّاً.

نظرية الإمامة في مواجهة التحديات

نقد فلسفة العصمة

لم تكن نظرية الإمامة الإلهية تولد، حتى واجهت سلسلة من التحديات التي وضعتها على محك الاختبار، وأثبتت استحالتها، فمن جهة كان مبدأ اشتراط "العصمة" في الإمام، الذي قامت عليه، مبدأ حادثاً، مرفوضاً من قبل أهل البيت وعموم الشيعة، حيث كانت فلسفة العصمة تقوم على مبدأ الإطلاق في الطاعة لولي الأمر، وعدم جواز أو إمكانية النسبية فيها، وذلك مثل الرد على الإمام ورفض إطاعته في المعاصي والمنكرات لو أمر بها، والأخذ على يده عند ظهور فسقه وانحرافه. وهو المبدأ الذي كان الحكام الأمويون يدأبون على ترويجه ومطالبة المسلمين بطاعتهم على أساسه طاعة مطلقة في الخير والشر، وهو ما أوقع فلاسفة الامامية في شبهة التناقض بين ضرورة طاعة الله الذي يأمر بطاعة أولى

^{٤٣} - الكليني، الكافي، ج ١، ص ٨٦، والصدوق، إكمال الدين، ص ٣٥٠، والمفيد، الإرشاد، ص ٢٨٩

^{٤٤} - الكليني، روضة الكافي، ص ١٠

الأمر في الآية الكريمة: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) النساء ٥٩ ،
وضرورة طاعة الحكام بصورة مطلقة حتى في المعاصي والمحرمات.^{٤٥}

لكن هذا الأمر لم يثبت من إطلاق الآية الشريفة ، التي قد تفهم أيضا على أساس النسبية ، بل إن
هذا ما يوحي به العرف والعقل والآيات الأخرى في القرآن الكريم ، التي تؤكد على مبدأ : " لا طاعة
لمخلوق في معصية الخالق " . ومع إن آية (أولي الأمر) كانت تنطبق على أولي الأمر والولاة والقادة الذين
كان يعينهم الرسول الأكرم في حياته ، فان المسلمين الأوائل لم يكونوا يفهمون منها : معنى الإطلاق ،
والطاعة لأولي الأمر حتى في المعاصي والمنكرات ، وقد رفضت جماعة من المسلمين كان الرسول الأكرم قد
أرسلها في سرية وأمر عليها رجلا ، طاعة ذلك الرجل عندما أمر الجماعة في وسط الطريق بدخول نار
أشعلها ، وطالبهم بالامتنال لأوامره ، وقالوا له: لقد فررنا من النار فكيف ندخل فيها . وفهموا الطاعة
في حدود العرف والعقل والشرع ، وليس خارج ذلك ، وعادوا فأخبروا الرسول بما فعل القائد ، فأقرهم
على موقفهم العقلاني ، وحذرهم قائلا: لو دخلتم فيها للبتتم فيها.

وهذا ما يؤيد إمكانية الفهم النسبي لآيات القرآن الكريم في حدود العقل والعرف والسيرة والشرع،
وعدم جواز فهمها فهما مطلقا دائما حتى في حالات التعارض مع أحكام أخرى عقلية أو شرعية.

وإذا انتفى الإطلاق وثبتت النسبية في الطاعة لأولي الأمر؛ لا تبقى حاجة الى اشتراط العصمة في
الإمام ، ويمكن للمسلمين انتخاب قائد لهم على أساس العدالة الظاهرية والتقوى والكفاءة، ليطبق لهم
الدين ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وإذا انحرف هذا القائد (الإمام) فان لهم الحق في عصيانه
ومخالفة أوامره وإسقاطه عن منصب الإمامة ، ولا طاعة له من الله في أعناقهم. ولكن المتكلمين الامامية
رفضوا النسبية رفضا مطلقا وأصرروا على مفهوم الإطلاق من الآية ، ولذلك بنوا نظريتهم في العصمة على
هذا الأساس ، ثم أقاموا سائر المقولات على قاعدة العصمة.^{٤٦}

^{٤٥} - الكراجكي، كنز العرفان، ص ٤٤٩، والطوسي، تلخيص الشافي، ج ١ ، ص ١٩٢، والحلي، منهاج الكرامة
في إثبات الإمامة، ص ٥١ ونهج الحق، ص ١٦٤

^{٤٦} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٣٦٢ - ٣٦٨ والمفيد، شرح عقائد الصدوق، ص ١٠٦ ، والنكت الاعتقادية،
ص ٤٨ - ٤٩ ، والحلي، كشف المراد، ص ٣٦٥ ، والمجلسي، بحار الأنوار، ج ١١ ، ص ٢٩١

وكان أهل البيت أنفسهم يرفضون "العصمة" أشد الرفض ، ويصرحون أمام الجماهير بأنهم أناس عاديون قد يخطئون وقد يصيبون وأنهم ليسوا معصومين من الذنوب ، ويطالبون الناس بنقدتهم وإرشادهم واتخاذ موقف المعارضة منهم لو صدر منهم أي خطأ أو أمروا بمنكر لا يسمح الله . وقد وقف الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في مسجد الكوفة وخاطب الجموع قائلاً: "لا تكلموني بما تكلم به الجبابرة ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادية ولا تخالطوني بالمصانعة ولا تظنوا بي استثقالا في حق قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي لما لا يصلح لي ، فانه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه .. فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل ، فإنني لست في نفسي بفوق أن أخطيء ولا آمن ذلك من فعلي ، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني . فإنما أنا وانتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره يملك منا ما لا نملك من أنفسنا ، وأخرجنا مما كنا فيه الى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى وأعطانا البصيرة بعد العمى".^{٤٧}

وقال الإمام الصادق: " والله ما نحن إلا عبيد ... ما نقدر على ضر ولا نفع ، إن رحمنا فبرحمته، وإن عذبنا فبذنوبنا ، والله مالنا على الله من حجة ولا معنا من الله براءة ، وإننا لميتون ومقبورون ومنشورون ومبعوثون ومسئولون .. أشهدكم أني امرئ ولدي رسول الله وما معي براءة من الله ، إن أطعت رحمي وإن عصيته عذبي عذابا شديدا".^{٤٨}

أزمة البداء

ومن جهة أخرى أصيبت النظرية الامامية الوليدة ، في منتصف القرن الثاني الهجري، بنكسة شديدة عندما توفي إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان الاماميون في الكوفة قد التفوا حوله ونقلوا عن أبيه: أن إسماعيل خليفته من بعده ، فلما توفي في حياة أبيه تبين أن تعيينه ليس من الله ، وإلا فانه لم يكن ليموت قبل أبيه ، أو كان الإمام يوصي الى من يعلم من الله انه سوف يبقى بعده. ولكن الإمامية غطوا على هذه المشكلة، بالقول بالبداء ، والزعم بتغير إرادة الله بشأن إسماعيل ، بعد أن كان الإمام الصادق ، حسب قولهم، قد أشار اليه وعينه إماما من بعده.

ورفض الإمام الصادق بعد ذلك تحديد هوية الإمام من بعده، فتوفي زرارة بن أعين ، وهو من أكبر أصحاب الإمامين الباقر والصادق ، دون أن يعرف هوية الإمام الجديد ، فوضع القرآن على صدره

^{٤٧} - انظر الخطبة كاملة في: روضة الكافي للكليني، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ، وبحار الأنوار للمجلسي، ج ٧٤ ، ص

^{٤٨} - الكليني، الكافي ، الروضة، ص ٣١٢ ، والحر العاملي، إثبات الهداة، ص ٧٧٠

وقال: اللهم اشهد أني أأتم بمن أثبت إمامته هذا المصحف.^{٤٩} ولكن معظم الشيعة ذهبوا الى القول بإمامة عبد الله الأفطح بن الصادق، باعتباره أكبر أولاد الإمام.^{٥٠} وكاد أن يحضى بإجماع الشيعة عليه بالرغم من عدم وجود نص واضح وصريح عليه من أبيه الإمام الصادق.^{٥١} إلا أن عبد الله توفي بعد حوالي سبعين يوما من وفاة أبيه الصادق ، دون ان يخلف ولدا تستمر الإمامة في ذريته ، وهذا ما خلق أزمة جديدة في صفوف الامامية الذين كانوا يعتقدون أن الإمامة من الله ، وانها لا بد ان تستمر في الأعقاب وأعقاب الأعقاب هكذا أبدا الى يوم القيامة، فانقسموا الى ثلاث فرق ، حيث تراجع قسم منهم وهم "الموسوية" عن القول بإمامته وشطبوا اسمه من لائحة الأئمة. وانتقل قسم آخر الى القول بإمامة أخيه موسى من بعده ، وعرف هؤلاء بالفطحية، وكانوا من كبار أصحاب الإمام الصادق وبقية الأئمة اللاحقين .^{٥٢} وقد تجاوز هؤلاء مسألة الوراثة العمودية ، وأجازوا القول بإمامة الأخوين إذا لم للسابق ولد. بينما أصر فريق ثالث على ادعاء وجود ولد لعبد الله الأفطح ، في السر ، وقد أخفاه للتقية ، وقالوا إن اسمه (محمد بن عبد الله) وانه المهدي المنتظر ، وانه غائب في اليمن.

وقد كشفت هذه الأزمة عن هشاشة وغموض نظرية النص في الإمامة ، وصعوبة تحديد الامامية أو معرفتهم بالإمام المنصوص عليه من الله، أو اتفاقهم عليه، وإمكانية القول بإمام لا تتوفر فيه شروط الإمامة ، ثم التراجع عنه بعد ذلك ، مثل عبد الله الأفطح.

دليل المعاجز

ولما لم يكن الإمام موسى الكاظم يدعو الى نفسه، ولم يكن يوجد عليه أي نص خاص من الله أو من أبيه ، فقد لجأ الامامية الى سلاح "المعاجز وعلم الغيب" ليشبثوا وجود الارتباط الخاص بالسماء للإمام الكاظم ، وتحديدده من بين اخوته كورث شرعي ووحيد للإمام الصادق.^{٥٣} ويقول الكليني: "إن الإمام

^{٤٩} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٧٥ - ٧٦

^{٥٠} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٥١ - ٣٥٢ ، والمفيد، الإرشاد، ص ٢٩١ ، والصفار، بصائر الدرجات، ص

٢٥٠ - ٢٥٢ ، والكشي، الرجال، ترجمة هشام بن سالم

^{٥١} - الأشعري، المقالات والفرق، ص ٨٧

^{٥٢} - المفيد، الفصول المختارة، ص ٢٥٣ ، والإرشاد، ص ٢٨٥ و ٢٩١ والصدوق، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص

٢٠٥ ، والنوختي، فرق الشيعة، ص ٧٧ - ٧٨ ، والأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ٨٧

^{٥٣} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٢٨٥ ، والمفيد، الإرشاد، ص ٣٠٧

الكاظم كان يعلم متى يموت الرجل ويخبر أصحابه بذلك ، كما يخبرهم بمصائرهم في المستقبل.^{٥٤} إلا ان هذا "الدليل" كان يعاني من مشكلة صعوبة إثباته لأي أحد، خاصة في ظل نفي الإمام الكاظم له وإنكاره لمعرفة علم الغيب .

ولم تكد نظرية الإمامة تلتقط أنفاسها بعد أزمة الوصية الى إسماعيل والبداء فيه ، وأزمة عبد الله الأفطح ووفاته دون عقب ، ثم أزمة إثبات إمامة الكاظم، حتى وقعت في أزمة جديدة هي: وفاة الإمام موسى الكاظم في سجن هارون الرشيد في بغداد سنة ١٨٣هـ بصورة غامضة ، وقول عامة الشيعة الموسوية بهروب الإمام من السجن وغيبته ، وإنكار وفاته. وقد كانت وفاة الكاظم غامضة حقاً بحيث التبس الأمر على معظم أبنائه و تلامذته وأصحابه.^{٥٥} وكان السبب الرئيسي في (وقوف) الشيعة الموسوية على الإمام الكاظم ، ورفض الاعتراف بإمامة ابنه الرضا ، هو وجود روايات كثيرة متداولة تلك الأيام بمهدوية الكاظم وحتمية قيامه قبل موته.^{٥٦}

وقد تشبث الاماميون في عملية إثبات "الإمامة" للرضا، بوصية الإمام الكاظم اليه ، ولكن الوصية كانت غامضة أيضاً ، و غير صريحة بالإمامة ، خاصة وان الكاظم أشرك فيها بقية بنيه مع الرضا.^{٥٧} ونتيجة لغموض النص حول الإمام الرضا ، وعدم شيوع نظرية الإمامة الإلهية بين أوساط الشيعة في عهده، فقد برز عدد من الزعماء العلويين الآخرين كقادة للحركة الشيعية المعارضة ، كعلي بن عبيد الله بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، و عبد الله بن موسى ، و محمد بن إبراهيم ابن طبطبا بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وأعلن محمد الديباج بن الإمام الصادق، نفسه: "أميراً للمؤمنين" في الحجاز ، وأخذ البيعة بعد صلاة الجمعة لست خلون من ربيع الآخر سنة ٢٠٠

^{٥٤} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٤٨٤

^{٥٥} - الطوسي، الغيبة، ص ٤٧، والكليني، الكافي، ج ١ ، والصدوق، عيون أخبار الرضا، ص ٣٩

^{٥٦} - الطوسي، الغيبة، ص ٢٩ - ٤٠

^{٥٧} - القرشي، باقر شريف، حياة الإمام موسى بن جعفر، ص ٤١٠ - ٤١١ (نقلا عن تحفة العالم للسيد جعفر آل

بجر العلوم، ج ٢ ، ص ٨٧)

للهجرة، وقد رجا أن يكون المهدي القائم .. ولكنه سرعان ما فشل وتنازل عن الخلافة ، وباع المأمون.^{٥٨}

وما يهمنا من أمر محمد الديباج ، هو موقف الطالبين والشيعة عموما من حركته، وحشر الناس لبيعته ، وهو ما يدل على حجم التأييد له بالنسبة الى ابن أخيه الرضا ، وجهل عامة الشيعة بنظرية الإمامة الإلهية القائمة على العصمة والنص التي كان يقول بها جماعة من المتكلمين في الكوفة بصورة سرية.

وعندما عرض المأمون العباسي الخلافة على الإمام علي بن موسى الرضا عام ٢٠١ للهجرة ، فانه لم يعرضها عليه باعتباره الإمام الثامن في سلسلة الأئمة الاثني عشر ، وإنما بناء على فضله وجلالته ، وكان المأمون قد عاهد الله ، خلال صراعه مع أخيه الأمين، أن ينقل الخلافة الى افضل آل أبي طالب، ثم أعلن: ان علي الرضا هو افضل العلويين.^{٥٩} وقد دعا المأمون الإمام الرضا لاستلام الخلافة منه ، وعندما رفض الإمام ذلك ، عرض عليه ولاية العهد فقبلها.^{٦٠}

ومهما اختلف المؤرخون في تحليل موقف المأمون ، فان مبايعة الإمام الرضا له وقبوله بولاية العهد، يكشفان عن موقف أيديولوجي ظاهر بشرعية خلافة المأمون وواقعية إمامة الرضا، بعيدا عن نظرية "الإمامة الإلهية الخاصة في أولاد علي والحسين" .

وقد تحدث الإمام الرضا عن نظرية الشورى بصراحة وروى عن آباءه وأجداده الأطهار ، حديثا عن رسول الله (ص) أنه قال: " من جاءكم يريد أن يفرق الجماعة ويغصب الأمة أمرها ويتولى من غير مشورة فاقتلوه فان الله قد أذن ذلك".^{٦١} وهو ما يكشف عن نظرية الإمام الرضا السياسية الحقيقية المنسجمة مع الخط العام لأهل البيت ، والتي تؤكد حق الأمة في الشورى واختيار حكامها وتدعو الى قتل كل من يغتصبها حقها ويستولي عليها بدون إرادتها ..

^{٥٨} - ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ١٢١، والأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص ٣٥٣ ، وتاريخ الطبري، ج ٣ ، ص

^{٥٩} - الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص ٥٦٣

^{٦٠} - الصدوق، عيون أخبار الرضا، ص ٢٤٦

^{٦١} - الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج ٢ ، ص ٦٢

أزمة الطفولة

ورغم ذلك فقد كان الإماميون يتشبثون بأفكارهم المغالية بعيدا عن أهل البيت، ولكنهم كانوا يصابون كل يوم بصدمة جديدة. وبينما كانوا يحاولون إثبات إمامة الرضا "الإلهية" بالنصوص والمعاجز، توفي الإمام الرضا في خراسان سنة ٢٠٣ هـ وكان ابنه (محمد الجواد) يبلغ من العمر سبع سنين ، مما أحدث أزمة جديدة في صفوفهم ، وشكل تحدياً كبيراً لنظريتهم السرية الوليدة . حيث لم يكن يعقل ان ينصب الله تعالى لقيادة المسلمين طفلاً صغيراً غير مكلف شرعاً، محجوراً عليه لا يحق له التصرف بأمواله الخاصة حسبما يقول القرآن الكريم: (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح، فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) النساء ٦، ولم تتح له الفرصة للتعلم من أبيه الذي تركه في المدينة وله من العمر أربع سنوات.^{٦٢} وهذا ما أدى الى انقسام الامامية الى عدة فرق :

أ - فرقة عادت الى الوقف على موسى الكاظم.^{٦٣}

ب - وفرقة ذهبت الى أخي الإمام الرضا (أحمد بن موسى) وكان على درجة من العلم والتقوى والورع ، كما يصفه الشيخ المفيد في (الإرشاد).^{٦٤} وقد نحا هؤلاء منحى الفطحية، ولم يلتزموا بدقة بقانون الوراثة العمودية ، واعتبروا الجواد الذي كان طفلاً صغيراً كأنه لم يكن. وذهب قسم آخر منهم للالتفاف حول الإمام محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، الذي كان يعيش في الكوفة ، وكان معروفاً بالعبادة والزهد والورع والعلم والفقہ ، وفجر ثورة ضد الخليفة المعتصم في الطالقان سنة ٢١٨ هـ.^{٦٥}

ج - وفرقة قالت بإمامة الجواد ، ولكنها اضطرت في الإجابة على مشكلتي العمر والعلم.^{٦٦}

ولما كان الاماميون يعتبرون الإمامة شبيهة بالنبوة، وأنها من الله ، فلم يصعب عليهم الاستشهاد بآية من القرآن الكريم تقول: (وآتيناه الحكم صبياً) مريم ١٢، وقالوا: كما أعطى الله النبوة ليحيى وهو طفل

^{٦٢} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٨٨ والأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ٩٦ - ٩٨

^{٦٣} - الأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ٩٦ ، والمفيد، الفصول المختارة، ص ١١٢ - ١١٣

^{٦٤} - المفيد ، الإرشاد ، والفصول المختارة، ص ٢٥٦، والنوبختي، فرق الشيعة، ص ٨٨ والأشعري ، المقالات والفرق،

ص ٩٧

^{٦٥} - الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص ٥٧٩ ، وتاريخ الطبري، ج ٧ ، ص ٢٢٣

^{٦٦} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٨٦ - ٩٠ والأشعري ، المقالات والفرق، ص ٩٩

صغير ، وكما أعطاهما لعيسى وهو طفل صغير، كذلك فلم لا يجوز أن يعطي الإمامة لمحمد الجواد وهو ابن سبع سنين؟ ورووا عن الجواد انه قال لمن استشكل في عمره : " إن الله تعالى أوحى الى داود أن يستخلف سليمان وهو صبي يرعى الغنم".^{٦٧}

وبالرغم من عدم وجود نص صريح بالإمامة من الرضا على الجواد ، أو الوصية له ، وعدم ادعاء الإمام الجواد نفسه بالإمامة، فقد اضطر الإماميون للقول بإمامته إنفاذا لنظريتهم من التهاوي والسقوط ، وكان لا بد أن يبنوا قولهم على مجموعة من حكايات المعاجز والعلم بالغيب.^{٦٨}

وقد تكررت مشكلة " صغر عمر الإمام " مرة أخرى مع ابن الجواد (علي الهادي) ، حيث توفي الجواد في مقتبل عمره ولما يكمل الخامسة والعشرين ، وكان ولده علي صغيرا لم يتجاوز السابعة. ولذلك أوصى أبوه بالأموال والضياع والنفقات والرقيق الى أحد أصحابه وهو: (عبد الله بن المساور) وأمره بتحويلها الى الهادي عند البلوغ ، وشهد على ذلك (أحمد بن أبي خالد) مولى أبي جعفر.^{٦٩} وهذا ما دفع الشيعة أيضا الى التساؤل: إذا كان الهادي بنظر أبيه غير قادر على إدارة الأموال والضياع والنفقات لصغره ، فمن هو الإمام في تلك الفترة؟ وكيف يقوم بالإمامة طفل صغير؟.. ولم يقدم الإمامية دليلا على إمامة الهادي ، سوى دعاوى المعاجز وعلمه بالغيب.^{٧٠}

مشكلة البداء .. مرة أخرى

كانت مسألة الإمامة عند أهل البيت وعامة الشيعة، تختلف في مفهومها عند "الامامية" الذين كانوا يشكلون فريقا صغيرا وسريا في الشيعة ، فهي كانت إمامة عادية بشرية عند أولئك ، وإمامة ربانية عند هؤلاء. ومن هنا كان أئمة أهل البيت يشيرون أحيانا الى أحد أبنائهم ، أو يتوقعون أن يخلفهم في مقامهم التوجيهي ، ويموت في حياتهم ، فيشيرون الى رجل آخر ، ولا يجدون في ذلك أي حرج أو تناقض. ولكن وفاة أحد أبناء الأئمة المرشحين للخلافة كان يسبب أزمة في صفوف الامامية الذين كانوا يعتقدون أن نصب الإمام يأتي من الله تعالى، ولذلك فقد كانوا يستغيرون أن يموت الإمام المقترح و"المعين" في نظرهم في حياة أبيه ، ويعتبرون ذلك تغييراً في الإرادة الإلهية ، وهو ما عبروا عنه بـ: "البداء"

^{٦٧} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٨٢ - ٣٨٤ و ٤٩٤

^{٦٨} - الصدوق، ابن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ٢٢٢ ، والكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٥٣ و ٤٩٦

^{٦٩} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٢٥

^{٧٠} - الصفار، بصائر الدرجات، ص ٤٦٧ ، والكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ ، ٥٠٢

مع انه كان من الصعب عليهم الاعتراف بالبداء وتغيير الله لإرادته في هكذا موضوع (كالإمامة) ، وذلك لما يسببه التغيير فيها من حرج وتشكيك للناس في صدقية الأئمة والتراجع عن اعتبار النص من الله.

لقد فسر الامامية وفاة إسماعيل بن جعفر الصادق ، الذي كانوا قد رشحوه لخلافة أبيه ، بالبداء ، ورفض بعضهم قصة الترشيح من أساسها في وقت لاحق ، بينما أنكر بعض آخر الوفاة ، وأصر على اختفاء إسماعيل عن الأنظار. وقد سببت وفاة إسماعيل هزة في الفكر الامامي أدت الى تراجع الكثير من الامامية عن الاعتقاد بأن الإمامة تعيين من الله. وتكررت القصة مرة أخرى بعد مائة عام تقريبا ، حيث أعلن الإمام الهادي عن ترشيح ابنه (السيد محمد) كخلف له، ولكنه توفي في حياته ، فأوصى الى أخيه - الحسن العسكري وقال له: " يا بني أحدث لله شكراً فقد أحدث فيك أمراً".^{٧١} ومثلما حدث مع الإسماعيلية، فقد رفض قسم من شيعة الإمام الهادي الاعتراف بوفاة ابنه محمد ، وأصروا على القول باستمرار حياته وغيبته ، وتفسير إعلان الهادي لوفاة ابنه بأنه نوع من التقية والتغطية على الحقيقة.^{٧٢}

وتكررت أيضا قصة وفاة عبد الله الافطح دون عقب ، مع الإمام العسكري ، الذي توفي كذلك، دون أن يشير الى وجود ولد له أو يوصي الى أي أحد بالإمامة ، مما أدى الى وقوع الأزمة الكبرى والحيرة العظمى في صفوف الامامية ، وتفرقهم الى أربعة عشر فرقة ، كل يقول برأي مختلف.

التطور الإثنا عشري

إذا القينا نظرة فاحصة على تاريخ الشيعة في القرنين الثاني والثالث، ورأينا تعاطفهم وتجاوبهم مع الثورات المختلفة التي كان يقودها الأئمة من أهل البيت، كثورة الإمام زيد وابنه يحيى وابنه عيسى، وثورة محمد بن عبد الله ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، وثورة الحسين شهيد فخر ، وثورة محمد بن القاسم وغيرهم .. ولوجدنا أن عامة الشيعة وجماهيرهم كانت تلتف حول (أهل البيت) ولكن من دون تحديد الإمامة في سلسلة معينة ، أو الإيمان بالنص من الله على واحد منهم ، فضلا عن تسلسلها في أبناء الحسن أو الحسين أو بشكل عمودي وراثي الى يوم القيامة ، ولوجدنا الشيعة بصورة عامة ، بعيدين

^{٧١} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ ، والصفار، بصائر الدرجات، ص ٤٧٣ ، والمفيد، الإرشاد، ص

٣٣٧ والطوسي، الغيبة، ص ١٢٢

^{٧٢} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٩٤

عن نظرية "الإمامة الإلهية" التي كان يقول بها بعض المتكلمين سراً ويلصقونها بأهل البيت ، الذين كانوا يبرؤون منها في الحقيقة وفي الظاهر.

ولو القينا نظرة على تراث الامامية خلال دينك القرنين الثاني والثالث لوجدنا النظرية الامامية مفتوحة وممتدة الى يوم القيامة ، وأنها لم تكن محصورة في عدد محدد من الأئمة أو فترة زمنية خاصة . ومع إنها وصلت الى طريق مسدود عند وفاة الإمام الحسن العسكري في سنة ٢٦٠ للهجرة، دون أن يخلف ولداً تستمر الإمامة فيه ، ودون أن يشير أو يوصي الى أي أحد من بعده ، فقد اعتقد الذين آمنوا بوجود ولد مخفي له ، في البداية ، أن الإمامة ستسمر في ذرية ذلك الولد المخفي الى يوم القيامة، ولم يعتقدوا في ذلك الحين ، أنه الإمام الأخير ، وأن الأئمة اثنا عشر فقط.

وتوجد في التراث الشيعي العشرات بل المئات من الروايات التي تؤكد على استمرار الإمامة الى يوم القيامة ، مما يؤكد أن النظرية الامامية لم تكن محددة في عدد معين، خلال القرنين الثاني والثالث. وان من يلاحظ تلك الروايات المتواترة التي تتحدث عن امتداد الإمامة الى يوم القيامة يجد أنها: عامة، ومطلقة، ومقصودة العموم والإطلاق . أي إنها آبية عن التخصيص والتقييد. وهي تعبر عن النظرية الامامية الإلهية الموازية لنظرية الشورى، الممتدة الى يوم القيامة ، وذلك في مراحل نشوئها الأولى، وقبل أن تصل الى الطريق المسدود.

ونظراً لأن نظرية الإمامة كانت في بدو نشوئها ممتدة الى يوم القيامة ولم تكن محددة في عدد معين من قبل ، فقد كانت النظرية تقول بأن النص قد حدث على الإمام علي فقط ، وان النص على الأئمة الآخرين يتم دائماً من قبل الأول للثاني وهكذا الى يوم القيامة.^{٧٣} ولم تكن تعرف وجود قائمة مسبقة بأسماء الأئمة (الإثني عشر).

وكانت النظرية الامامية، أيضاً ، تعترف بعدم وجود النص الصريح من بعض الأئمة على بعض ، فكانت تتشبه بالوصية العادية وتعتبرها دليلاً على الإمامة ، ولما لم تكن توجد أية وصية على بعض الأئمة الآخرين من آبائهم ، كالإمام زين العابدين، أو كانت الوصية مشتركة بين عدد من الاخوة ، كأبناء الإمام الكاظم، فقد كانت النظرية تقول: بأن دليل الإمامة الحاسم، هي المعاجز وعلم الغيب ، أو الكبر ، أو العلم ، أو حيازة سيف رسول الله. بل إن روايات كثيرة تشير الى عدم معرفة الأئمة أنفسهم بإمامتهم، أو إمامة الإمام اللاحق من بعدهم، إلا عند وفاتهم . فضلاً عن جهل الشيعة الامامية أنفسهم ، الذين كانوا يقعون في حيرة واختلاف بعد وفاة كل إمام ، وكانوا يتوسلون بكل إمام

^{٧٣} - الحر العاملي، إثبات الهداة، ج ٢ ، ص ٧١٧

أن يعين اللاحق بعده ويسميه بوضوح ، لكي لا يموتوا وهم لا يعرفون الإمام الجديد. ومع ذلك فكثيرا ما كانوا يقعون في الحيرة والجهل.^{٧٤} وهو ما يدل على امتداد نظرية الإمامة الى يوم القيامة، في طورها الأول، وعدم اقتصارها على عدد محدود.^{٧٥}

ميلاد النظرية الإثني عشرية

ونظرا لوصول نظرية "الإمامة الإلهية" الى طريق مسدود بعد وفاة الإمام الحسن العسكري من دون ولد ظاهر، والقول بوجود ولد له في السر وغيبته عن الأنظار، وعدم ظهوره لفترة طويلة جدا .. شهد القرن الرابع الهجري تطورا جديدا في النظرية الامامية هو حدوث الإثني عشرية ، وهي نظرية حدثت خاصة في صفوف الشيعة الموسوية ، وبالأخص في الجناح المتشدد الذي كان يلتزم بقانون الوراثة العمودية، ولا يقبل أي تسامح فيه، وقد قال ذلك الجناح بوجود قائمة مسبقة وتحديد أسماء الأئمة من قبل الرسول الأعظم باثني عشر إماما، هم: علي بن أبي طالب ، والحسن والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلي الرضا، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن العسكري، وآخرهم الإمام الغائب المهدي المنتظر: "محمد بن الحسن العسكري".

وكان الهدف من وراء تشكيل هذه القائمة المسبقة، إثبات وجود الإمام الثاني عشر، الذي كان وجوده محل شك ونقاش في صفوف الشيعة الامامية. وقد استعانوا بأحاديث "سنية" ذكرها البخاري ومسلم حول حدوث هرج ومرج بعد الخليفة، أو الأمير الثاني عشر.

ولكي ينسجم عدد الأئمة السابقين مع هذه الروايات فقد لجأ الإثنا عشريون الى حذف اسم الإمام زيد والإمام عبد الله الأفطح والإمام احمد بن موسى، الذين قال بإمامتهم كثير من الشيعة الامامية في السابق ، كما رفضوا الاعتراف بإمامة جعفر بن علي الهادي ، وأضافوا اسم (الإمام محمد بن الحسن العسكري) ونظموا قائمة جديدة بأسماء تسعة من أولاد الحسين واحدا بعد واحد ، وقالوا بأن هؤلاء الأئمة قد نصّ عليهم الرسول وأعلن أسماءهم من قبل، وجاءوا على ذلك بعشرات الأحاديث التي نسبوها الى رسول الله (ص) والأئمة السابقين.

^{٧٤} - راجع: بصائر الدرجات، ص ٤٧٣ ، والكافي، ج ١ ، ص ٢٧٧ و ٣٠٩ والإرشاد للمفيد وقرب الإسناد وتفسير العياشي.

^{٧٥} - الحر العاملي، إثبات الهداة، ج ٢ ، ص ٧١٤ - ٧١٥ والصفار، بصائر الدرجات، ص ٤٨٩

وقد أورد الكليني ، في مطلع القرن الرابع الهجري ، في كتابه (الكافي) سبع عشرة رواية تتحدث عن "الاثني عشرية" بينما ذكر الشيخ الصدوق ، بعد ذلك بنصف قرن ، خمساً وثلاثين رواية حول الموضوع (في كتابه إكمال الدين) ، وأكملها الخزاز، في كتابه (كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر) الى مائتي رواية، في نهاية القرن الرابع.

ولكن النظرية الاثني عشرية لم تستقر في أذهان الشيعة الامامية بسهولة، إذ انتشرت بعض الأحاديث التي تقول: إن عدد الأئمة ثلاثة عشرة. (كما ورد في كتاب سليم بن قيس الهلالي والكافي للكليني) وقد قامت على أثرها فرقة تسمى "الثلاث عشرية" بقيادة (أحمد بن هبة الله الكاتب، حفيد عثمان بن سعيد العمري). وقد قال الصدوق بصراحة: "إننا لسنا مستعبدين في ذلك إلا بالإقرار باثني عشر إماماً ، واعتقاد كون ما يذكره الثاني عشر بعده". وروى عدة روايات حول احتمال امتداد الإمامة بعد المهدي وعدم الاقتصار عليه، فروي عن الإمام أمير المؤمنين رواية حول غموض الأمر بعد القائم، وأن رسول الله قد عهد اليه أن لا يخبر أحداً بذلك إلا الحسن والحسين ، وأنه قال : " لا تسألوني عما يكون بعد هذا فقد عهد الي حبيبي أن لا أخبر به غير عترتي".^{٧٦}

الجزء الثاني

"الإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري"

حقيقة تاريخية ؟.. أم فرضية فلسفية ؟

^{٧٦} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٧٧ - ٧٨

المدخل:

عصر الحيرة!

وفاة الإمام العسكري

أدت وفاة الإمام الحسن العسكري، في سامراء سنة ٢٦٠ للهجرة، دون إعلانه عن وجود خلف له، والوصية بتركته الى أمه المسماة بـ: "حديث" الى تفجر أزمة عنيفة في صفوف الشيعة الامامية الموسوية ، الذين كانوا يعتقدون بضرورة استمرار الإمامة الإلهية الى يوم القيامة. وحدث نوع من الشك والحيرة والغموض والتساؤل عن مصير الإمامة بعد العسكري ، وتفرقهم في الإجابة عن ذلك الى أربع عشرة فرقة. كما يقول النوبختي في (فرق الشيعة)، وسعد بن عبد الله الأشعري القمي في (المقاتلات والفرق)، ومحمد بن أبي زينب النعماني في (الغيبة)، والصدوق في (إكمال الدين)، والمفيد في (الإرشاد) والطوسي في (الغيبة) ، وغيرهم .. وغيرهم ..

ويقول المؤرخون الشيعة: إن جعفر بن علي الهادي، أخا الحسن العسكري، حاول أن يحوز كل تركة الإمام، ولما اتصل خبر وفاة الحسن بأمه وهي في المدينة، خرجت حتى قدمت (سرّ من رأى) وادعت الوصية عنه، وثبت ذلك عند القاضي.^{٧٧}

ويذكر المؤرخون الشيعة أيضا: أن جارية للإمام العسكري، تسمى صقييل ، ادعت أنها حامل منه، فتوقفت قسمة الميراث. وحمل الخليفة العباسي المعتمد الجارية صقييل الى داره، وأوعز الى نساءه ، وخدمه ونساء الواثق ونساء القاضي ابن أبي الشوارب بتعهدها أمرها والتأكد من حملها واستيرائها .. ولم يزل الذين وكلوا بحفظ الجارية ملازمين لها حتى تبين لهم بطلان الحمل فقسم ميراث الحسن بين أمه وأخيه جعفر

^{٧٧} - الطوسي : الغيبة، ص ١٣٢ . والصدوق: إكمال الدين ج١ ص٤٤ . والمفيد: الإرشاد ، ص ٣٤١ و النجاشي: الرجال . ترجمة احمد بن عامر بن سليمان أبي الجعد . والطبري:دلائل الإمامة ، ص ٢٢٤ ، والصدر: الغيبة الصغرى، ص ٣١٥ ، والصدوق : إكمال الدين، ص ٤٤

ادعاء جعفر بن علي بالإمامة

ولما كانت الإمامة تثبت عادة بالوصية من الإمام السابق للآحق، فقد استغل أخو الإمام العسكري (جعفر بن علي الهادي) الذي كان ينافس أخاه على الإمامة في حياته ، استغل الفراغ الظاهري بعدم وجود ولد لأخيه ، وعدم وصيته أو إشارته الى أحد، فادعى الإمامة لنفسه بعد أخيه ، وقال للشيعة: "مضى أبو محمد أخي ولم يخلف أحدا لا ذكراً ولا أنثى ، وأنا وصيه" و كتب الى بعض المواليين في قم - التي كانت مركزاً للشيعة يوم ذاك - يدعوهم فيها الى نفسه ويعلمهم أنه القيم بعد أخيه، ويدعي أن عنده من علم الحلال والحرام ما يحتاج إليه غيره وغير ذلك من العلوم كلها.^{٧٩}

وينقل الصدوق حديثاً عن (أبي الأديان البصري) الذي يصفه بأنه خادم الإمام العسكري ورسوله الى الشيعة في مختلف الأمصار، أن عامة الشيعة عزّوا جعفر وهنّوه، وكان من ضمنهم "النائب الأول" عثمان بن سعيد العمري.^{٨٠}

ويذكر النوبختي والأشعري القمي والمفيد، أن بعض شيعة الإمام العسكري ، وخاصة الفطحية ، اعترفوا بالظاهر وسلموا بعدم وجود ولد للعسكري ، وآمنوا بإمامة أخيه جعفر . وقالوا : إن الحسن بن علي توفي ولا عقب له والإمام بعده جعفر بن علي أخوه ، وذهبوا في ذلك الى بعض مذاهب الفطحية الذين جمعوا بين إمامة عبد الله وموسى ابني جعفر الصادق، والذين لم يكونوا يشترطون الوراثة العمودية دائماً في الإمامة. وكان رئيسهم والداعي لهم الى ذلك رجل من أهل الكوفة من المتكلمين يقال له (علي بن الطاحي الخزاز) وعلماء بني فضال، وأخت الفارس بن حاتم بن ماهويه القزويني.^{٨١}

وكاد أهل قم أن يستجيبوا لجعفر، لأنهم لم يكونوا يعرفون غيره، وقد اجتمعوا الى شيخهم احمد بن إسحاق، وكتبوا الى جعفر كتاباً، جواباً عن كتابه، وطلبوا منه أن يجيبهم على عدة مسائل؛ قالوا: إن "أسلافنا سألوا عنها آباءك ، فأجابوا عنها بأجوبة، وهي عندنا نقندي بها ونعمل عليها، فاجبنا عنها بمثل ما أجاب آباؤك المتقادمون، حتى نحمل إليك الحقوق التي كنا نحملها إليهم". وأرسلوا وفدا منهم

^{٧٨} - الصدوق: إكمال الدين ٤٤ ، والطبري : دلائل الإمامة ٢٢٤

^{٧٩} - الطبرسي : الاحتجاج ج ٢ ص ٢٧٩ ، و الصدر: الغيبة الصغرى، ص ٣٠٧ والصدوق: إكمال الدين ، ص

٤٧٥ ، و الخصبي : الهداية الكبرى، ص ٣٩١

^{٨٠} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٧٥

^{٨١} - النوبختي: فرق الشيعة، ص ٩٨ و ٩٩ ، و الأشعري: المقالات والفرق، ص ١١٠ ، و المفيد: الفصول المختارة من العيون والمحاسن، ص ٢٥٩

الى جعفر لمخاورته، فأوصل الكتاب إليه وسأله في البداية عن كيفية انتقال الإمامة إليه مع وجود خبر يقول بعدم جواز انتقال الإمامة الى أخوين بعد الحسن والحسين؟ فاعتذر جعفر بحدوث البداء من الله، لعدم وجود ولد لأخيه الحسن.^{٨٢}

ويقول الخصبي (وهو أحد أركان الامامية في تلك الفترة): "إن الوفد أقام عليه مدة يسال عن جواب المسائل فلم يجب عنها، ولا عن الكتاب بشيء منه أبدا".^{٨٣} ولكن الصدوق والطوسي، ومحمد الصدر لا يتحدثون عن هذه المشكلة البسيطة التي لا تصعب على من يدعي الإمامة مثل جعفر، وإنما يقولون: "إن الوفد سأل جعفر عن الغيب، وطالبوه بإخبارهم عن كمية الأموال التي يحملونها من قم وعن أصحابها، وقالوا: إن الحسن كان يخبرهم بذلك ، فرفض جعفر التحدث بالغيب واستنكر نسبته الى أخيه".^{٨٤}

ويقول الخصبي : إن جماعة من أهل قم، هم: (أبو الحسين بن ثوبة وأبو عبد الله الجمال وأبو علي الصائغ والقزويني) كانوا يأخذون الأموال باسم جعفر ويأكلونها ولا يوصلونها إليه ويتهمونهم بالكذب، مما يشير الى أن قسما من شيعة قم آمنوا بإمامة جعفر ، بالفعل، وأخذوا يرسلون إليه الأموال.^{٨٥}

القائلون بانقطاع الإمامة

وكما يقول النوبختي والأشعري القمي، والكليني، والمفيد والصدوق، والطوسي، والحر العاملي، فإن قسماً آخر من الشيعة الامامية ذهب الى القول بالتوقف وانقطاع الإمامة، والقول بالفترة كالفترة بين الرسل ، وانهم اعتلوا في ذلك ببعض الأخبار عن الإمامين الباقر والصادق، حول إمكانية ارتفاع الأئمة وانقطاع الإمامة ، خاصة إذا غضب الله على خلقه، وقالوا: إن هذا عندنا ذلك الوقت.^{٨٦}

التراجع عن إمامة العسكري

^{٨٢} - الخصبي: الهداية الكبرى ٣٨٣ - ٣٩١

^{٨٣} - المصدر نفسه

^{٨٤} - الصدوق: إكمال الدين ٤٧٦ والطوسي : الغيبة... والصدر : الغيبة الصغرى ٣١٦

^{٨٥} - الخصبي، الهداية الكبرى، ص ٣٩٢

^{٨٦} - الكليني : الكافي ج ١ ص ٣٤٣ ، والحر العاملي : إثبات الهداة ج ٣ ص ٤٧٧ ، والطوسي : الغيبة ص ٢٤٤ .
الصدوق : إكمال الدين ، ص ٢٣٠ ، و النوبختي: فرق الشيعة، ص ١٠٥ ، و الاشعري: المقالات، ص ١١٥ ، و المفيد: الفصول، ص ٢٦٠

ويقول المؤرخان الشيعة المعاصران لتلك الفترة (النوبختي، والأشعري القمي): إن وفاة الإمام العسكري عن دون ولد ظاهر، أدت الى تراجع بعض الشيعة عن القول بإمامة العسكري نفسه ، كما تراجع بعض الشيعة الموسوية، قبل مائة عام، عن القول بإمامة عبد الله الأفطح الذي أصبح إماماً بعد أبيه الصادق، ولكنه لم ينجب ولدا تستمر الإمامة فيه ، وقال هؤلاء: " إن القول بإمامة الحسن كان غلطاً وخطأً ، وجب علينا الرجوع عنه الى إمامة جعفر ، وإن الحسن قد توفي ولا عقب له، فقد صح عندنا انه ادعى باطلاً، لأن الإمام بإجماعنا جميعاً لا يموت إلا عن خلف ظاهر معروف يوصي إليه وقيمه مقامه بالإمامة ، والإمامة لا ترجع في أخوين بعد حسن وحسين .. فالإمام لا محالة جعفر بوصية أبيه إليه " .^{٨٧}

وكان السبب في تراجع هؤلاء عن القول بإمامة العسكري، هو إيمانهم بقانون الوراثة العمودية، وعدم جواز انتقال الإمامة الى أخ أو ابن أخ، أو عم أو ابن عم.

الحمدية والنفيسية

وذهب قسم من هؤلاء المتراجعين عن القول بإمامة الحسن، الى القول بإمامة أخيه محمد، الذي كان قد توفي قبل سبع سنوات، في حياة أبيه الهادي، فأنكروا وفاة محمد وقالوا: إن أباه قد أشار إليه ونصبه إماماً ونص على اسمه وعينه ، وهذا ما يتفق عليه الجميع، ولا يجوز أن يشير الإمام بالوصية والإمامة الى غير إمام... إذاً فإنه لم يمت ، بل إن أباه قد أخفاه (تقية) ، كما أخفى الإمام الصادق ابنه إسماعيل ، حسب قول الإسماعيلية، وأنه هو المهدي المنتظر. وعرفت هذه الفرقة ب: (الحمدية).^{٨٨}

وقال قسم من هذه الفرقة : إن محمد ابن علي قد توفي ، وأنه أوصى الى غلام لأبيه اسمه "نفيس" ، وكان ثقة أميناً عنده ، ودفع إليه الكتب والعلوم والسلاح وما تحتاج إليه الأمة ، وأوصاه: إذا حدث به حدث الموت أن يؤدي ذلك كله الى أخيه جعفر.^{٨٩}

وكانت هذه الفرقة تتخذ موقفاً عنيفاً من الإمام الحسن العسكري وتكفره ، كما تكفر من يقول بإمامته ، وتغلو في جعفر ، وتدعي انه القائم. وقد عرفت هذه الفرقة المتطرفة باسم: (النفيسية).^{٩٠}

^{٨٧} - الأشعري : المقالات والفرق ، ص ١١ ، والنوبختي : فرق الشيعة، ص ١١٤

^{٨٨} - النوبختي: فرق الشيعة، ص ١٠١

^{٨٩} - النوبختي: فرق الشيعة ١٠٧ - ١٠٨ و المفيد: الفصول ٢٦٠

^{٩٠} - المصادر

القائلون بمهدوية العسكري

وقد ذهب قسم آخر من الشيعة الى إنكار وفاة الإمام العسكري ، والقول بمهدويته وغيبته . وذلك بناء على عدم جواز وفاة الإمام دون ولد معروف ظاهر " لأن الأرض لا تخلو من إمام " إمام واعتبروا اختفاء الإمام نوعاً من الغيبة عنهم .^{٩١}

ومنهم من اعترف بموت العسكري ، ولكنه قال بعودته الى الحياة مرة أخرى .. وذلك استنادا الى حديث حول معنى (القائم) : " أنه يقوم من بعد الموت ، ويقوم ولا ولد له " ، ولو كان له ولد لصح موته ولا رجوع ، لأن الإمامة كانت تثبت لخلفه ، ولا أوصى الى أحد .. فلا شك انه القائم ، وانه حي بعد الموت . وقالوا: انه قد عاش بعد الموت !.. وقد رووا : " أن القائم إذا بلغ الناس خبر قيامه قالوا : كيف يكون فلان إماما وقد بليت عظامه؟ " فهو اليوم حي مستتر لا يظهر، وسيظهر ويقوم بأمر الناس ويملا الأرض عدلا كما ملئت جوراً".^{٩٢}

ومنهم من قال: إن العسكري سيعود الى الحياة في المستقبل .. وإنما سمي القائم لأنه يقوم بعد ما يموت .

وقد اختلق هؤلاء، أو استوردوا أحاديث بهذا المضمون من بعض الحركات الشيعية الواقفية السابقة.^{٩٣} ويقول الصدوق: إن هؤلاء سُمُّوا بـ : (الواقفية على الحسن) ، وقد ادعوا: أن الغيبة وقعت به، لصحة أمر الغيبة عندهم، وجهلهم بموضعها.^{٩٤}

الخياري

وقد دفعت أزمة وفاة الإمام العسكري دون ولد ظاهر، بكثير من الشيعة الامامية، الذين كانوا يعتقدون بضرورة استمرار الإمامة الى يوم القيامة.. دفعتهم الى البحث والتمحيص والتفتيش عن ولد يحتمل أن يكون الإمام الحسن العسكري قد أخفاه لسبب من الأسباب ، كالخوف عليه من الأعداء مثلا، وأحجم بعضهم عن القول بأي شيء ، انتظارا لجلاء الأزمة، فلم يقولوا بإمامة جعفر ولم يقولوا بانقطاع الإمامة، ولم يقولوا بمهدوية الحسن العسكري، بل قالوا: " لا ندري ما نقول في ذلك .. وقد اشتبه علينا الأمر،

^{٩١} - النوبختي: فرق الشيعة، ص ٩٨ والاشعري: المقالات والفرق، ص ١٠٦

^{٩٢} - الاشعري: المقالات، ص ١٠٧ و النوبختي : فرق الشيعة، ص ٩٦ - ٩٨

^{٩٣} - النوبختي: فرق الشيعة، ص ٩٦ - ٩٨ ، و الاشعري : المقالات والفرق، ص ١٠٨

^{٩٤} - الصدوق: إكمال الدين، ص ٤٠

فلسنا نعلم أن للحسن بن علي ولداً أم لا؟.. أم الإمامة صحت لجعفر أم لمحمد؟.. وقد كثر الاختلاف ، إلا أنا نقول: إن الحسن بن علي كان إماماً مفترض الطاعة، ثابت الإمامة، وقد توفي وصحت وفاته ، والأرض لا تخلو من حجة. فنحن نتوقف ولا نقدم على القول بإمامة أحد بعده ، إذ لم يصح عندنا أن له خلفاء، وخفي علينا أمره ، حتى يصح لنا الأمر ويتبين ، ونتمسك بالأول حتى يتبين لنا الآخر ، كما امرنا : (انه إذا هلك الإمام ولم يعرف الذي بعده فتمسكوا بالأول حتى يتبين لكم الآخر) فنحن نأخذ بهذا ونلزمه، فانه لا خلاف بين الشيعة: أنه لا تثبت إمامة إمام إلا بوصية أبيه إليه وصية ظاهرة".^{٩٥}

الجنينون

وفي غمرة أجواء الشك والحيرة والخلاف والبحث عن الحقيقة هذه ، اعتمد بعض الشيعة الامامية على دعوى الجارية (صقيل) أو (نرجس) بالحمل من الحسن ، عند وفاته ، وقالوا بولادة ابن له ولد بعد وفاته بثمانية اشهر ، وانه مستتر ، لا يعرف اسمه ولا مكانه ، واستندوا الى حديث رواه عن الإمام الرضا ، يقول فيه : "إنكم ستبتلون بالجنين في بطن أمه والرضيع".^{٩٦}

وذهب قسم من هؤلاء الذين قالوا بوجود الحمل بعد الوفاة ، الى ادعاء استمرار الحمل في بطن أمه الى أمد غير منظور ، بصورة اعجازية ، وقالوا بحتمية ولادة الجارية لولد ذكر تستمر الإمامة فيه وفي ذريته الى يوم القيامة . واحتجوا بالخبر الذي روي عن الإمام الصادق: (إن القائم يخفى على الناس حمله وولادته).^{٩٧}

وبقدر ما كان احتمال الولادة بعد الوفاة أمراً وارداً وممكناً، فان دعوى استمرار الحمل في البطن الى ما يشاء الله، كانت غير معقولة، ومرفوضة جداً، خاصة وأن الجارية صقيل (أو نرجس) اختفت في زحمة الأحاديث، أو توفيت فيما بعد، ولم يستطع أحد أن يشاهدها وينظر الى نتيجة حملها بعد ذلك. إلا انه لم يكن بعيداً ، في تلك الأزمنة وأجواء الغلو البعيدة عن العقل والعرف ، أن يقول أي فريق بما يشاء من أقوال وفرضيات وأوهام.

القائلون بوجود الولد المسبق

^{٩٥} - النوبختي: فرق الشيعة، ص ١٠٨ ، والاشعري: المقالات، ص ١١٥ ، والمفيد: الفصول، ص ٢٦٠

^{٩٦} - النوبختي: فرق الشيعة، ص ١٠٣ ، والاشعري: المقالات، ص ١١٤ ، والمفيد: الفصول، ص ٢٦٠

^{٩٧} - النوبختي: فرق الشيعة، ص ١٠٤ ، والاشعري: المقالات، ص ١١٥ ، والمفيد: الفصول، ص ٢٦٠

وبالرغم من عدم توصل كثير من الشيعة الذين بحثوا عن ولد للعسكري، الى أية نتيجة، وفيما كانت الحيرة تعصف بعامة الشيعة الامامية، وكان الغموض يلف موضوع الخلف، والاختلاف يمزق الناس يمينا وشمالا، كان بعض أصحاب الإمام العسكري يهمسون في آذان الشيعة، بتكتم شديد، ويدعون وجود ولد له في السرّ، ولد قبل وفاة أبيه بسنتين أو ثلاث، أو خمس أو ستّ، أو ثماني سنين، ويزعمون أنهم قد رأوه في حياة العسكري، وأنهم على اتصال به، ويطلبون من عامة الشيعة التوقف عن البحث والتفتيش عنه، أو السؤال عن اسمه، ويحرمون ذلك. وكانوا يفسرون ادعاء الجارية صقيل بوجود الحمل عند وفاة العسكري، بأنها محاولة منها للتغطية على وجود الولد في السرّ.

وكان منهم : عثمان بن سعيد العمري، وكيل الإمام العسكري المالي، ومحمد بن نصير النميري ، وأبو القاسم الجعفري ، واحمد بن هلال العبرتائي الكرخي ، واحمد بن إسحاق القمي . وآخرون.. وقد عرف هؤلاء الذين قالوا بوجود ولد مغمور للإمام العسكري، بعد حوالي مائة عام، ب: (الاثنا عشرية) .^{٩٨}

عصر الحيرة

وقد كان القول بوجود ولد للإمام العسكري، قولاً سرياً باطنياً، قال به بعض أصحاب الإمام العسكري، بعد وفاته. ولم يكن الأمر واضحاً وبديهيّاً ، أو مجمّعاً عليه بين الشيعة في ذلك الوقت، حيث كان جوّ من الحيرة والغموض يلف مسألة الخلف، ويعصف بالشيعة بشدة. وقد كتب عدد من العلماء المعاصرين لتلك الفترة كتباً تناقش موضوع الحيرة وسبل الخروج منها، منهم الشيخ علي بن بابويه الصدوق، الذي ألّف كتاباً أسماه: (الإمامة والتبصرة من الحيرة).

وقد امتدت تلك الحيرة الى منتصف القرن الرابع الهجري، حيث أشار الشيخ محمد بن علي الصدوق، في مقدمة كتابه: (إكمال الدين وإتمام النعمة) الى حالة الحيرة تلك، التي عصفت بالشيعة وقال: " وجدت أكثر المختلفين إليّ من الشيعة قد حيرتهم الغيبة، ودخلت عليهم في أمر القائم الشبهة " وقد كلمني رجل بمدينة السلام (بغداد) فقال لي: إن الغيبة قد طالت، والحيرة قد اشتدت ، وقد رجع كثير عن القول بالإمامة لطول الأمد".^{٩٩} وذكر الكليني والنعماني والصدوق مجموعة كبيرة من الروايات التي تؤكد وقوع الحيرة بعد غيبة صاحب الأمر، واختلاف الشيعة ، وتشتمهم في ذلك العصر، واتهام بعضهم

^{٩٨} - الصدوق: إكمال الدين، ص ٤٨٣، والطوسي: الغيبة، ص ١٨٦، والنوبختي: فرق الشيعة، ص ١٠٢ ،

والاشعري: المقالات، ص ١١٤، والمفيد: الفصول، ص ٢٦٠

^{٩٩} - الصدوق: إكمال الدين، ص ٢ و ١٦

بعضاً بالكذب والكفر، والتفل في وجوههم ، ولعنهم، وانكفاء الشيعة كما تُكفأ السفينة في أمواج البحر، وتكسرهم كتكسر الزجاج أو الفخار.^{١٠٠}

وقال محمد بن أبي زينب النعماني، يصف حالة الحيرة التي عمّت الشيعة في ذلك الوقت: "إن الجمهور منهم يقول في الخلف: أين هو؟ وأنى يكون هذا؟ وإلى متى يغيب؟ وكم يعيش هذا، وله الآن تيف وثمانون سنة؟.. فمنهم من يذهب إلى أنه ميت، ومنهم من ينكر ولادته ويجحد وجوده بواحدة، ويستهزئ بالمصدق به، ومنهم من يستبعد المدة ويستطيل الأمد". ويقول النعماني: "أي حيرة أعظم من هذه التي أخرجت من هذا الأمر الخلق العظيم والجَمّ الغفير؟ ولم يبق ممن كان فيه إلا النزر اليسير، وذلك لشك الناس".^{١٠١}

وهذا مما يدل على أن قضية وجود ابن للإمام العسكري لم تكن قضية مجمعة عليها بين صفوف الشيعة الامامية في ذلك العصر، أو ان الشيعة الذين احتملوا وجوده بدءوا يتخلون عن إيمانهم هذا، بعد مضي سبعين عاماً على وفاة العسكري، وان دعاوى الإجماع والتواتر والاستفاضة التي يدعيها البعض على أحاديث وجود وولادة ومهدوية الإمام الثاني عشر (محمد بن الحسن العسكري) لم يكن لها رصيد من الواقع في ذلك الزمان.

ومن هنا لا بد أن نضع علامة استفهام على دعاوى الإجماع والتواتر المتأخرة، والمناقضة تماماً لحقائق التاريخ، خاصة وأن دعوى الإجماع والتواتر ، لا تمتنع من المراجعة والنقد والتمحيص. بالإضافة إلى أن الإجماع لا يشكل لدى الشيعة الامامية الإثني عشرية حجة بديلة عن الأدلة العلمية... وحسبما يقول علماء الأصول: فإن الإجماع يمكن أن يؤخذ به، في غياب الدليل الشرعي، فإذا علمنا استناد دعوى معينة على أدلة عقلية أو عقلية، فعلياً مراجعة تلك الأدلة ، وعدم التشبث بالإجماع. ومن المعروف أن دعوى ولادة الإمام الثاني عشر (محمد بن الحسن العسكري) تأتي بأدلة عقلية ونقلية وتاريخية، فلا بد إذاً من مراجعتها والتحقق منها بأنفسنا، وعدم الانسياق وراء المتكلمين الامامية، أو النفر الذين ادعوا وجود ولد للإمام العسكري في السر، وعدم التسليم بدعاواهم وفرضياتهم واجتهاداتهم.

الفصل الأول

^{١٠٠} - الكليني، الكافي، ج ١ ص ٣٦٦، ٣٣٨، ٣٤٠، والنعماني، الغيبة، ص ٨٩، ٢٠٦، ٢٠٨، والصدوق، عيون

أخبار الرضا، ص ١٦٨ ، وإكمال الدين، ص ٤٠٨

^{١٠١} - النعماني، الغيبة، ص ١١٣، و ١٨٦

أدلة وجود الإمام المهدي (مُحمَّد بن الحسن العسكري)

المبحث الأول:

الاستدلال الفلسفي

المطلب الأول : العقل أولاً ..

تقدم الفرقة (الإثنا عشرية) التي قالت بوجود ولد مستور للإمام الحسن العسكري ، واستمرار حياته إلى اليوم وإلى إن يظهر في المستقبل .. تقدم عدة أدلة على ذلك ، وهي تنقسم إلى أنواع عديدة، ويأتي على رأسها الدليل الأول : الفلسفي ، أو العقلي ، فماذا يقول هذا الدليل؟ وعلى ماذا يرتكز؟

إنه يقول :

أولاً : بضرورة وجود الإمام (أي الرئيس) في الأرض، وعدم جواز بقاء البلاد فوضى بلا حكومة.

ثانياً: ضرورة عصمة الإمام من الله ، وعدم جواز حكومة الفقهاء العدول ، أو الحكام العاديين .

ثالثاً: وجوب حصر الإمامة في أهل البيت وفي أبناء علي والحسين إلى يوم القيامة .

رابعاً : الإيمان بوفاة الإمام الحسن العسكري ، وعدم القول بغيبته و مهدويته .

خامساً: الالتزام بقانون الوراثة العمودية، وعدم جواز انتقال الإمامة إلى أخوين بعد الحسن والحسين.

قدّم المتكلمون الذين نظّروا لوجود (الإمام محمد بن الحسن العسكري) قديماً وحديثاً ، دليل العقل كأهم الأدلة على وجوده ، وأولّوه أهمية كبرى في عمليات الاستدلال . وقد نقل الشيخ الصدوق (توفي ٣٨١هـ) قول المتكلم الشيعي المعاصر لتلك الفترة: (أبي سهل إسماعيل بن علي النوبختي) الذي استدل على "وجود" ابن الحسن ، بالعقل ، وذكر في كتابه (التنبيه) ، الذي ألفه بعد ثلاثين عاماً من (الغيبة) : "إن الشيعة قد علموا بوجود ابن الحسن بالاستدلال ، كما عرفوا الله والنبي وأمور الدين كلها بالاستدلال" ١٠٢.

١٠٢ - الصدوق، إكمال الدين، ص ٩٢

واعتبر الشيخ المفيد (٣٣٨هـ - ٤١٣هـ) : " الدليل العقلي الذي يقتضي وجود الإمام المعصوم في كل زمان ... دليلاً كافياً على وجود ابن الحسن وحصر الإمامة فيه " ، و قال : " إن هذا أصل لن يحتاج معه إلى رواية النصوص لقيامه بنفسه في قضية العقول ، وصحته بثابت الاستدلال " .^{١٠٣}

واستخدم الشيخ الكراجكي (٤٢٧هـ -) الدليل العقلي ، القائم على ضرورة الإمامة وضرورة العصمة في الإمام ، في عملية الاستدلال على وجود ولد للإمام الحسن العسكري ، وثبوت الإمامة فيه وصحة غيبته ، وذلك "لأنحصار (العصمة) فيه مع عدم عصمة أدعياء الإمامة الآخرين" .^{١٠٤}

وقال السيد المرتضى علم الهدى (٣٥٥هـ - ٤٣٦هـ) : " إن العقل يقتضي بوجوب الرياسة في كل زمان ، وإن الرئيس لا بد من كونه معصوماً .. وإذا ثبت هذان الأصلان فلا بد من القول : انه (صاحب الزمان) بعينه ، لأن الصفة التي اقتضاها ودلّ على وجوبها لا توجد إلا فيه ، وتساق الغيبة بهذا سقاً ضروريا لا يقرب منه شبهة .. ولأنه إذا بطلت إمامة من أثبتت له الإمامة بالاختيار ، لفقد الصفة التي دلّ العقل عليها ، وبطل قول من خالف من شذاذ الشيعة ، فلا مندوحة عن مذهبنا ، فلا بد من صحته ، وإلا خرج الحق عن الأمة " .^{١٠٥}

ونفى السيد المرتضى الحاجة إلى مشاهدة الإمام للإيمان به ، بعد إمكانية التعرف عليه بالاستدلال العقلي ، و ردّ على القاضي المعتزلي عبد الجبار الهمداني الذي نفى في كتابه (المغني) وجود الإمام الثاني عشر وقال : " إن قول الشيعة بالعصمة أدهم إلى إثبات أشخاص لا أصل لهم ، وانهم اثبتوا في هذا الزمان إماما مختصا بنسب واسم من غير أن يعرف منه عين أو اثر " فقال المرتضى في (الشافي) : " إن قوله هذا مبني على مجرد دعوى ومحض اقتراح ، وقد دللنا على وجوب الإمامة في كل زمان ، بما لا حيلة فيه ولا قدرة على دفعه " .^{١٠٦}

وقال الشيخ الطوسي (٣٨٥هـ - ٤٦٠هـ) : " إن كل من قطع على وجوب اعتبار الدليل العقلي قطع على وجود (صاحب الزمان) وإمامته .^{١٠٧} وقال : " إن الإمام اليوم هو : الخلف الحجة القائم المنتظر

^{١٠٣} - المفيد، الإرشاد، ص ٣٤٧

^{١٠٤} - الكراجكي، كنز الفوائد، ص ٣٤٥

^{١٠٥} - المرتضى، رسالة في الغيبة، ص ٢ - ٣

^{١٠٦} - المرتضى، الشافي، ج ١، ص ٧٩ - ٨٠

^{١٠٧} - الطوسي، تلخيص الشافي، ص ٢١١

المهدي محمد بن الحسن صاحب الزمان... وان المهدي حي موجود من زمان أبيه الحسن العسكري إلى زماننا هذا، بدليل: إن كل زمان لا بد فيه من إمام معصوم ، مع إن الإمامة لطف واللفظ واجب على الله تعالى في كل وقت" ١٠٨.

وقسم الشيخ الطوسي الأدلة على ولادة (صاحب الزمان) إلى قسمين عقلية ونقلية ، وركز على أهمية القسم الأول بصورة مستقلة ، فقال: "أما الكلام في ولادة صاحب الزمان وصحتها فأشياء اعتبارية وأشياء إخبارية ، فأما الاعتبارية فهو: إذا ثبت إمامته بما دللنا عليه من الأقسام وإفساد كل قسم منها إلا القول بإمامته ، علمنا بذلك صحة ولادته ، وان لم يرد فيه خبر أصلاً" ١٠٩.

وبعد إن استعرض دليل العصمة، وان الإمام لا بد إن يكون معصوما وان الحق لا يخرج من الأمة، قال: "إذا ثبتت هذه الأصول ثبتت إمامة صاحب الزمان ، لأن كل من يقطع على ثبوت العصمة للإمام قطع على انه الإمام" ١١٠.

وقد تصدى الشيخ الطوسي لإبطال صحة ادعاءات الفرق الشيعية المختلفة من الكيسانية والناووسية والفتحية والواقفية وغيرها من الفرق التي ادعت العصمة لأئمتها ، واستنتج من ذلك: "ضرورة صحة إمامة ابن الحسن ، وصحة غيبته" ، ونفى - مع ثبوت ذلك - "الحاجة إلى تكلف الكلام في إثبات ولادته وسبب غيبته ، لأن الحق لا يجوز خروجه عن الأمة" ١١١.

واستدل الفتحال النيسابوري على وجود (صاحب الزمان) وإمامته ب: "ما يقتضيه العقل من الاستدلال الصحيح من استحالة خلو الزمان من كون معصوم يكون لطفاً للمكلفين" ١١٢.

وهكذا اعتبر الحسن بن أبي الحسن الديلمي: "انحصار العصمة في أئمة أهل البيت ، دليلاً على وجود الإمام الثاني عشر (الحجة بن الحسن)" ١١٣.

١٠٨ - الطوسي، مسائل كلامية / المسائل العشر، ص ٩٩

١٠٩ - الطوسي ، الغيبة، ص ١٣٨

١١٠ - المصدر ، ص ١٥

١١١ - المصدر نفسه، ص ٣ - ٤

١١٢ - النيسابوري ، روضة الواعظين، ص ٢٢٤

واحتج عبد الله بن النصر ابن الخشاب البغدادي ، لإثبات " وجود وإمامة القائم بالحق ابن الحسن ، بما يقتضيه العقل بالاستدلال الصحيح من : وجود أئمة معصوم .. ووجوب النص على من هذه سبيله أو ظهور المعجز عليه .. وعدم هذه الصفات من كل أحد سوى من أثبت إمامته أصحاب الحسن بن علي وهو ابنه المهدي " وقال : " إن هذا أصل لا يحتاج معه في الإمامة إلى رواية النصوص وتعداد ما جاء فيها من الأخبار ، لقيامه بنفسه في قضية العقول وصحته بثبات الاستدلال " .^{١١٤}

و جاء بعد ذلك العلامة الحلبي الحسن بن يوسف المطهر ، ليستدل على وجود (ابن الحسن) بالدليل العقلي الذي يتألف من : " وجوب الإمامة ، ووجوب كون الإمام معصوما ، ووجوب النص عليه أو ظهور المعجز على يديه " . ثم أثبت إمامة علي وأولاده بالنص " المتواتر " من النبي (ص) وقال : " إن الإمام الثاني عشر حي موجود من حين ولادته وهي سنة ٢٥٦ هـ إلى آخر زمان التكليف ، لأن كل زمان لا بد فيه من إمام معصوم ، لعموم الأدلة ، وغيره ليس بمعصوم ، فيكون هو الإمام " .^{١١٥}

وانطلق العلامة محمد باقر المجلسي في عملية إثبات وجود (ابن الحسن) من قاعدة (الحسن والقبح العقليين) وقال : " إن العقل يحكم بأن اللطف على الله واجب .. وإن وجود الإمام لطف .. وأنه لا بد إن يكون معصوما .. وإن العصمة لا تعلم إلا من جهته ... وإن الإجماع واقع على عدم عصمة غير صاحب الزمان .. فيثبت وجوده عليه السلام " .^{١١٦}

وقال السيد محمد صادق الصدر : " لقد عرفت إن الأمة في حاجة ماسة إلى أئمة معصوم ... ولا شك إن هذه الحاجة ليست خاصة بوقت دون وقت أو عصر دون عصر ، فالضرورة إذا تلجئنا إن نؤمن بوجود الإمام المهدي .. إذ ليس ثمة أئمة يدعى وجوده سواه .. وهذه حقيقة واضحة " .^{١١٧}

^{١١٣} - الديلمي ، أعلام الدين في صفات المؤمنين ، ص ٥٢

^{١١٤} - البغدادي ، تاريخ مواليد الأئمة ووفياتهم . باب ولادة المهدي .

^{١١٥} - العلامة الحلبي ، الباب الحادي عشر ، الفصل السادس

^{١١٦} - المجلسي ، بحار الأنوار ، ج ٥١

^{١١٧} - الصدر ، الشيعة الإمامية ، ص ٢٧

واعتمد بعض المتكلمين على مبدأ: " ضرورة وجود ولد للإمام لكي تستمر الإمامة في عقبه " للاستدلال على وجود ولد للإمام الحسن العسكري . ونقل الشيخ الطوسي عن الإمام علي بن موسى الرضا قوله: " إن صاحب هذا الأمر لا يموت حتى يرى ولده من بعده " وابطل بذلك قول من قال : (لا ولد لأبي محمد العسكري) .^{١١٨}

المطلب الثاني: خطوات نقلية على طريق العقل

ولا بد هنا من القول : إن " الدليل العقلي " على وجود (الإمام محمد بن الحسن العسكري) ليس دليلاً عقلياً محضاً ، بحيث يستطيع أي عاقل مجرد إن يتوصل إليه تلقائياً ، وإنما هو يعتمد على مقدمات نقلية عديدة. وقد قال الشيخ الصدوق : " إن القول بغيبة صاحب الزمان مبني على القول بإمامة آباءه... وان هذا باب شرعي ، وليس بعقلي محض " .^{١١٩} ولذلك فقد قام المتكلمون الإماميون بمناقشة كل فقرات " الدليل العقلي " كالعصمة وغيرها من نقاط الخلاف، التي كانت بينهم وبين عامة المسلمين وسائر الفرق الشيعية ، وبالأخص الزيدية والواقفية الذين كانوا يؤمنون بنظريات مهدوية أخرى ، والذين كانوا من أشد خصوم الشيعة الاثني عشرية في عصر الحيرة.

ومن هنا فقد كانت المخططة الأولى في الاستدلال النقلي على طريق العقل هي:

١ - ضرورة وجود الإمام. وقد اعتمد علي بن بابويه القمي (الصدوق) لإثبات هذه المقدمة ، على مجموعة كبيرة من الأحاديث ، ونقل عن الإمام الباقر والصادق أحاديث تقول: بعدم جواز بقاء الأرض بغير أمام، أو بغير أمام عادل " وان آخر من يموت الإمام لئلا يحتج أحد على الله انه تركه بغير حجة".^{١٢٠}

كما روى ابنه محمد الصدوق عن أبي عبد الله (ع) انه قال: " إن الله أجل واعظم من إن يترك الأرض بغير عدل".^{١٢١} وأضاف إليها حديثاً آخر حول ضرورة " وجود العالم الحي الظاهر في الأرض لكي

^{١١٨} - الطوسي، الغيبة، ص ١٣٣ و ١٣٥

^{١١٩} - الصدوق ، إكمال الدين، ص ٦٣

^{١٢٠} - الصدوق ، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ١٥٧ و ١٦٠ - ١٦٢

^{١٢١} - الصدوق ، إكمال الدين، ص ٢٢٩

يفزع إليه الناس في حلالهم وحرامهم" . وروى عن أبي عبد الله قوله: " إن الأرض لو خلت طرفة عين من حجة لساخت بأهلها" .^{١٢٢}

وروى الطبري عن أبي عبد الله انه قال: " ما تزال الأرض لله فيها حجة يعرف الحلال والحرام ويدعو الناس إلى سبيل الله عز وجل" .^{١٢٣}

٢- إثبات الإمامة في عترة الرسول (ص). وكانت الخطوة الثانية، هي إثبات الإمامة في أهل البيت (ع)، وذلك استنادا إلى الحديث النبوي الشريف الذي يقول: " آني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعتري أهل بيتي ، وهما الخليفتان من بعدي وانهما لن يفترقا حتى يرث علي الحوض " . ولما كان لفظ: "العترة" عاما يشمل جميع أقرباء الرسول ، فقد تم اللجوء ، كما يقول الصدوق ، إلى العقل والتعارف والسيرة في تفسير الحديث بما يدل على إن الرسول الأكرم أراد علماء العترة دون جهالهم، والبررة الأتقياء منهم دون الفساق والظالمين.^{١٢٤} وروى الطبري حديثا في تفسير قوله تعالى: (أطيعوا الله أطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) النساء ٥٩ ، بأن المراد بهم : الأئمة من ولد علي وفاطمة إلى إن تقوم الساعة.^{١٢٥}

٣- إثبات إمامة أمير المؤمنين (ع) ونفي مهدويته. وذلك بإثبات النصوص عليه بالخلافة والإمامة من رسول الله (ص) . ونفي القول بمهديته وغيبته - كما قال السبئية - وذلك اعتمادا على موته الظاهر والشهير ورفض التفسيرات الباطنية.^{١٢٦}

٤- إثبات الإمامة في أبناء علي.

٥- إثبات الإمامة لعلي بن الحسين . و نفي الإمامة والمهدوية عن محمد بن الحنفية ، وكذلك نفي الإمامة والمهدوية والغيبة عن أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، اللذين ادعى الشيعة الكيسانية لهما ذلك.^{١٢٧}

^{١٢٢} - الصدوق ، علل الشرائع، ص ١٩٥ و ٢٠١

^{١٢٣} - الطبري، دلائل الإمامة، ص ٢٣١

^{١٢٤} - الصدوق، إكمال الدين، ص ١٢٠

^{١٢٥} - الطبري، دلائل الإمامة، ص ٢٣١

^{١٢٦} - الطوسي، الغيبة، ص ١١٨

^{١٢٧} - الصفار، بصائر الدرجات، المختصر، ص ١٤ و ١٧٠ ، والطوسي، الغيبة، ص ١١٨ ، والصدوق، إكمال

الدين، ص ٣٦ ، وابن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ١٩٣

٦- نفي إمامة أبناء الحسن الذين ادعى بعضهم كمحمد بن عبد الله (ذي النفس الزكية) الإمامة والمهدوية ، وحصر الإمامة بدلا من ذلك في أبناء الحسين فقط ، وذلك بناء على تفسير قوله تعالى : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) الأنفال ٧٥ . ١٢٨

٧- عدم جواز اجتماع الإمامة في أخوين بعد الحسن والحسين ، وذلك اعتمادا على تفسير قوله تعالى : (وجعلها كلمة باقية في عقبه) الزخرف ٢٨ ، بأن المقصود من (الكلمة) : الإمامة ، والمقصود من الضمير المتصل بالعقب : هو الحسين بن علي ، وعدم جواز رجوع الإمامة إلى أخ أو ابن عم وضرورة انتقالها من الوالد إلى الولد. ١٢٩ وقد تم اعتماد هذا القانون من اجل نفي إمامة زيد بن علي وأبنائه الذين ادعوا المهدوية أو ادعيت لهم ، وحصر الإمامة في الإمام محمد الباقر وابنه جعفر الصادق .

٨- إثبات إمامة الصادق ونفي مهدويته ، وذلك خلافا للشيعة النواوسية الذين أنكروا وفاة الصادق وادعوا مهدويته وغيبته . ١٣٠

٩- إثبات إمامة الكاظم ، ونفي مهدويته ، وذلك خلافا للشيعة الإسماعيلية الذين ساقوا الإمامة بعد الصادق في ولد إسماعيل ، أو الفطحية الذين قالوا بإمامة عبد الله الأفطح ، وخاصة الفريق الذي قال بوجود ولد مستور له هو (محمد بن عبد الله الأفطح) وادعى مهدويته وغيبته . وقد قام علي بن بابويه القمي بإيراد عدة روايات حول إمامة الكاظم والنص عليه من أبيه ، ونفي إمامة عبد الله الأفطح وإبطال إمامة إسماعيل الذي توفي في حياة الإمام الصادق ، وذلك من اجل حصر الإمامة في الكاظم ونزعها من أبناء إسماعيل الذين ادعوا توارث الإمامة فيهم وادعوا ظهور المهدي من بين صفوفهم. ١٣١ وقام ابنه الشيخ الصدوق بإيراد مجموعة روايات عن الإمام علي بن موسى الرضا تؤكد وفاة أبيه وتنفي

١٢٨ - الصدوق ابن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ١٧٩ - ١٨٠

١٢٩ - المصدر نفسه.

١٣٠ - ابن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ١٩٩ ، والصدوق ، إكمال الدين، ص ١٣٧ ، والطوسي، الغيبة

، ص ١٨

١٣١ - الصدوق، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ٢٠٧

مهدويته التي قال بها (الواقفية) الذين رفضوا الاعتراف بوفاة الكاظم وقالوا بحروبه من سجن الرشيد ،
وغيبته عن الأبصار استعدادا للظهور في المستقبل.^{١٣٢}

١٠- إثبات إمامة بقية الأئمة كالرضا والجواد والهادي والعسكري ، حتى تصل إلى (الإمام الثاني عشر : محمد بن الحسن العسكري).

١١- نفي إمامة ومهدوية محمد بن علي الهادي ، التي قال بها قسم من الشيعة الإمامية في ذلك الزمان وهم (المحمدية) الذين رفضوا الاعتراف بوفاة أبيه، وأصروا على القول بحياته وغيبته ومهدويته ، وذلك اعتمادا على وصية أبيه إليه . وقد اعتمد الشيخ الطوسي في إبطال هذا القول، على موت السيد محمد، الظاهر ، واعتبر إنكاره إنكاراً للضروريات.^{١٣٣}

١٢- إثبات إمامة الحسن العسكري ، ونفي مهدويته ، حيث كان ذلك ضرورياً على طريق إثبات الإمامة والمهدوية لابنه المفترض (محمد) . وقد توقف الشيخ الطوسي عند هذه النقطة ملياً ، وجاء بعدة روايات عن الإمام الهادي يثبت فيها الإمامة والوصية للعسكري. ونقل حديثاً يتضمن حدوث البداء لله في إمامة محمد بن علي ونقلها إلى أخيه الحسن العسكري.^{١٣٤} واعتمد الطوسي في عملية إثبات إمامة العسكري على مجموعة من (المعاجز) التي رواها أبو هاشم الجعفري ، والتي تدور حول محور (علم الإمام بالغيب) . وكان لا بد من إثبات وفاة الإمام العسكري اعتمادا على الظاهر ، ونفي مهدويته وغيبته ، وتأويل الأحاديث التي تدعي القيام بعد الوفاة ، وذلك لقطع الطريق على الذين قالوا بغيبة الإمام الحسن ومهدويته .^{١٣٥}

١٣- نفي إمامة جعفر بن علي الهادي . وقد اعتمدت هذه العملية على إسقاطه من أهلية الإمامة فضلا عن المهدوية ، وذلك باتهامه بشرب الخمر والفسق والفجور والكذب.^{١٣٦}

^{١٣٢} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٣٩

^{١٣٣} - الطوسي ، الغيبة، ص ١٢٠

^{١٣٤} - المصدر، ص ١٢١

^{١٣٥} - المصدر، ص ١٢٢ - ١٢٤

^{١٣٦} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٠ و ١٣٣ والغيبة، ص ١٣٦

واعتمد الشيخ الطوسي في مناقشة الشيعة (الفتحية) الذين قالوا بإمامة جعفر بن علي بعد وفاة أخيه الحسن العسكري ، على مبدأ الوراثة العمودية في الإمامة ، وضرورة استمرارها في الأعقاب وأعقاب الأعقاب أبداً إلى يوم القيامة ، وعدم جواز انتقالها إلى الاخوة أو أبناء العم ، لكي ينفي إمامة جعفر بن علي الهادي.^{١٣٧}

١٤- ضرورة استمرار الإمامة إلى يوم القيامة. وكان لا بد من إثبات هذا المبدأ ، في الطريق إلى القول بوجود (ابن الحسن) وذلك رداً على الفرقة التي قالت بانقطاع الإمامة بعد وفاة الإمام الحسن العسكري ، وقد قام علي بن بابويه القمي بالرد على هؤلاء بإيراد حديث عن رسول الله (ص) يذكر فيه استمرار الإمامة في أهل البيت إلى يوم القيامة ، وعدم توقيتها لفترة محددة فقط .^{١٣٨} واعتمد الشيخ المفيد على عدم جواز خلو الأرض من حجة (أي : من إمام معصوم) في عملية الاستدلال العقلي على وجود الإمام (صاحب الزمان المهدي المنتظر).^{١٣٩} وروى الطوسي حديثاً عن الإمام الصادق (ع) يقول: "إن الأرض لو بقيت بغير إمام ساعة لساخت".^{١٤٠} وتمسك الكراجكي بضرورة استمرار الإمامة في أهل البيت ، وعدم جواز خلو الزمان من إمام ، بعد وفاة العسكري ، في الاستدلال على ضرورة وجود (الإمام صاحب الزمان) وعدم استحقاق غيره للإمامة.^{١٤١}

١٥- نفي وفاة القائم. وكانت الخطوة الأخيرة في عملية إثبات وجود (ابن الحسن) هي نفي وفاته ، وتأويل الأحاديث الكثيرة التي كانت متداولة في تلك الأيام ، والتي تتحدث عن وفاة القائم وقيامه بعد الموت ، وهي الأحاديث التي طبقها أصحاب نظرية (مهدوية الحسن العسكري) عليه ، وطبقها آخرون على ابنه، فقالوا: انه ولد ومات، وسيحيى ويظهر في المستقبل. وقد ذكر الطوسي بعض تلك الروايات

^{١٣٧} - الطوسي، الغيبة، ص ١٣٦

^{١٣٨} - الصدوق، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ٢٣٣

^{١٣٩} - المفيد، الفصول المختارة، ص ٤٠٢

^{١٤٠} - الطوسي، الغيبة، ص ١٢٣

^{١٤١} - الكراجكي، البرهان على صحة طول عمر صاحب الزمان، ص ٢٤٣

في كتاب: (الغيبة) ولم يضعفها ، ولكنه أولها بموت ذكره ، وأشار إلى ضرورة التوقف فيها والتمسك بما هو معلوم. ١٤٢

هذه هي فقرات "الدليل العقلي" ، الذي يقدمه المتكلمون كأول وأهم دليل على وجود (محمد بن الحسن العسكري) ويمكن تلخيصه في: " نظرية الإمامة الإلهية لأهل البيت القائمة على العصمة و النص والوراثة العمودية" . وهو يتركز أساساً على مبدأ "الوراثة العمودية" وعدم جواز الجمع بين الأخوين في الإمامة ، خلافاً للشيعنة الإمامية الفطحية الذين لم يؤمنوا بهذا المبدأ ، فذهبوا إلى القول بإمامة جعفر بن علي ولم يشاركوا (الاثني عشرية) بالقول بوجود (ابن مغمور للحسن العسكري) . رغم إيمانهم بعدد كبير من تلك المقدمات النظرية.

المبحث الثاني :

الدليل النقل على وجود ابن للعسكري

يعتمد الاستدلال على وجود الإمام الثاني عشر (محمد بن الحسن العسكري) بالدليل النقل ، على القرآن الكريم ، و الأحاديث الواردة عن الرسول الأعظم (ص) والأئمة من أهل البيت (ع) حول التبشير بالمهدي المنتظر ، وهي تنقسم إلى عدة أقسام رئيسية:

القسم الأول: القرآن الكريم

١ - قوله تعالى: (وقضينا آلي بني إسرائيل في الكتاب، لتفسدن في الأرض مرتين، ولتعلن علواً كبيراً ، فإذا جاء وعد أوليهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم ..) الإسراء ٤ - ٦ ، حيث روى الكليني عن أبي عبد الله (ع) : أنها نزلت في القائم . ١٤٣

٢ - قوله تعالى : (فاستبقوا الخيرات، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً) البقرة ١٤٨ ، وقد روى الكليني عن أبي جعفر (ع) إن المخاطب بها أصحاب القائم . ١٤٤

١٤٢ - الطوسي، الغيبة، ص ٢٦٠ - ٢٨٢

١٤٣ - الكليني ، الكافي، الروضة، ص ١٧٥

١٤٤ - المصدر نفسه ، ص ٢٦٠ ، والعياشي، التفسير ، ج ١ ، ص ٦٦

٣- قوله تعالى: (حتى يتبين لهم انه الحق) فصلت ٥٣، وقد روى الكليني أيضا : أنها تعني خروج القائم من عند الله .^{١٤٥}

٤- قوله تعالى: (ولتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بعد حين) ص ٨٨ ، وقد روى الكليني : إن ذلك عند خروج القائم. وقوله تعالى: (وقل جاء الحق وزهق الباطل) الإسراء ٨١، أي إذا قام القائم ذهب دولة الباطل.^{١٤٦}

٥- قوله تعالى: (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ، لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون) الأنبياء ١٢ - ١٣ . وقد روى الكليني عن أبي جعفر (ع) انه قال: إذا قام القائم وبعث إلى بني أمية بالشام هربوا إلى الروم.. فإذا نزل بحضرته أصحاب القائم طلبوا الأمان والصلح فيقول أصحاب القائم : لا نفعل حتى تدفعوا إلينا من قبلكم منا فيدفعونهم إليهم ، فذلك قوله: (لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ..) قال : ويسألهم عن الكنوز ، وهو أعلم بها ، فيقولون: (يا ويلنا انا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) بالسيف.^{١٤٧}

٦- قوله تعالى: (حتى إذا رأوا ما يوعدون) مريم ٧٥ ، وذلك بظهور القائم، كما يقول علي بن إبراهيم القمي في تفسيره.^{١٤٨}

٧ - قوله تعالى: (يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج) ق ٤٢ ، أي صيحة القائم من السماء .^{١٤٩}

٨ - قوله تعالى: (ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) التوبة ٣٣ ، قال الصدوق والخزاز: إن المقصود هو المهدي من ولد فاطمة .^{١٥٠}

٩ - قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض) النور ٥٥ .

^{١٤٥} - الكليني ، الكافي، الروضة، ص ٣١٢

^{١٤٦} - المصدر نفسه، ص ٢٣٩ - ٢٤٠

^{١٤٧} - المصدر نفسه، ص ٤٤

^{١٤٨} - القمي ، التفسير، ج ٢ ، ص ٣٩٠

^{١٤٩} - المصدر نفسه، ص ٣٢٧

^{١٥٠} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٣٧٨ ، والخزاز ، كفاية الأثر، ص ٢٧٧

١٠ - قوله تعالى : (ونريد إن نمّن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين) القصص ٥.

وكل هذه الآيات، وإن لم تكن صريحة ، إلا أنها تُؤوّل بالمهدي القائم . ويستدل بها على وجود وولادة (محمد بن الحسن العسكري) بعد إثبات أنه (المهدي القائم) لا غيره.

القسم الثاني: الأحاديث :

١- الروايات الواردة حول المهدي والقائم . وذلك مثل: (المهدي يخرج في آخر الزمان) و (ابشروا بالمهدي...) و (القائم لا يقوم حتى ينادي منادي السماء...) و (لا تذهب الدنيا حتى يلي هذه الأمة رجل من أهل بيتي يقال له المهدي) و (المهدي من ولد فاطمة) و (المهدي من ولد الحسين).. وهي روايات كثيرة يرويها الكليني في (الكافي) والنعماني في (الغيبة) والصدوق في (إكمال الدين) والطوسي في (الغيبة) والمفيد في (الإرشاد) ، وهي وإن كانت عامة غير محددة بشخص معين إلا إن كثيرا من المؤلفين حول الإمام الثاني عشر، يستخلصون منها دليلا على وجوده وولادته ، وذلك بعد إضافة روايات أخرى عن الإمام الجواد والإمام الهادي: إن المهدي من أولادهما.^{١٥١}

٢- الروايات الواردة حول الغيبة والغائب. وذلك مثل : (المهدي من ولدي تكون له غيبة وحيرة) و (إن الثابتين على القول بالمهدي في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر) و (المهدي.. له غيبة وحيرة تضل الخلق عن أديانهم) و (للقائم منا غيبة أمدها طويل) و (لا بد لصاحب هذا الأمر من عزلة أو غيبة) و (إن للقائم غيبة قبل ظهوره) و (إن لصاحب هذا الأمر غيبتين إحداها تطول حتى يقول بعضهم مات ، وبعضهم يقول : قتل ، وبعضهم يقول: ذهب ، فلا يبقى على أمره من أصحابه إلا نفر يسير).

وقد اتخذ القائلون بوجود الإمام الثاني عشر (محمد بن الحسن العسكري) من تلك الأحاديث دليلا على صحة نظريتهم ، وقال محمد بن أبي زينب النعماني في (الغيبة): " لو لم يكن يروى في الغيبة إلا هذا

^{١٥١} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٣٧٨ ، و الخزاز ، كفاية الأثر، ص ٢٧٧

الحديث (الأخير) لكان فيه كفاية لمن تأمله" .^{١٥٢} واعتبر الصدوق ، نقل الشيعة لتلك الروايات التي تتحدث عن (الغيبة) قبل وقوعها، دليلاً على صحتها.^{١٥٣} وقال: إن عدم ظهور النص والخلف بعد الحسن العسكري، وغيبة الإمام المهدي واختفاء شخصه ، واختلاف الشيعة ووقوع الحيرة من أمره ، كما جاء في الروايات الماضية دليل على (كون المهدي ووجوده غيبته) .^{١٥٤}

وقال الشيخ الطوسي في (الغيبة): "إن موضع الاستدلال من هذه الأخبار ما تضمن الخبر بالشيء قبل كونه ، فكان كما تضمنه ، فكان ذلك دلالة على صحة ما ذهبنا إليه من إمامة ابن الحسن ، لأن العلم بما يكون لا يحصل إلا من جهة علام الغيوب ، فلو لم يُروَ إلا خبر واحد ووافق مخبره ما تضمنه الخبر لكان ذلك كافياً" .^{١٥٥} وقال أيضاً: "إن ما يدل على إمامة ابن الحسن وصحة غيبته، ما ظهر وانتشر من الأخبار الذائعة عن آبائه، قبل هذه الأوقات بزمان طويل، من أن لصاحب هذا الأمر غيبة ، وصفة غيبته، وما يجري فيها من الاختلاف ويحدث فيها من الحوادث ، وأنه يكون له غيبتان إحداها أطول من الأخرى.. وإن الأولى يُعرف فيها خبره ، والثانية لا يُعرف فيها أخباره.. فوافق ذلك ما تضمنه الأخبار، ولولا صحتها وصحة إمامته لما وافق ذلك ، ولا يكون ذلك إلا بإعلام الله تعالى على لسان نبيه" .^{١٥٦}

٣- الروايات الواردة حول الاثني عشر إماماً. وذلك مثل حديث النبي (ص): (يكون بعدي اثنا عشر خليفة) أو (لا يزال أمر أمّتي ظاهراً حتى يمضي اثنا عشر خليفة كلهم من قريش) أو (يلي هذه الأمة اثنا عشر.. كلهم من قريش لا يرى مثله) أو (يكون بعدي اثنا عشر أميراً كلهم من قريش). وهذه روايات كلها من طرق أهل السنة ، وقد رواها الصدوق وقال تعليقاً عليها: " نقل مخالفونا من أصحاب الحديث نقلاً ظاهراً مستفيضاً من حديث جابر بن سمرة السوائي عن رسول الله... وقد أخرجت طرق

^{١٥٢} - النعماني، الغيبة، ص ١١٦

^{١٥٣} - الصدوق، إكمال الدين، ص ١٩

^{١٥٤} - المصدر ، ص ١١٣

^{١٥٥} - الطوسي، الغيبة، ص ١٠٩

^{١٥٦} - المصدر نفسه، ص ١١٠

هذا الحديث... فدل على إن الأخبار التي في أيدي الإمامية عن النبي والأئمة بذكر الأئمة الاثني عشر أخبار صحيحة".^{١٥٧}

كما رواها الكليني في (الكافي) والطوسي في (الغيبة).^{١٥٨}

أما الروايات الشيعية الواردة حول موضوع (الاثني عشرية) فقد ذكر الكليني في (الكافي) منها حوالي سبع عشرة رواية ، وذكر الصدوق في (إكمال الدين) حوالي بضع وثلاثين رواية.. وروى الخزاز في (كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر) حوالي مائتي رواية ، وقال عنها : أنها متواترة . وذلك " لعدم إمكانية اتفاق صحابة رسول الله وخيار العترة والتابعين الذين يُنقل عنهم شطرا من الروايات على الكذب".^{١٥٩}

وتعتمد النظرية الاثني عشرية حسب الرواية الشيعية التي تذكر أسماء الأئمة الاثني عشر في قائمة مُعدّة من قبل ، على كتاب سليم بن قيس الهلالي الذي يقول : إن الشيعة كانوا يحتفزون بالقائمة الاثني عشرية في بيوتهم خلال القرون الثلاثة السابقة.

وقد قال ابن أبي زينب النعماني عن كتاب سليم: " انه ليس بين جميع الشيعة ممن حمل العلم ورواه عن الأئمة خلاف في إن كتاب سليم بن قيس الهلالي أصل من كتب الأصول التي رواها أهل العلم وحمله حديث أهل البيت وأقدمها ، وهو من الأصول التي يرجع إليها الشيعة ويعول عليها".^{١٦٠}

واتخذ الصدوق وسائر المتكلمين من تلك الروايات التي اعتبروها "متواترة" دليلاً على وجود وولادة (الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري) من حيث انه لا بد إن يكمل الرقم (١٢) المخبر به من قبل ، ومن دونه يصبح عدد الأئمة (أحد عشر) خلافاً للأحاديث ، ومن حيث إن الروايات قد جاءت بأن (المهدي) من أهل البيت ومن ولد الحسين ، وقد مضى الأئمة الأحد عشر ولم يظهر واحد منهم ، فتحتم : انه المهدي الذي سوف يظهر ويملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.^{١٦١}

^{١٥٧} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٦٧ - ٦٨

^{١٥٨} - الكليني ، الكافي، ج ١ ، ص ٥٢٥ - ٥٣٤ والطوسي ، الغيبة، ص ٨٨ - ٩٠

^{١٥٩} - الخزاز، كفاية الأثر، ص ٧٧

^{١٦٠} - النعماني، الغيبة، ص ٧٧

^{١٦١} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٦٦

واعتبر الطوسي إجماع الطائفتين المختلفتين والفرقتين المتباينتين : (العامية) و (الإمامية) على : أن الأئمة بعد النبي (ص) اثنا عشر ، لا يزيدون ولا ينقصون، دليل على ولادة (صاحب الزمان) وصحة غيبته ، وقال: "إن الشيعة يروون تلك الأخبار على وجه التواتر خلفاً عن سلف".^{١٦٢}

٤- المهدي الإمام الثاني عشر. وإضافة إلى ذلك توجد في التراث الشيعي أكثر من سبعين رواية عن رسول الله (ص) وأهل البيت (ع) تتحدث عن (المهدي والقائم) بصراحة : انه (الإمام الثاني عشر أو التاسع من ولد الحسين) وبعضها يذكره بالاسم الصريح الكامل ، وبعضها يكتفي بالإشارة إليه بالكنية واللقب . ومن تلك الروايات ما ذكره الصدوق في : (إكمال الدين) عن رسول الله (ص): "إن خلفائي وأوصيائي وحجج الله على الخلق بعدي اثنا عشر أولهم أخي وآخرهم ولدي المهدي".^{١٦٣}

وما عنه أيضاً: "إن الله عز وجل اختار... من علي الحسن والحسين ، واختار من الحسين الأوصياء من ولده... تاسعهم قائمهم".^{١٦٤}

وما عن أمير المؤمنين (ع) : "آني فكرت في مولود يكون من ظهري الحادي عشر من ولدي هو المهدي".^{١٦٥}

وما عن الحسين بن علي (ع) : "التاسع من ولدي... هو قائمنا أهل البيت يصلح الله تبارك وتعالى أمره في ليلة واحدة".^{١٦٦}

وما عن أبي عبد الله (ع): "إن الغيبة ستقع بالسادس من ولدي ، وهو الثاني عشر من الأئمة الهداة بعد رسول الله ، أولهم أمير المؤمنين، وآخرهم بقية الله في الأرض وصاحب الزمان".^{١٦٧}

وما عن الإمام الرضا (ع): "إن القائم هو... الرابع من ولدي".^{١٦٨}

^{١٦٢} - الطوسي، الغيبة، ص ٨٨ و ١٠٠

^{١٦٣} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٢٨٠

^{١٦٤} - المصدر، ص ٢٨١

^{١٦٥} - المصدر ص ٢٨٩

^{١٦٦} - المصدر، ص ٣١٦

^{١٦٧} - المصدر نفسه، ص ٣٤٢

وما عنه أيضا: "الإمام بعدي محمد ابني ، وبعده ابنه علي ، وبعد علي ابنه الحسن ، وبعد الحسن ابنه الحجة القائم المنتظر". ١٦٩

وما عن الإمام الهادي (ع): "إن الإمام بعدي الحسن ابني وبعد الحسن ابنه القائم". ١٧٠

وما عن أبي عبد الله عن ، جابر بن عبد الله الأنصاري، انه دخل على فاطمة الزهراء في حياة رسول الله ليهنئها بولادة الحسين ، فرأى في يدها لوحا أخضر ، ورأى فيه كتابا شبه نور الشمس ، فسألها عن ذلك فقالت له : هذا اللوح أهداه الله إلى رسول الله ، فيه اسم أبي واسم بعلي واسم ابني وأسماء الأوصياء من ولدي ، فأعطانيه أبي ليسرني بذلك... وكان فيه أسماء الأئمة الاثني عشر واحدا واحدا .. وان الأخير منهم (م ح م د) يبعثه الله رحمة للعالمين". ١٧١

٥- حتمية وجود الحجة في الأرض. وهناك أحاديث أخرى تؤكد على ضرورة وجود الحجة في الأرض، وعدم جواز خلوها من الإمام ، مثل ما يروى عن رسول الله (ص) في كتب السنة: "من مات بغير أمام مات ميتة جاهلية ، ومن نزع يداً من طاعة جاء يوم القيامة لا حجة له" وما عن الإمام الصادق: "من مات وهو لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية" الذي يرويه سليم بن قيس في كتابه ، والصدوق والكليني والنعماني والمفيد. ١٧٢

والحديث الآخر الذي يرويه كل من البرقي والصدوق والمفيد ، عن الإمام الصادق: "لن تخلو الأرض من رجل يعرف الحق ، فإذا زاد الناس فيه قال: زادوا ، وإذا نقصوا قال: قد نقصوا ، وإذا جاؤا به صدقهم ، ولو لم يكن ذلك كذلك لم يعرف الحق من الباطل". ١٧٣

وما يروى أيضا عن الإمام الصادق من "إن الله جل وعز ، أجل وأعظم من إن يترك الأرض بغير أمام" والذي يرويه كل من الصفار والكليني والصدوق. ١٧٤

١٦٨ - المصدر نفسه، ص ٣٧٩

١٦٩ - المصدر نفسه، ص ٣٧٢

١٧٠ - المصدر نفسه، ص ٣٨٢

١٧١ - المصدر نفسه، ص ٣٠٥ ، والكافي، ج ١ ، ص ٥٢٧

١٧٢ - الصدوق ، إكمال الدين، ص ٤١٣ ، والكليني ، الكافي ، ج ١ ص ٣٧٦ ، والنعماني ، الغيبة ، ص ١٢٩ ، والمفيد ، الاختصاص ، ص ٢٦٨ ، والرسائل، ص ٣٨٤

١٧٣ - البرقي ، المحاسن، ص ٢٣٥ ، والصدوق، علل الشرائع ج ١ ص ٢٠٠ ، والمفيد ، الاختصاص، ص ٢٨٩

وما يروى عنه أيضا ، من انه قال: " ما ترك الله عز وجل الأرض بغير أمام قط منذ قبض آدم (ع) يهتدى به إلى الله عز وجل ، وهو الحجة على العباد ، من تركه ضلّ ومن لزمه نجا، حقاً على الله عز وجل". وما يروى أيضا عن الإمام الصادق من انه قال: " لو خلت الأرض طرفة عين من حجة لساخت بأهلها" والذي يرويه الصفار والكليني والنعماني والصدوق .^{١٧٥}

إذن فان "الدليل النقلي" كان يتألف من عدة مجاميع من الآيات والروايات التي تتحدث عن القائم والمهدي بصورة عامة ، وتلك التي تخصصه في أهل البيت وفي أولاد الإمام علي (ع) وفي أولاد السيدة فاطمة الزهراء (ع) وفي أولاد الإمام الحسين وفي أولاد الإمام الصادق وفي أولاد الإمام الجواد والهادي والعسكري ، إضافة إلى الروايات التي كانت تتحدث عن عدد الأئمة الإثني عشر ، وعن ولادة (الإمام المهدي) واسمه ، وهذا ما يؤدي ، في نظرهم ، إلى الإيمان بولادة ووجود (الإمام الثاني عشر الحجة بن الحسن العسكري) واستمرار حياته ، بالرغم من عدم ظهوره في حياة أبيه أو الوصية له أو الإشارة المباشرة منه إليه.

المبحث الثالث

الدليل التاريخي على ولادة (الإمام الثاني عشر)

المطلب الأول: ولادة ابن الحسن

^{١٧٤} - الصفار، بصائر الدرجات، ص ٤٨٥ ، والكليني ، الكافي ج ١ ص ١٧٨ ، والصدوق ، إكمال الدين، ص ٢٢٩

^{١٧٥} - الصفار، بصائر الدرجات، ص ٤٨١ ، والكليني ، الكافي ، ج ١ ص ١٧٩ ، والنعماني ، الغيبة، ص ١٣٩ ، والصدوق، علل الشرائع ، ص ١٩٧ وإكمال الدين، ص ٢٠١

يعترف "الدليل التاريخي" بأن الظاهر من حياة الإمام العسكري وسيرته ينفي إن يكون له ولد، ولكنه يقول : إن الظروف السياسية لم تكن تسمح للحسن العسكري بإعلان وجود ولد له ، وإن الخوف عليه من السلطات العباسية التي كانت تعلم من قبل انه الإمام المهدي الذي سوف يزلزل عرشها ، هو الذي اجبر الإمام على إخفاء أمر ولادة ابنه (المهدي المنتظر). ثم يذهب الدليل التاريخي ليذكر تفاصيل ولادة (محمد بن الحسن العسكري) والظروف التي أحاطت بها ، وقصص الذين شاهدوه ، بصورة سرية ، والتقوا به في مختلف مراحل حياته أيام أبيه وبعد وفاته .

أم الولد

تختلف الروايات حول اسم أم ابن الحسن ، فبينما يقول الشيخ الأقدم ابن أبي الثلج البغدادي في (تاريخ الأئمة) والمسعودي في (إثبات الوصية) والطوسي في (الغيبة) والمجلسي في (بحار الأنوار) : أن اسمها : (نرجس) يقول محمد بن علي الصدوق في : (إكمال الدين): " إن اسمها (مليكة) وهي بنت يشوعا بن قيصر ملك الروم في ذلك الزمان ، وأنها رأت الإمام الحسن العسكري في المنام فأحبته وتزوجته وهربت من أبيها الذي كان يريد تزويجها من ابن أخيه ، ووقعت في الأسر، حيث أرسل الإمام الهادي نحاسا لشرائها من سوق الرقيق في بغداد".^{١٧٦}

ولكن المسعودي يقول : " إنها كانت جارية ولدت في بيت بعض أخوات أبي الحسن علي بن محمد، وربتها في بيتها، فلما كبرت وعبلت دخل أبو محمد فنظر إليها فأعجبته ، وطلب من عمته أن تستأذن أباه في دفعها إليه ، ففعلت".^{١٧٧}

ويقول الصدوق في رواية أخرى : " إن اسمها هو (صقيل) وأنها ماتت في حياة الحسن العسكري".^{١٧٨} وهناك عدة أسماء أخرى يذكرها المجلسي هي (سوسن) و(ريحانة) و(خمت) و ينقل عن الشهيد الأول في (الدروس): أنها حرة وان اسمها (مريم بنت زيد العلوية) .^{١٧٩}

تاريخ ولادته

^{١٧٦} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤١٧

^{١٧٧} - المسعودي، إثبات الوصية، ص ١٩٥

^{١٧٨} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٣١

^{١٧٩} - المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥١ ، ص ٤٣٢

اختلفت الروايات حول تاريخ مولد (الإمام محمد بن الحسن العسكري) وأخذ قوم من الشيعة الأوائل بدعوى الجارية (نرجس) بالحمل ، بعد وفاة الإمام العسكري ، وقالوا: إنها ولدت (ابن الحسن) بعد ذلك بثمانية أشهر .^{١٨٠}

ويقول الشيخ المفيد : انه ولد في الثامن من شهر ذي القعدة سنة ٢٥٧ هجرية أو ٢٥٨ هـ ، ويضيف : انه كان له عند وفاة أبيه سنتان وأربعة أشهر.^{١٨١} كما يقول في رواية أخرى: انه ولد في النصف من شعبان من سنة ٢٥٥ هـ.^{١٨٢} ويقول في رواية ثالثة : انه ولد سنة ٢٥٢ هـ وكان سنه عند وفاة أبيه ثمانين سنوات .^{١٨٣} ولكن الشيخ الصدوق يقول: إن مولده كان في ٨ شعبان سنة ٢٥٦ هـ .^{١٨٤} أما الشيخ الطوسي فيقول : انه ولد في النصف من رمضان .^{١٨٥} دون إن يحدد السنة، ويتفق في رواية أخرى مع الشيخ المفيد : في انه ولد في النصف من شعبان سنة ٢٥٥ هـ.^{١٨٦}

وهكذا تختلف هذه الروايات في تحديد تاريخ مولد (ابن الحسن) الذي تقول انه ولد بصورة سرية وظل أمره مخفيا..

كيفية ولادته

يعتمد الصدوق والطوسي والمسعودي والخصيبي الذين يروون قصة ولادة (ابن الحسن) على رواية واحدة ينسبونها إلى حكيمة (أو خديجة) عمة الإمام العسكري ، وتقول فيها:

" بعث إليّ أبو محمد الحسن بن علي ، فقال: يا عمة اجعلي إفطارك هذه الليلة عندنا فإنها ليلة النصف من شعبان ، فان الله تبارك وتعالى سيظهر في هذه الليلة الحجة ، قالت: فقلت له: ومن أمه؟ فقال لي : من نرجس ، قلت له: جعلني الله فداك ما بها أثر ، فقال: هو ما أقول لك.

^{١٨٠} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ١٠٣ ، والأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ١١٤

^{١٨١} - المفيد ، رسالة مولد الأئمة ، ص ٦

^{١٨٢} - المفيد، الفصول المختارة ، ص ٢٥٨

^{١٨٣} - المصدر نفسه

^{١٨٤} - الصدوق ، إكمال الدين، ص ٤٣٢

^{١٨٥} - الطوسي ، الغيبة، ص ١٤٣

^{١٨٦} - المصدر نفسه ، ص ١٤١

" قالت فجئت .. فلما سلمتُ وجلسْتُ جاءت تنزع خفي وقالت لي: يا سيدتي وسيدة أهلي : كيف أمسيّت؟ .. فقلت لها: بل أنت سيدتي وسيدة أهلي ، قالت : فأنكرت قولي وقالت : ما هذا يا عمة؟! .. فقلت لها: يا بنية إن الله تعالى سيهب لك في ليلتك هذه غلاما سيدا في الدنيا والآخرة. قالت فخجلت واستحيّت .. فلما أن فرغت من صلاة العشاء الآخرة أفطرت وأخذت مضجعي فرقدت ، فلما كان في جوف الليل قمت إلى الصلاة .. ففرغت من صلاتي ، وهي نائمة ليس بها حادث ، ثم جلستُ معقبة .. ثم اضطجعتُ .. ثم انتبهتُ فرعة وهي راقدة .. ثم قامت فصلت ونامت " .

" قالت حكيمة: وخرجت أتفقد الفجر فإذا أنا بالفجر الأول كذنب أتسرحان ، وهي نائمة ، فدخلني الشك، فصاح أبو محمد (ع) من المجلس فقال: لا تعجلي يا عمة فهالك الأمر قد قرب " .

" قالت : فبينما أنا كذلك إذا انتبهت فرعة فوثبت إليها فقلت: اسم الله عليك ، ثم قلت لها: أحسين شيئا؟ قالت: نعم ، يا عمة. فقلت لها: اجمعي نفسك واجمعي قلبك فهو ما قلت لك " .

" قالت: فأخذتني فترة فانتبهت بحس سيدي، فكشفت الثوب عنه فإذا أنا به ساجدا يتلقى الأرض بمساجده ، فضممته إليّ فإذا أنا به نظيف متنظف ، فصاح بي أبو محمد هلمي إليّ ابني يا عمة ، فجئت به إليه فوضع يديه تحت إيتيه وظهره ووضع قدميه على صدره ، ثم أدلى لسانه في فيه وأمر يده على عينيه وسمعه ومفاصله ، ثم قال: تكلم يا بني ، فقال: اشهد إن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، واشهد إن محمدا رسول الله ، ثم صلى على علي أمير المؤمنين وعلى الأئمة إلى إن وقف على أبيه ثم أحجم .. ثم قال أبو محمد: يا عمة اذهبي به إلى أمه ليسلم عليها واثيني به، فذهبت به فسلم عليها ورددته فوضعتة في المجلس ، ثم قال: يا عمة إذا كان يوم السابع فأثينا " .

" قالت حكيمة: فلما أصبحت جئت لأسلم على أبي محمد وكشفت الستر لأتفقد سيدي فلم أره ، فقلت : جعلت فداك ما فعل سيدي؟ فقال: يا عمة استودعناه الذي استودعته أم موسى " ..

" قالت حكيمة: فلما كان في اليوم السابع جئت فسلمت وجلست ، فقال: هلمي إليّ ابني ، فجئت بسيدي وهو في الخرقه ، ففعل به كفعلة الأولى ، ثم أدلى لسانه في فيه كأنه يغذيه لبنا أو عسلا ، ثم قال: تكلم يا بني ، فقال: اشهد إن لا اله إلا الله وثني بالصلاة على محمد وعلى أمير المؤمنين وعلى الأئمة الطاهرين حتى وقف على أبيه ، ثم تلا هذه الآية : (بسم الله الرحمن الرحيم ونريد إن نمن على

الذين استضعفوا في الأرض ونبعلهم أئمة ونبعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (القصص ٥ - ٦. ^{١٨٧}

وتقول حكيمة في رواية أخرى يذكرها الصدوق: إن نرجس لم يكن بها أي أثر للحمل وإنها لم تكن تعرف ذلك ، وعندما قالت لها حليمة إنها ستلد هذه الليلة استغربت وقالت: " يا مولاتي ما أرى شيئا من هذا". ^{١٨٨} حتى إذا كان آخر الليل وقت طلوع الفجر وثبت فرعة وقالت: " ظهر بي الأمر الذي أخبرك مولاي". وتقول الرواية : إن حكيمة أقبلت تقرأ على نرجس القرآن فأجابها الجنين من بطن أمه .. يقرأ مثلما تقرأ وسلّم عليها. مما أثار فرعها . ولكن الرواية تقول: إن نرجس عُيِّيت عن حكيمة فلم ترها كأنه ضرب بينها وبين نرجس حجاب ، مما أثار استغرابها وصراخها ولجؤها إلى أبي محمد ، حيث قال لها: ارجعي يا عمة وستجدينها في مكانها.

" قالت حكيمة: فرجعت .. فلم ألبث أن كشف الغطاء الذي كان بيني وبينها ، وإذا أنا بها وعليها من أثر النور ما غشي بصري ، وإذا بالصبي ساجداً لوجهه". ^{١٨٩}

وتضيف هذه الرواية موضوعاً آخر هو: تخليق عدد من الطيور فوق رأس الوليد ، وقول الحسن لطير منها: احمله واحفظه وردّه إلينا في كل أربعين يوماً ، فتناولوه الطير وطار به في جو السماء ، مما جعل أمه تبكي لفراقه .

" قالت حكيمة: فقلت: وما هذا الطير؟ فقال: هذا روح القدس الموكل بالأئمة يوفقهم ويسددهم ويربيهم بالعلم . فلما كان بعد أربعين يوماً رد الغلام وكان يمشي كأنه ابن سنتين ، مما دفعها للتساؤل بدهشة فقال لها أخوها الحسن: إن أولاد الأنبياء والأوصياء إذا كانوا أئمة ينشئون بخلاف ما ينشأ غيرهم ، وإن الصبي منا إذا كان أتى عليه شهر كان كمن أتى عليه سنة ، وإن الصبي منا ليتكلم في بطن أمه ويقرأ القرآن ويعبد ربه عز وجل وعند الرضاع تطيعه الملائكة وتنزل عليه صباحاً ومساءً".

وتواصل الرواية نقلاً عن حكيمة : " أنها لم تنزل ترى ذلك الصبي في كل أربعين يوماً إلى إن رآته رجلاً ، قبل مضي أبي محمد بأيام قلائل، فلم تعرفه ، وقالت لأبن أخيها : من هذا الذي تأمرني إن اجلس بين يديه؟! فقال لها: هذا ابن نرجس ، وهذا خليفتي من بعدي ، وعن قليل تفقدوني فاسمعي له أطيعي".

^{١٨٧} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٢٤

^{١٨٨} - المصدر، ص ٤٢٨

^{١٨٩} - المصدر نفسه، ص ٤٢٦

" قالت حكيمة: فمضى أبو محمد بعد ذلك بأيام قلائل وافترق الناس كما ترى .. ووالله آني لأراه صباحا مساءً وانه لينبئني عما تسألون عنه فأخبركم، ووالله آني لأريد إن أسأله عن الشيء فيبدأني به وانه ليرد عليّ الأمر فيخرج إليّ منه جوابه من ساعته من غير مسألتي " ..^{١٩٠}

رواية الطوسي لقصة الولادة

ويورد الطوسي في : (الغيبة) قصة ولادة (ابن الحسن) ، ولكن لا يذكر قصة الطيور وروح القدس وأخذ الوليد آلي السماء .. بل يقول: إن حكيمة ودعت أبا محمد وانصرفت إلى منزلها في أعقاب ولادة المهدي ، وعندما اشتاقت له بعد ثلاثة أيام رجعت ففتشت عنه في غرفته فلم تجد له أثرا ولا سمعت له ذكرا فكرهت إن تسأل ، ودخلت على أبي محمد فبدأها بالقول: " هو يا عمّة في كنف الله أحرزه وستره حتى يأذن الله له ، فإذا غيب الله شخصي وتوفاني ورأيّت شيعة قد اختلفوا ، فأخبري الثقة منهم .. وليكن عندك مستورا وعندهم مكتوما ، فان ولي الله يغيبه الله عن خلقه ويحجبه عن عباده فلا يراه أحد حتى يقدم له جبرائيل فرسه ليقتضي الله أمرا كان مفعولا .^{١٩١}

ويضيف الطوسي في رواية أخرى قول الحسن لعمته: " استودعناه الذي استودعته أم موسى، والطلب منها إن تأتني في اليوم السابع ، حيث يعود المهدي فتراه حكيمة " .^{١٩٢}

ويقول في رواية ثالثة: " إن حكيمة دخلت بعد ثلاثة أيام فرأت الولد في المهد وعليه ثوب اخضر وكان نائما على قفاه غير محزوم ولا مقموط ففتح عينيه وجعل يضحك لها ويناجيها بإصبعه ، ثم غاب بعد ذلك " ..^{١٩٣}

ويقول في رواية رابعة: " إن حكيمة وجدت على ذراع المهدي عند ولادته مكتوبا : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " ص ٨٨ ، كما وجدته مفروغا منه (أي محتونا) وانه رفع بينها وبين المهدي مع أبيه الحسن كالحجاب ، فلم تر أحدا ، فقالت: أين مولاي؟! .. فقال لها الحسن: أخذه من هو أحق منك ومنا . وعندما عادت بعد أربعين يوما وجدت المهدي يمشي في الدار فلم تر وجهها أحسن من وجهه ولا لغة افصح من لغته ، وعندما تعجبت من ذلك وقالت: أرى من أمره ما أرى وله أربعون

^{١٩٠} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٣٠

^{١٩١} - الطوسي، الغيبة، ص ١٤١

^{١٩٢} - المصدر نفسه، ص ١٤٢

^{١٩٣} - المصدر نفسه، ص ١٤٣

يوماً؟! تبسم أبو محمد وقال: يا عمتي أما علمت أنا معاشر الأئمة ننشأ في اليوم كما ينشأ غيرنا في السنة؟ فقامت وانصرفت ولم تره بعد ذلك.^{١٩٤}

ويروي الطوسي عن خادمتين للإمام العسكري، هما: (نسيم ومارية) انهما قالتا: لما خرج صاحب الزمان من بطن أمه سقط جاثيا على ركبتيه رافعا سبابته نحو السماء ، ثم عطس فقال: الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله داخرا لله غير مستنكف ولا مستكبر ، ثم قال: زعمت الظلمة إن حجة الله داحضة ، ولو أذن لنا في الكلام لزال الشك .^{١٩٥}

ويضيف المسعودي والخصيبي جانبا آخر إلى قصة ولادة ابن الحسن، فيقولان: إن المهدي ولد من فخذ أمه ، وينقلان عن الإمام العسكري قوله لعمرته حكيمة : إن الأئمة لا يحملون في البطون وإنما يحملون في الجنوب .^{١٩٦}

ويتفق المسعودي مع الصدوق والطوسي في إن حكيمة نامت في تلك اللحظات وهي قاعدة ووقع عليها سبات لم تتمالك نفسها منه ولم تحس إلا على صوت الوليد تحت نرجس وصوت أبيه يناديها: " يا عمتي هاتي ابني" ويقول : إن الوليد اختفى في ذلك اليوم وعاد بعد أسبوع ، فرأته حكيمة مرة أخرى ثم اختفى ، ولم تره حتى أربعين يوما ، حيث شاهدهته يمشي.^{١٩٧}

ويختلف المسعودي مع الصدوق الذي ذكر في روايته: إن الإمام ينشأ في الشهر كما ينشأ غيره في السنة، ومع الطوسي الذي ذكر: إن الإمام ينشأ في اليوم كما ينشأ غيره في السنة ، فيقلل المسعودي النسبة ، وينقل عن العسكري قوله لحكيمة: أو ما علمت يا عمتي أنا معاشر الأوصياء ننشأ في اليوم مثل ما ينشأ غيرنا في الجمعة؟ وننشأ في الجمعة مثل ما ينشأ غيرنا في الشهر وننشأ في الشهر مثل ما ينشأ غيرنا في السنة؟^{١٩٨}

^{١٩٤} - المصدر نفسه، ص ١٤٥

^{١٩٥} - المصدر نفسه

^{١٩٦} - المسعودي، إثبات الوصية، ص ١٩٦ والخصيبي، الهداية الكبرى

^{١٩٧} - المسعودي، إثبات الوصية، ص ١٩٧

^{١٩٨} - المصدر نفسه

ويروي المسعودي أخيرا عن أبي محمد العسكري انه قال: لما ولد الصاحب بعث الله (عز وجل) ملكين فحملاه إلى سرادق العرش حتى وقف بين يدي الله فقال له: مرحبا بك.. بك أعطي وبك أعفو وبك أعذب. ١٩٩

سرية الولادة

ومع إن رواية حكيمة السابقة تقول : إن أمر الولادة ظل سرىا مكتوما عن الجميع ، وإن الإمام الحسن طلب منها إذا رأت اختلاف الشيعة بعد وفاته، أن تخبر الخواص فقط ، إلا إن الصدوق يذكر أن الإمام الحسن العسكري أخبر كبير الشيعة في قم : (أحمد بن إسحاق) ، وأنه كتب له: " وُلد لنا مولود فليكن عندك مستورا وعن جميع الناس مكتوما ، فانا لم نظهر عليه إلا الأقرب لقرابته والمولى لولايته ، أحببنا إعلامك ليسرك الله به مثل ما سرنا به ، والسلام ". ٢٠٠

وفي رواية أخرى يقول الصدوق : إن أحمد بن إسحاق دخل على الإمام العسكري يوما فسأله عن الإمام والخليفة بعده ، فنهض مسرعا فدخل البيت ثم خرج وعلى عاتقه غلام من أبناء الثلاث سنين ، وقال له: يا أحمد لولا كرامتك على الله عز وجل وعلى حججه ما عرضت عليك ابني هذا . ٢٠١

ويقول الفضل بن شاذان في (كشف الحق) إن الحسن قال: ولد ولي الله وحجته على عباده وخليفتي من بعدي ليلة النصف من شعبان وكان أول من غسله رضوان خازن الجنة ثم غسلته حكيمة .

ويقول الصدوق : إن من الذين علموا بخبر الولادة أبو الفضل الحسن بن الحسين العلوي ، الذي يقول: انه دخل على أبي محمد بسر من رأى ، وهناك بولادة ابنه . وكان منهم أيضا: (أبو هارون) الذي يقول: انه رأى صاحب الزمان وانه كشف عنه الثوب فوجده محتونا . ٢٠٢

ويؤكد الطوسي هاذين الخبرين في : (الغيبة). ٢٠٣

ويقول الشيخ المفيد : إن الحسن العسكري كان يعرضه على أشخاص بمفردهم حين يزورونه ، كعمرو الاهوازي . ٢٠٤

١٩٩ - المصدر نفسه

٢٠٠ - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٣٤

٢٠١ - المصدر نفسه، ص ٣٨٤

٢٠٢ - المصدر ٤٣٥

٢٠٣ - الطوسي ، الغيبة، ص ١٥١

وفي رواية أخرى: إن الإمام العسكري أرسل أموالاً إلى بعض الشيعة وأمرهم إن يعقوا عن ابنه.^{٢٠٥}

رؤية المهدي في حياة أبيه

وعلى أي حال فإن المؤرخين الشيعة ينقلون قصصاً كثيرة عن مشاهدة الإمام الثاني عشر (محمد بن الحسن العسكري) في حياة أبيه وعند وفاته ، حيث ينقل الكليني والصدوق والطوسي عن رجل من أهل فارس كان يخدم في بيت الإمام العسكري : انه شاهد يوماً جارية تحمل غلاماً أبيض ، وقول الإمام له: " هذا صاحبكم " وعدم رؤيته بعد ذلك.^{٢٠٦}

كما ينقل الصدوق والطوسي ، عن مجموعة من أصحاب الإمام العسكري ، فيهم: عثمان بن سعيد العمري: انه عرض عليهم ابنه وقال لهم: هذا إمامكم من بعدي وخليفتي عليكم ..أطيعوه ولا تتفرقوا من بعدي في أديانكم فتهلكوا ، أما إنكم لا ترونه بعد يومكم هذا ، قالوا : فخرجنا من عنده فما مضت إلا أيام قلائل حتى مضى أبو محمد .^{٢٠٧}

كما ينقل الصدوق في (إكمال الدين) قصصاً عن رجل اسمه (يعقوب بن منقوش) : انه دخل على الإمام العسكري يوماً فسأله: من صاحب هذا الأمر؟ فكشف له الإمام ستراً عن بيت ، فخرج غلام خماسي وجلس على فخذ أبي محمد ، فقال ليعقوب: هذا صاحبكم ، ثم قال للغلام : يا بني ادخل إلى الوقت المعلوم . فدخل البيت واختفى فيه . وينقل عن (نسيم) خادمة الإمام العسكري : أنها دخلت على صاحب هذا الأمر بعد مولده بليلة فعطست عنده ، فقال لها: يرحمك الله .^{٢٠٨}

وينقل عن خادم آخر هو (طريف أبو نصر) : انه دخل على صاحب الزمان فطلب منه إن يأتيه بصندل أحمر ثم قال له: أنا خاتم الأوصياء ، وبني يدفع الله البلاء عن أهلي وشيعتي. وينقل عن رجل سوري اسمه (عبد الله): انه ذهب إلى بستان بني عامر فرأى فتى جالساً على مصلى واضعاً كعبه في فيه ، فقال: من هذا ؟ فقليل له : (م ح م د) ابن الحسن .^{٢٠٩}

^{٢٠٤} - المفيد، الإرشاد، ص ٣٩٢

^{٢٠٥} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٣٢

^{٢٠٦} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٢٩ والصدوق، إكمال الدين، ص ٤٣٥ ، والطوسي، الغيبة، ص ١٤٠

^{٢٠٧} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٣٥ ، والطوسي، الغيبة، ص ٢١٧

^{٢٠٨} - المصدر

^{٢٠٩} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٣٦

وينقل الصدوق رواية مطولة جدا عن سعد بن عبد الله القمي : انه دخل مع احمد بن إسحاق على الإمام العسكري، فرأى غلاما على فخذه وبين يديه رمانة ذهبية يلعب بها ، ويبد الحسن قلم إذا أراد إن يكتب شيئا قبض الغلام على يده فيدحرج الرمانة بين يديه ويشغله بردها، كيلا يصده عن كتابة ما أراد ، وكان مع احمد بن إسحاق جراب فيه هدايا الشيعة والموالي ، فوضعه بين يدي العسكري ، فقال للغلام : فضّ الخاتم ، فرفض ، وقال: أيجوز إن أمدّ يدا طاهرة إلى هدايا نجسة وأموال رجسة قد شيب حلالها بحرامها؟! فأخرجها احمد بن إسحاق ليميز بينها ، فأخذ الغلام يحكي قصة الأموال والهدايا واحدة فواحدة..^{٢١٠}

وفي رواية أخرى ينقلها الصدوق عن احمد بن إسحاق يقول فيها : انه سأل الإمام عن الخليفة بعده وانه جاء بابنه وعرضه عليه ، ولكنه لم يطمئن فسأل : يا مولاي هل من علامة يطمئن إليها قلبي؟ فنطق الغلام بلسان عربي فصيح فقال: أنا بقية الله في أرضه والمنتقم من أعدائه ، فلا تطلب أثرا بعد عين. فقال الإمام العسكري: هذا سر من سر الله ، فخذ ما آتيتك أكتمه وكن من الشاكرين .^{٢١١}

ويروي الطوسي عن كامل بن إبراهيم المدني: انه ذهب إلى الإمام العسكري ليسأله عن بعض المسائل ، وبينما هو جالس في الدار ، وإذا بالريح تكشف ستراً مرخى على باب ، وإذا هو بفتى كأنه فلقة قمر ، فقال له: يا كامل بن إبراهيم جئت إلى ولي الله وحجته وبابه تسأله كذا وكذا ، فقال: أي والله . ثم رجع الستر إلى حالته ، فلم يستطع كشفه ، ولم يعاينه بعد ذلك.^{٢١٢}

وينقل أيضا عن إسماعيل بن علي النوبختي : انه دخل على الإمام العسكري قبيل وفاته بساعة ، وانه طلب من خادمه (عقيد) إن يدخل البيت ويأتيه بصبي فيه ، فقال له أبو محمد: أبشر يا بني ، فأنت صاحب الزمان وأنت المهدي وأنت حجة الله على أرضه وأنت ولدي ووصيي وأنا ولدتك ، وأنت محمد بن الحسن ... وأنت خاتم الأئمة الطاهرين ، وبشر بك رسول الله وكناك بذلك عهد اليّ أبي عن آبائك الطاهرين .^{٢١٣}

رؤيته عند وفاة أبيه

^{٢١٠} - المصدر ، ص ٤٥٤ - ٤٥٦

^{٢١١} - المصدر نفسه، ص ٣٨٤

^{٢١٢} - الطوسي ، الغيبة ، ص ١٤٨ - ١٤٩

^{٢١٣} - المصدر، ص ١٦٥

وينفرد محمد بن علي الصدوق من بين المؤرخين القدامى بذكر قصص أخرى كقصة (أبي الأديان البصري) الذي يقول: كنت اخدم الحسن بن علي واحمل كتبه إلى الأمصار فدخلت عليه في علقته التي توفي فيها فكتب معي كتابا وقال: امض بها إلى المدائن فانك ستغيب خمسة عشر يوما وتدخل إلى (سر من رأى) يوم الخامس عشر ، وتسمع الواعية في داري وتجديني على المغتسل .

فقلت: يا سيدي إذا كان ذلك فمن؟ ..

قال: من طالبك بجواب كتي فهو القائم بعدي.

فقلت: زدي.

قال: من يصلي علي فهو القائم بعدي .

فقلت: زدي.

فقال: من اخبر بما في الهميان فهو القائم بعدي.

وخرجت بالكتب إلى المدائن، وأخذت جواباتها، ودخلت (سر من رأى) يوم الخامس عشر ، كما ذكر لي ، فإذا أنا بالواعية في داره وإذا به على المغتسل، وإذا أنا بجعفر بن علي أخيه بباب الدار والشيعة من حوله يعزونه ويهنؤنه ، فقلت في نفسي: إن يكن هذا الإمام فقد بطلت الإمامة ، لأني كنت اعرفه يشرب النبيذ ويقامر في الجوسق ويلعب بالطنبور ، فتقدمت فعزيت وهنيت ، فلم يسألني عن شيء ثم خرج عقيد فقال: يا سيدي قد كفن أخوك فقم وصل عليه ، فدخل جعفر بن علي والشيعة من حوله يقدمهم السمان (عثمان بن سعيد العمري) فلما صرنا في الدار إذا نحن بالحسن على نعشه مكفنا ، فتقدم جعفر بن علي ليصلي على أخيه فلما همّ بالتكبير خرج صبي بوجهه سمرة بشعره ققط بأسنانه تغليج فحذب برداء جعفر وقال: تأخر يا عمّ فأنا أحق بالصلاة على أبي ، فتأخر جعفر ، وقد اريد وجهه واصفرّ.. فتقدم الصبي وصلى عليه ودفن إلى جانب قبر أبيه ، ثم قال: يا بصري هات جوابات الكتب التي معك ، فدفعها إليه ، فقلت في نفسي: هذه بينتان ، بقي الهميان ، ثم خرجت إلى جعفر وهو يفر، فقال له حاجز الوشاء: يا سيدي من الصبي لنقيم عليه الحجة؟ فقال: والله ما رأيته قط ولا اعرفه. فنحن جلوس إذ قدم نفر من قم فسألوا عن الحسن بن علي فعرفوا موته، فقالوا: فمن نعزي؟ فأشار الناس إلى جعفر بن علي فسلموا عليه وعزوه وهنئوه ، وقالوا: إن معنا كتباً وأموالاً فتقول ممن الكتب؟ فقام ينفذ أثوابه ويقول: تريدون منا إن نعلم الغيب؟!

قال: فخرج الخادم فقال: معكم كتب فلان وفلان وفلان وهميان فيه ألف دينار وعشرة دنانير منها مطلية ، فدفعوا إليه الكتب والمال ، وقالوا: الذي وجه بك لأخذ ذلك هو الإمام .^{٢١٤}

وينقل الصدوق هذه القصة برواية أخرى عن سنان الموصلبي : انه لما قبض العسكري وفد من قم والجبال وفود بالأموال، ولم يكن لديهم خبر وفاة الحسن، فسألوا عن وارثه فقيل لهم: انه أخوه جعفر وقد ذهب يتنزه في دجلة مع المغنين ، فأرادوا إن يرجعوا ، ولكن أبا العباس محمد بن جعفر الحميري القمي قال لهم: قفوا بنا حتى ينصرف هذا الرجل ونختبر أمره بالصحة. وانهم طالبوا جعفر بالتحدث غيبيا عن تفاصيل الأموال وأصحابها ، فأنكر علم الغيب ... ولما إن خرجوا من البلد خرج إليهم غلام فنادى: يا فلان ويا فلان بن فلان أجيئوا مولاكم ، قالوا فسرنا معه حتى دخلنا دار مولانا الحسن بن علي فإذا ولده القائم سيدنا قاعد على سرير كأنه فلقة قمر عليه ثياب خضر ، فسلمنا فرد علينا السلام ثم قال: جملة المال كذا وكذا .. حمل فلان كذا وحمل فلان كذا . ولم يزل يصف حتى وصف الجميع.. ثم وصف رحالنا وثيابنا وما كان معنا من الدواب ، فخررنا سجداً لله عز وجل شكرا لما عرفنا ، و قبلنا الأرض بين يديه ، وسألناه عما أردنا فأجاب ، فحملنا إليه الأموال ، وأمرنا إن لا نحمل إلى (سرّ من رأى) بعدها شيئا من المال ، فانه ينصب لنا ببغداد رجلا يحمل إليه الأموال ويخرج من عنده التوقيعات.^{٢١٥}

محاولة القبض على المهدي

وهناك رواية تاريخية ينقلها عدد من المؤلفين عن شرطي اسمه (رشيق) يتحدث عن محاولة المعتضد العباسي للقبض على (المهدي) وإرساله ثلاثة من الشرطة ، وذهابهم إلى بيت الإمام الحسن العسكري في سامراء ، ورؤيتهم في البيت بحرا من الماء ورجلا على حصير على الماء، قائما يصلي ، وغرقهم عند محاولتهم التقدم نحوه ، ثم اعتذارهم وتراجعهم.^{٢١٦}

^{٢١٤} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٧٥ - ٤٧٦

^{٢١٥} - المصدر نفسه، ص ٤٧٦ - ٤٧٩

^{٢١٦} - الطوسي، الغيبة، ص ١٤٩ والراوندي، الخرائج والجرائح، ص ٦٧ ، والمجلسي، بحار الأنوار، ج ١٣ ، ص ١١٨ ، ومحمد الصدر ، الغيبة الصغرى، ص ٥٧٧

وينقل المجلسي و الصدر قصة أخرى مشابهاة ، وهي تجريد المعتضد لحملة أكبر وكبس البيت وسماع العسكر لصوت قراءة من السرداب ، واجتماعهم عند مدخله لإلقاء القبض على صاحب الصوت ، وخروجه من بين أيديهم.^{٢١٧}

المطلب الثاني:

شهادة (النواب الأربعة)

لعل أهم دليل تاريخي على ولادة ووجود (الإمام محمد بن الحسن العسكري) هو شهادة (النواب الأربعة الخاصين) الذين ادعوا (النيابة) عنه ، في فترة (الغيبة الصغرى) من سنة ٢٦٠ إلى سنة ٣٢٩ هجرية . حيث كان هؤلاء (النواب) يدعون مشاهدته واللقاء به وإيصال الأموال إليه و نقل الرسائل و (التواقيع) منه إلى المؤمنين به.

وكان الجيل الأول من (النواب) أو (السفراء والوكلاء) رجال من أصحاب الإمامين علي بن محمد الهادي ، والحسن بن علي العسكري ، وكان على رأسهم عثمان بن سعيد العمري ، الذي كان وكيلا للإمامين في قبض الأموال من الشيعة وإيصالها اليهما في حياتهما ، والذي يصفه الشيخ الطوسي بأنه : "الشيخ الموثوق به ، ومن السفراء الممدوحين للأئمة".^{٢١٨}

ويقال : انه كان محل ثقة الإمامين العسكريين ، ولم يكن وكيلا لهما في جمع الأموال فقط ، وإنما كان يقوم بأدوار أكبر في إيصال رسائل الإمامين إلى الشيعة ، وكان يحتل مرتبة عظيمة عندهما . وينقل الشيخ الطوسي رواية عن احمد بن اسحق القمي ، قال: دخلت على أبي الحسن علي بن محمد ، في يوم من الأيام ، فقلت: يا سيدي أنا أغيب واشهد ، ولا يتهيأ لي الوصول إليك إذا شهدت في كل وقت ، فقول من تقبل ، وأمر من نمتثل؟ فقال لي: " هذا أبو عمرو الثقة الأمين ، ما قاله لكم فعني يقوله ، وما أداه اليكم فعني يؤديه " . فلما مضى أبو الحسن وصلت إلى أبي محمد الحسن العسكري ، ذات يوم ،

^{٢١٧} - المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٣ ، ص ١١٨ ، ومحمد الصدر ، الغيبة الصغرى، ص ٥٦٠

^{٢١٨} - الطوسي، الغيبة، ص ٢٠٩ و ٢١٤

فقلت له مثل قولي لأبيه ، فقال لي: " هذا أبو عمرو الثقة الأمين ثقة الماضي وثقتي في الحيا والممات ، فما قاله لكم فاعني يقوله ، وما أدى إليكم فاعني يؤديه " .^{٢١٩}

وهذه الرواية تكشف عن أن العمري لم يكن وكيلًا في جمع المال فقط ، وإنما كان يقوم بأدوار أكبر في إيصال رسائل الإمامين الهادي والعسكري إلى الشيعة ، ويحتل مرتبة عظيمة عندهما.

وينقل الطوسي أيضا عن أحمد بن علي بن نوح أبو العباس السيرافي ، قال : أخبرنا أبو نصر عبد الله بن محمد بن أحمد المعروف بابن برنية الكاتب ، قال : حدثني بعض الأشراف من الشيعة الإمامية أصحاب الحديث ، قال : حدثني أبو محمد العباس بن أحمد الصائغ ، قال : حدثني الحسين بن أحمد الخصيبي ، قال : حدثني محمد بن إسماعيل وعلي بن عبد الله الحسنيان ، قالوا: دخلنا على أبي محمد الحسن بسرّ من رأى ، وبين يديه جماعة من أوليائه وشيعته ، حتى دخل عليه بدر خادمه ، فقال: يا مولاي بالباب قوم شعث غبر ، فقال لهم: هؤلاء نفر من شيعتنا باليمن (في حديث طويل يسوقه) إلى إن ينتهي إلى أن قال الحسن لبدر: فامض اثنا بعثمان بن سعيد العمري ، فما لبثنا إلا يسيرا حتى دخل عثمان ، فقال له سيدنا أبو محمد : امض يا عثمان فانك الوكيل والثقة المأمون على مال الله ، واقبض من هؤلاء نفر اليمانيين ما حملوه من المال (ثم ساق الحديث إلى إن قال) ثم قلنا بأجمعنا : يا سيدنا والله إن عثمان لمن خيار شيعتك ، ولقد زدتنا علما بموضعه من خدمتك وانه وكيلك وثقتك على مال الله ، قال: نعم ، واشهدوا على أن عثمان بن سعيد العمري وكيلي ، وان ابنه محمد وكيل ابني مهديكم .^{٢٢٠}

وبلاحظ إن هذه الرواية تشتمل ، إضافة إلى وثاقته ووكالته ، على وثاقة ابنه ووكالته .

ويروي الطوسي عن أبي محمد هارون بن موسى ، قال ، وقال جعفر بن محمد بن مالك الفزاري عن جماعة من الشيعة، منهم علي بن بلال ، وأحمد بن هلال ، ومحمد بن معاوية بن حكيم ، والحسن بن أيوب بن نوح (في خبر طويل مشهور) قالوا جميعا: اجتمعنا إلى أبي محمد الحسن بن علي نسأله عن الحجة من بعده ، وفي مجلسه أربعون رجلا ، فقام إليه عثمان بن سعيد العمري ، فقال له : يا ابن رسول الله أريد إن أسألك عن أمر أنت اعلم به مني ، فقال له: اجلس يا عثمان ، فقام مغضبا ليخرج ، فقال: لا يخرجن أحد ، فلم يخرج منا أحد إلى ان كان بعد ساعة ، فصاح (ع) بعثمان ، فقام على قدميه ، فقال: أخبركم بما جئتم ؟.. جئتم تسألوني عن الحجة من بعدي ، قالوا: نعم ، فإذا غلام كأنه قطع قمر

^{٢١٩} - المصدر نفسه، ص ٢١٥

^{٢٢٠} - المصدر نفسه، ص ٢١٥ - ٢١٦

أشبهه الناس بأبي محمد ، فقال: هذا إمامكم من بعدي وخليفتي عليكم.. اقبلوا من عثمان ما يقوله وانتهوا إلى أمره واصلوا قوله ، فهو خليفة إمامكم ، والأمر إليه .^{٢٢١}

ويقول الطوسي ، نقلا عن حفيد العمري (هبة الله) : إن الحسن بن علي لما مات حضر غسله عثمان بن سعيد وتولى جميع أمره في تكفينه وتحنيطه وتقبيره مأمورا بذلك للظاهر من الحال... وكانت توقعات صاحب الأمر تخرج على يدي عثمان بن سعيد وابنه أبي جعفر، إلى شيعته وخواص أبيه بالأمر والنهي ، والأجوبة عما يسأل الشيعة عنه إذا احتاجت إلى السؤال فيه ، **بالخط الذي كان يخرج في حياة الحسن** ، فلم تزل الشيعة مقيمة على عدالتهما إلى إن توفي عثمان بن سعيد.^{٢٢٢}

وهكذا أصبح العمري (نائبا خاصا) عن (الإمام المهدي) بعد إن ادعى وجوده وولادته والنيابة له . وقد سأله أحمد بن إسحاق ، فقال له: أنت الآن ممن لا يشك في قوله وصدقه ، فأسألك بحق الله وبحق الإمامين اللذين وثقاك ، هل رأيت ابن أبي محمد الذي هو صاحب الزمان ؟ .. فبكى ثم قال: على إن لا تخبر بذلك أحدا وأنا حي ، قال: نعم ، قال: قد رايت ، وعنقه هكذا (يريد: أنها اغلظ الرقاب حسنا وتما) قال: فالاسم ؟ .. قال: نهيتم عن هذا .^{٢٢٣}

وقد توفي عثمان بن سعيد العمري بعد وفاة الإمام العسكري بسنتين، وخلف ابنه محمد (سفيرا) بين الإمام المهدي والشيعة.

وينقل الكليني والطوسي (توافيع) واردة من الإمام ، بتوثيقه وتزكيته وتنصيبه في منصب (النائب الخاص).^{٢٢٤}

ويقول عبد الله بن جعفر الحميري القمي ، زعيم الشيعة في قم : إن المهدي قد أرسل إلى العمري الابن (توقيعا) جاء فيه : " إنا لله وانا إليه راجعون ، تسليما لأمره ورضاء بقضائه.. عاش أبوك سعيدا ومات حميدا ، فرحمه الله وألحقه بأوليائه ومواليه ، فلم يزل مجتهدا في أمرهم ساعيا في ما يقربه إلى الله عز وجل ، نصر الله وجهه وأقاله عشرته.. . وكان من كمال سعادته إن رزقه الله تعالى ولدا مثلك يخلفه من بعده ويقوم مقامه بأمره ويترحم عليه ، واقول : الحمد لله ، فان الأنفس طيبة بمكانك وما جعله الله عز

^{٢٢١} - المصدر نفسه، ص ٢١٧

^{٢٢٢} - المصدر ، ص ٢١٦

^{٢٢٣} - المصدر ، ص ٢١٥

^{٢٢٤} - المصدر ، ص ٢١٨

وجل فيك وعندك ، أعانك الله وقوّاك وعضدك ووفقك وكان لك وليا وحافظا وراعيا وكافيا" .^{٢٢٥} وقال الحميري : لما مضى أبو عمرو (عثمان بن سعيد) أتتنا الكتب بالخط الذي كنا نكتب به بإقامة أبي جعفر مقامه .^{٢٢٦}

وقال محمد بن إبراهيم بن مهزيار الاهوازي : انه خرج إليه بعد وفاة أبي عمرو : " والابن وقاه الله لم يزل ثقتنا في حياة الأب رضي الله عنه وأرضاه ونصّر وجهه ، يجري عندنا مجراه ، ويسدّ مسده ، وعن أمرنا يأمر الابن ، وبه يعمل ، تولاه الله ، فأنته إلى قوله وعرفّ معاملتنا ذلك" .^{٢٢٧}

وروى الطوسي عن إسحاق بن يعقوب : قال سألت محمد بن عثمان العمري ، أن يوصل لي كتابا قد سألت فيه مسائل اشكلت علي ، فوقع (التوقيع) بخط مولانا صاحب الدار : " وأما محمد بن عثمان العمري رضي الله عنه وعن أبيه من قبل ، فانه ثقتي وكتابه كتابي" .^{٢٢٨}

وكان العمري إذا سُئل : هل رأيت المهدي ؟ يقول : " نعم ، وآخر عهدي به عند بيت الله الحرام ، وهو يقول : " اللهم أنجز لي ما وعدتني " ، ورايته متعلقا بأستار الكعبة في المستجار ، وهو يقول : " اللهم انتقم لي من أعدائي " .. والله إن صاحب هذا الأمر ليحضر الموسم كل سنة يرى الناس ويعرفهم ويرونه ولا يعرفونه" .^{٢٢٩} ويقول الطوسي : إن التوقعات كانت تخرج على يد العمري طول حياته بالخط الذي كانت تخرج في حياة أبيه ، لا يعرف الشيعة في هذا الأمر غيره .^{٢٣٠}

واستمر العمري (الابن) في هذا المنصب حوالي خمسين عاما حيث توفي في مطلع القرن الرابع الهجري سنة ٣٠٥ هـ ، وأوصى إلى (الحسين بن روح النوبختي) الذي كان واحدا من عشرة وكلاء له في بغداد . وهكذا أوصى النوبختي الذي توفي سنة ٣٢٥ هـجريا إلى النائب الرابع (علي بن محمد السمرى ، أو الصيمري) كخليفة من بعده بالوكالة عن الإمام المهدي الغائب .^{٢٣١}

^{٢٢٥} - المصدر ، ص ٢٢٠

^{٢٢٦} - المصدر نفسه.

^{٢٢٧} - المصدر نفسه.

^{٢٢٨} - المصدر نفسه.

^{٢٢٩} - المصدر نفسه، ص ٢٢٢

^{٢٣٠} - المصدر نفسه، ص ٢٢١

^{٢٣١} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٥٠٣

والى جانب هؤلاء (النواب الأربعة) ادعى النيابة حوالي أربعة وعشرين رجلاً آخر من أصحاب الإمامين الهادي والعسكري ، أو من أتباعهم كالحسن الشريعي ، ومحمد بن نصير النميري ، وأبي هاشم داود بن القاسم الجعفري ، واحمد بن هلال العبرتائي ، ومحمد بن علي بن بلال، وإسحاق الأحمر، وحاجز بن يزيد ، ومحمد بن صالح الهمداني ، ومحمد بن جعفر بن عون الاسدي الرازي ، ومحمد بن إبراهيم بن مهزيار، والحسين بن منصور الحلاج، وجعفر بن سهيل الصيقل، ومحمد بن غالب الأصفهاني ، واحمد بن إسحاق ألا شعري القمي، والقاسم بن محمد بن علي بن إبراهيم الهمداني، ومحمد بن صالح القمي ، والقاسم بن العلاء وابنه الحسن، ومحمد بن علي الشلمغاني ابن أبي العزاقر ، وأبو دلف الكاتب .

وكان الكثير من هؤلاء يدعي وجود "علاقة خاصة" بينه وبين الإمامين الهادي والعسكري ومن ثم (الإمام المهدي) كما يدعي القدرة على اجترار المعاجز و العلم بالغيب ، ويخرج رسائل سرية يقول أنها وردته من الإمام الغائب ، ويقوم على أساسها باستلام الأموال والحقوق الشرعية . وقد اختلف الشيعة الإمامية القائلون بوجود الإمام الثاني عشر، فيما بينهم ، حول صدق أولئك النواب وصحة ادعائهم بالنيابة ، فذهب فريق إلى تصديق (النواب الأربعة) الأوائل ، وذهب فريق آخر، كالنصيرية، إلى تصديق الشريعي والنميري ، كما ذهب آخرون إلى تصديق مجموعة أخرى.

وعلى أي حال فان البعض يعتبر وجود (النواب الأربعة) وغيرهم ، شهادة تاريخية على وجود ابن للإمام الحسن العسكري هو (الإمام المهدي) إضافة إلى تلك الروايات التاريخية التي تحدثت عن ولادته ومشاهدته في حياة أبيه واللقاء به بعد ذلك .

يقول السيد محمد باقر الصدر في كتابه : (بحث حول المهدي) انه ليس من المعقول إن يكذب أولئك النواب الثقة العدول في دعواهم النيابة أو في وجود الإمام المهدي . بعد أن اجمع الشيعة على صدقهم وورعهم وتقواهم.

وقد اعتبر بعض المحدثين السابقين كالنعماني محمد بن أبي زينب : إن وجود أولئك النواب الخاصين الأربعة في فترة (الغيبة الصغرى) وانقطاعهم في فترة (الغيبة الكبرى) الممتدة منذ ذلك الحين إلى يوم الظهور، وانسجام الفترتين مع الروايات التي تتحدث عن وجود غيبتين صغرى وكبرى للإمام المهدي ، دليلاً على وجود (محمد بن الحسن العسكري) وصحة غيبته.

المطلب الثالث: رسائل المهدي

ذكر الصدوق والطوسي وابن شهر آشوب والطبرسي عددا من الرسائل التي قالوا: إن (الإمام محمد بن الحسن العسكري) قد بعث بها إلى عدد من (وكلائه) في عصر (الغيبة الصغرى) . منها ما رواه الطوسي في: (الغيبة) عن أحمد بن إسحاق ألا شعري القمي الذي يقول انه كتب إلى (ابن الحسن) رسالة حول دعوة جعفر بن علي الهادي لأهل قم لأتباعه بعد وفاة أخيه . ويقول فيها : إن (صاحب الزمان) كتب إليه كتابا يتضمن اتهام جعفر بالجهل بالدين، وبالفسق وشرب الخمر والعصيان لله ، وبعدم امتلاكه لأية حجة ، ودعوة لامتحانه ، وتأكيدها على عدم جواز اجتماع الإمامة في أخوين بعد الحسن والحسين.^{٢٣٢}

كما ينقل الطوسي رواية ثانية عن ابن أبي غانم القزويني، انه وجماعة من الشيعة اختلفوا حول وجود (الخلف) وتشاجروا ، ثم انهم كتبوا في ذلك كتابا أنفذوه إلى (الناحية)^{٢٣٣} وأعلموه بما تشاجروا فيه ، فورد جواب كتبهم بخطه (ع) وكان يتضمن أسفا وحرقة عليهم ، ودعوة للتسليم وعدم محاولة الكشف عن أستار الغيبة.^{٢٣٤}

وتوجد رسالة ثالثة يرويها الصدوق عن إسحاق بن يعقوب ، قال: سألت محمد بن عثمان العمري إن يوصل لي كتابا قد سألت فيه عن مسائل اشكلت عليّ ، فورد التوقيع (الجواب) بخط مولانا صاحب الدار ، وكان فيه: "وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا ، فانهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله عليهم" كما كان يتضمن التوقيع تزكية وتوثيقا للعمري ، وإباحة للخمس في عصر الغيبة ، ونهيا عن السؤال عن سبب الغيبة .^{٢٣٥}

وينقل الصدوق رسالة أخرى من (الإمام المهدي) إلى (النائب الأول): عثمان بن سعيد العمري وابنه محمد (النائب الثاني) يذكر فيها أخبار الخلاف بين الشيعة حول (الخلف) وقول بعضهم بعدم وجود غير جعفر بن علي ، ويطالب الشيعة بعدم البحث عما ستر عنهم لكي لا يأتوا ، وعدم كشف ستر الله لكي لا يندموا ، والاقتصار على الإجمال والتعريض ، دون التفسير والتصريح .^{٢٣٦}

^{٢٣٢} - الطوسي، الغيبة، ص ١٧٤ - ١٧٦

^{٢٣٣} - ناحية الإمام المهدي، عبر سفيره الخاص.

^{٢٣٤} - الطوسي، الغيبة ، ص ١٧٢ - ١٧٤

^{٢٣٥} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٧٣ ، والطوسي، الغيبة، ص ١٨٦ - ١٨٨

^{٢٣٦} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٥١٠

وقد ذكر ابن شهر آشوب في (المناقب) والطبرسي في (الاحتجاج) : أن المفيد اخرج نسخا من رسائل ، قال إن الإمام المهدي قد بعثها إليه بيد أعرابي وبخط رجل آخر ، وكان المهدي يخاطب فيها المفيد بالأخ السديد والمولى الرشيد والمخلص الناصر ، وملهم الحق ودليله والعبد الصالح الناصر للحق والداعي إليه بكلمة الصدق.^{٢٣٧}

هذه أهم القصص التي تروى عن مشاهدة (الإمام محمد بن الحسن العسكري) عند ولادته وفي حياة أبيه وعند وفاته وبُعيد ذلك.. وهناك قصص أخرى كثيرة تروى عن مشاهدته في البيت الحرام في الطواف أو في شعب من شعاب الطائف أو في المدينة أو هنا وهناك ، وهي أقل دلالة من هذه القصص وأضعف سنداً.. وربما كانت قصة حكيمة وأبي الأديان البصري هما أشهر القصص التي تروى عن ولادة ووجود (الإمام الثاني عشر) .

المبحث الرابع

الدليل الإعجازي على وجود (المهدي)

وبالإضافة إلى الأدلة العقلية، والنقلية، والتاريخية، على وجود (محمد بن الحسن العسكري) فإن المؤيدين لهذه النظرية يوردون دليلاً رابعاً هو: (المعاجز) التي يقولون إن (النواب الأربعة) كانوا يقومون بها أو (علم الغيب) الذي كانوا يتحدثون عنه .

وقد استعرضنا كثيراً من تلك (المعاجز) في أثناء الحديث عن الروايات التاريخية حول ولادة (ابن الحسن) ووجوده ، في الفصل الماضي ، وسوف نقوم الآن باستعراض (المعاجز) التي قدمها (النواب الأربعة: عثمان بن سعيد العمري ومحمد بن عثمان ، والحسين بن روح النوبختي وعلي بن محمد السمری) وكلاء (الإمام المهدي) في فترة: (الغيبة الصغرى) التي امتدت حوالي سبعين عاماً من ٢٦٠ للهجرة إلى ٣٢٩ هـ تاريخ وفاة (النائب الرابع).

^{٢٣٧} - راجع أيضاً: النوري الطبرسي، خاتمة المستدرک، ج ٣ ، ص ٥١٨ ، والجزائري ، الأنوار النعمانية، ج ٢ ، ص

٢١ ، وابن بطريق الحلبي، رسالة نهج العلوم، والتكنابني، قصص العلماء ، ص ٣٩٩

وقد ذكر الشيخ المفيد قصة محمد بن إبراهيم بن مهزيار ، الذي شكك في وجود (الإمام المهدي) بعد وفاة الإمام العسكري ، والذي يقول : " إن أباه قد أوصى إليه بمال جليل وأمره إن يتقي الله فيه ويسلمه لخليفة الإمام العسكري ، فقال في نفسه: احمل هذا المال إلى بغداد واكتري دارا على الشط ولا اخبر أحدا بشيء ، فان وضع لي شيء كوضوحه في أيام أبي محمد، انفدته ، وإلا أنفقتة في ملاذي وشهواتي". فقدم بغداد واكتري دارا على الشط وبقي أياما فإذا برقعة مع رسول ، وفيها: يا محمد معك كذا وكذا... حتى قصّ عليه جميع ما معه وذكر في جملتها شيئا لم يحط به علما، فسلم المال إلى الرسول ، وبقي أياما، ثم خرج إليه إعلان بنصبه (وكيلا) مقام أبيه .^{٢٣٨}

وذكر الكليني والمفيد والطوسي أمثلة كثيرة على " معاجز " النواب ، وعلمهم بالغيب ، كدليل على ارتباطهم بالإمام المهدي ، وعلى وجود المهدي وارتباطه بالسماء .

منها قيام الإمام المهدي برفع جمل وما عليه في السماء .

ومنها : نهي المهدي لرجل عن ختان ابنه ، وموت الطفل بعد ذلك بقليل .

ومنها نهي رجل عن السفر في البر والبحر وأمره بالإقامة بالكوفة ، وخروج القراصنة وقطاع الطرق على القوافل في ذلك الوقت .

ومنها قصة معرفة العمري بموضع أمانة نسيها الرسول بين أمتعته ، مع عدم حمل الرسول لأية تذكرة أو كتاب حول الموضوع.

ومنها أخبار العمري بتاريخ وفاته في اليوم والشهر والسنة.

ومنها أخبار العمري الناس بالأجوبة العجيبة ، وإخباره لرجل بتفاصيل خلاف سري بينه وبين زوجته .

ومنها قدرة النائب الثالث: الحسين بن روح النوبختي على قراءة رسالة بيضاء ومعرفته بمحتوياتها، والإجابة عليها بسرعة.

ومنها أخبار علي بن بابويه الصدوق بولادة ولدين صالحين له في المستقبل .

^{٢٣٨} - المفيد ، الإرشاد، ص ٣٥١

ومنها : أخبار النوبختي لعدد من الناس بحل قضاياهم في المستقبل بالتحديد وبالتفصيل ، وموت بعض الأشخاص في أوقات محددة من قبل .

ومنها : معرفة النوبختي باللغات الأجنبية والتكلم بها ، من دون تعلم ، بالمعجزة .

ومنها : أخبار النائب الرابع السمری ، لأصحابه ، وهو في بغداد ، نبأ وفاة علي بن الحسين بن بابويه في قم في نفس اليوم .

ومنها أخبار الشيعة بتاريخ وفاته بعد ستة أيام.

ومنها أخبار الوكيل القاسم بن العلاء بقرب وفاته بعد أربعين يوما ، وإرجاع بصره إليه بعد فقده لمدة طويلة ، و إخباره ببقاء ولده وعدم موته كأخوته السابقين .

ومنها علم النواب بمصدر الأموال التي كانت ترد إليهم .

ومنها إخبار محمد بن زياد الصيمري بوفاته وموته في الوقت المحدد .^{٢٣٩}

ويشير الطوسي إلى "دليل المعاجز" ويعتبره : دليلا على إمامة ابن الحسن وثبوت غيبته ووجود عينه ، " لأنها أخبار تضمنت الإخبار بالمغيبات وبالشيء قبل كونه على وجه خارق للعادة لا يعلم ذلك إلا من أعلمه الله على لسان نبيه (ص) ووصل إليه من جهة من دَلّ الدليل على صدقه ، لأن المعجزات لا تظهر على يد الكذابين ، وإذا ثبت ذلك دَلّ على وجود من اسندوا ذلك إليه " .^{٢٤٠}

المبحث الخامس: دليل الإجماع

بعد الدليل الفلسفي (العقلي ، أو الاعتباري) والدليل الروائي (النقلي) والدليل التاريخي ، ودليل (المعاجز الغيبية) الخارقة للعادة.. بعد كل ذلك ، يأتي دليل الإجماع الذي يشير إليه بعض القائلين بنظرية

^{٢٣٩} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ٥١٩ ، والمفيد، الإرشاد، ص ٣٥٢ - ٣٥٥ ، والطوسي، الغيبة، ص ١٧٩ و ١٨٤ و ١٩٢ و ١٩٣ و ٢٢٢ و ٢٤٣

^{٢٤٠} - الطوسي ، الغيبة، ص ١٩٩

وجود (محمد بن الحسن العسكري) وولادته. الذي كان أول من أشار اليه، سعد بن عبد الله إلا شعري القمي، في القرن الثالث الهجري.^{٢٤١} وكذلك النوبختي، الذي قال: "إن الشيعة اجمعوا جميعا على إن الإمام الحسن العسكري قد خلف ولدا هو الإمام" وقال: "إن كل من قال بإمامة الأحد عشر من آباء القائم لزمه القول بإمامة الثاني عشر، لنصوص آباءه عليه باسمه ونسبه وإجماع شيعتهم على القول بإمامته، وانه القائم الذي يظهر بعد غيبة طويلة فيملاً الأرض قسما وعدلا".^{٢٤٢}

وهو ما يتبادر إلى الأذهان اليوم، حيث يحتج الكثير من الناس بأن قضية وجود (الإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري) هي من الأمور "المجمع عليها" بين صفوف الشيعة الإمامية الاثني عشرية على الأقل.

المبحث السادس

لماذا الغيبة ؟

بعد تقديم جميع الأدلة العقلية والنقلية والتاريخية على "وجود" (محمد بن الحسن العسكري) وولادته في منتصف القرن الثالث الهجري، فان غيبته عن الأنظار وعدم خروجه وتصديه لقيادة الأمة الإسلامية والاضطلاع بمهام الإمامة، يشكل تحديا كبيرا للقائلين بوجوده، ولذلك كان عليهم إن يفسروا "سر الغيبة". وقد قدموا عدة نظريات في تفسير ظاهرة الغيبة المحيرة، وهي كما يلي:

١ - **نظرية الحكمة المجهولة.** وقد مال الشيخ الصدوق إلى هذه النظرية، وحتّم وجود حكمة في غيبة الإمام، انطلاقا من آثار حكمة الله في حججه المتقدمين، وقال: "إن إيماننا بعصمة الإمام المهدي يقتضي منا التسليم بوجود حكمة وراء غيبته".^{٢٤٣}

وقد نفى السيد المرتضى علم الهدى، ضرورة معرفة سبب الغيبة على وجه التعيين، وكفاية علم الجملة بوجود سبب ما للغيبة، مع الإيمان بعصمة الإمام، واعتبر العلم في ذلك كالعلم بمراد الله من

^{٢٤١} - إلا شعري القمي، المقالات والفرق، ص ١٠٦

^{٢٤٢} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٤ و ٩٣

^{٢٤٣} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٢١ و ٨٥

الآيات المتشابهات في القرآن الكريم.^{٢٤٤} وهكذا قال الشيخ الطوسي بضرورة افتراض سبب لغية (صاحب الزمان) واستتاره ، والقول بوجود حكمة مسوغة وان لم نعلمها مفصلاً ، كما يتم افتراض أسباب وحكم لخلق الله (عز وجل) للبهائم والمؤذيات والصور القبيحة وإيلاء الأطفال ، وان لم نعلم وجه حكمها بالتفصيل ، وقال: "إذا علمنا إمامته بدليل وعلمنا عصمته بدليل آخر، وعلمناه غاب ، حملنا غيبته على وجه يطابق عصمته ، فلا فرق بين الموضعين".^{٢٤٥} وقال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: "إن السؤال عن الحكمة ساقط ، إذا قامت البراهين على وجوب وجود الإمام في كل عصر ، وان الأرض لا تخلو من حجة ، وان وجوده لطف وتصرفه لطف آخر" واعتبر المقام أدق واغمض من ذلك ، كما اعترف بجهل الحكمة وعدم الوصول إلى حاق المصلحة.^{٢٤٦}

٢ - نظرية التمهيص . وهناك نظرية أخرى في تفسير (غيبية الإمام) هي نظرية (التمهيص) أي تمهيص الشيعة وتمييزهم وغربلتهم من اجل التعرف على حقيقة إيمانهم بالمهدي وصبرهم على البلاء. وقد روى الصدوق والطوسي روايات عديدة في هذا المضمون عن الإمامين الباقر والصادق ، ويتحدث بعض تلك الروايات عن عدم ظهور صاحب الأمر إلا بعد ذهاب ثلثي الناس ، وعدم بقاء أحد إلا القليل ، وعن غربلة الشيعة كما يغربل الزوان من القمح .^{٢٤٧}

وتقول رواية منها: "انه لا بد لصاحب هذا الأمر من غيبة يغييها، حتى يرجع عن هذا الأمر من كان يقول به ، إنما هي محنة من الله امتحن بها خلقه ، وان عقولكم تصغر عن هذا الأمر، وأحلامكم تضيق عن حمله ، ولكن إن تعيشوا تدركوه".^{٢٤٨} وتشبه رواية أخرى منها " غيبة المهدي " بإبطاء العقوبة التي استنزها نوح من السماء حتى أخذت طوائف من المؤمنين به ترتد طائفة بعد أخرى .. وكذلك القائم فانه تمتد أيام غيبته ليصرح الحق عن محضه ويصفو من الكدر بارتداد كل من كانت طينته خبيثة من الشيعة الذين يخشى عليهم النفاق إذا أحسوا بالاستخلاف والتمكين والأمن المنتشر في عهد القائم

^{٢٤٤} - المرتضى، تلخيص الشافي، للطوسي، ج ٤ ، ص ٢١١

^{٢٤٥} - الطوسي، الغيبة، ص ٥٧ - ٥٨

^{٢٤٦} - كاشف الغطاء، اصل الشيعة وأصولها، ص ٧١

^{٢٤٧} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٣٤٦ و ٣٤٨ ، والطوسي، الغيبة، ص ٢٠٣ و ٢٠٤ و ٢٠٦

^{٢٤٨} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٣٦٠ ، والطوسي، الغيبة، ص ١٠٤ و ٢٠٤

٢٤٩. ولكن لم يأخذ بهذه النظرية سوى الصدوق ، وقد أهملها المفيد والمرتضى والطوسي . وإن كانوا قد ذكروا بعض الروايات المتضمنة لها ، وفسر الطوسي تلك الروايات الواردة حول امتحان الشيعة في حال الغيبة بأنها تعني اتفاق ذلك في أثنائها لا انه سبب لها. ٢٥٠

٣- نظرية الخوف. وهذه أقوى نظرية في تفسير سبب الغيبة، وقد روى الكليني والصدوق، مجموعة روايات عن الإمام الصادق ، تشير إلى أن سبب الغيبة هو الخوف على الحياة والتقية. ٢٥١

وقال الشيخ المفيد: " خلف الحسن ابنه المنتظر لدولة الحق وكان قد أخفى مولده ، وستر أمره، لصعوبة الوقت وشدة طلب سلطان الزمان له واجتهاده في البحث عن أمره ، ولما شاع من مذهب الإمامية فيه وعرف من انتظارهم له ، فلم يظهر ولده في حياته ولا عرفه الجمهور بعد وفاته ". ٢٥٢

واعتبر المفيد أن الظروف المحيطة بغيبة (الإمام المهدي) اصعب بكثير من الظروف التي أحاطت بالأئمة السابقين من أهل البيت، الذين لم يختفوا عن الأنظار، وكانوا يتحصنون بالتقية ، وإن سلاطين الزمان كانوا يعلمون قيام المهدي بالسيف ، ولذلك كانوا احرص على ملاحقته واستيصال شأفته ، وإن السبب الذي كان يمنعه من الخروج هو قلة الأعوان والأنصار ". ٢٥٣

وأكد السيد المرتضى: " إن سبب غيبته إخافة الظالمين له ومنعهم يده عن التصرف فيما جعل إليه التدبير والتصرف فيه ، فإذا حيل بينه وبين مراده سقط عنه فرض القيام بالإمامة ، وإذا خاف على نفسه وجبت غيبته ولزم استتاره ". ٢٥٤

وقال الكراجكي: " إن السبب في غيبة الإمام إخافة الظالمين له وطلبهم بسفك دمه، وإعلام الله انه متى أبدى شخصه لهم قتلوه ، ومتى قدروا عليه أهلكوه ، وإنما يلزمه القيام بواجباته بشرط التمكن

٢٤٩ - الصدوق، إكمال الدين، ص ٣٥٢ و ٣٥٧ ، والطوسي، الغيبة، ص ١٠٤ و ١٠٨

٢٥٠ - الطوسي، الغيبة، ص ٢٠٣

٢٥١ - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ و ٣٤٠ والصدوق، إكمال الدين، ص ٤٨١

٢٥٢ - المفيد، الإرشاد، ص ٣٤٥

٢٥٣ - المفيد، الأمالي، والفصول المختارة، ص ٣٩٥

٢٥٤ - المرتضى، الشافي، ج ٣ ، ص ١٤٩

والقدرة وعدم المنع والحيلولة، وإزالة المخافة على النفس والمهجة ، فمتى لم يكن ذلك فالتقية واجبة، والغيبة عند الأسباب الملحثة إليها لازمة ، لأن التحرر من المضار واجب عقلا وسمعا". ٢٥٥

وحصر الطوسي أسباب الغيبة في الخوف ، وقال: " لا علة تمنع من ظهوره (ع) إلا خوفه على نفسه من القتل ، لأنه لو كان غير ذلك لما ساع له الاستتار، وكان يتحمل المشاق والأذى ، فان منازل الأئمة وكذلك الأنبياء (ع) إنما تعظم منزلتهم لتحملهم المشاق العظيمة في ذات الله ". ٢٥٦

ولكن لماذا يخاف الإمام (محمد بن الحسن) على نفسه من القتل ، وقد خرج الإمام الحسين وضحي بنفسه في كربلاء؟ إن السيد المرتضى والشيخ الطوسي والكراچكي يجيبون على ذلك بالقول: " إن أحدا من البشر لا يقوم مقام الإمام المهدي ، لأنه آخر الأئمة ولأن مصلحة المكلفين مقصورة عليه!". ٢٥٧

وهذا الجواب يفترض عدة أمور هي :

١ - تحديد مهدوية الإمام الثاني عشر من قبل الأئمة السابقين ، والإشارة إليه من قبل .

٢ - وجود أزمة سياسية وعداوة وخوف لدى السلطات العباسية من المهدي ، ووجود خوف شديد واعظم لدى الإمام من المخاوف التي كانت في عصور الأئمة السابقين، في ظل الحكام الأمويين والعباسيين.

٣ - خاتمية الإمام الثاني عشر للأئمة وانحصار الإمامة فيه.

٤ - تحريم التقية للمهدي قبل قيامه و ظهوره .

وإلا فإذا قلنا : إن الأئمة السابقين لم يحددوا هوية المهدي من قبل ، فلا حاجة له للغيبة منذ ولادته. وإذا ثبت إن العلاقة بين أهل البيت والعباسيين في تلك الفترة كانت طبيعية وإيجابية ولا يوجد فيها ضغط أو توتر سياسي ، فلا حاجة أيضا إلى الغيبة. وإذا قلنا إن الإمام الثاني عشر هو واحد من الأئمة وليس آخرهم ، كما كان الاماميون يعتقدون في البداية وحتى نهاية القرن الثالث ، فلا توجد ضرورة

٢٥٥ - الكراچكي، كنز الفوائد، ج ١ ، ص ٣٧١

٢٥٦ - الطوسي، الغيبة، ص ٢٠٣

٢٥٧ - المرتضى، الشافي، ج ١ ، ص ١٤٧ ، والطوسي، الغيبة، ص ٦٣، والكراچكي، كنز الفوائد، ج ١ ، ص ٣٧١

للغيبة ، لأن الأئمة السابقين كانوا جميعاً معرضين للقتل ولم يغيبوا. وإذا قلنا إن الإمام الثاني عشر (المهدي) يجوز له استخدام التقية كسائر الأئمة فرضاً ، فإنه كان بمقدوره إن ينفي هويته ومهدويته إلى أن يظهر ، ولم يكن بحاجة إلى الغيبة منذ ولادته.

المطلب الثاني: أين مكان الغيبة؟

إن معظم الروايات التي تتحدث عن (المهدي محمد بن الحسن العسكري) تشير إلى أنه كان في بيت أبيه في (سرّ من رأى) عاصمة الخلافة العباسية يوم ذاك ، وأن الذين شاهدوه في حياة أبيه شاهدوه فيها ، وتقول بعض الروايات : أنه خرج للصلاة على جثمان أبيه الذي توفي ودفن في (سامراء) وأنه التقى بعد ذلك بوفد قم الذي جاء يبحث عن الإمام الجديد ، وأنه ظل مقيماً في البيت إلى أعوام طويلة حتى دهمته قوات المعتضد العباسي، فغاب في (السرداب). وقد بنى الخليفة العباسي الناصر بالله قبة على ذلك السرداب ، لا تزال موجودة حتى اليوم ، ويزورها الشيعة من كل مكان ، وهي القبة المعروفة بقبة سرداب الغيبة ، في جوار قبر الإمامين الهادي والعسكري في مدينة سامراء شمالي بغداد .

ويورد الشيخ المفيد قصة رجل اسمه (علي بن الحسين) يقول : أنه زار الإمام المهدي في بيته في سامراء ، وجلس عنده ثلاثة أيام ، كما يذكر قصة (الحسن بن الفضل) الذي يقول أنه ورد العسكر (أي : سامراء) فبعث إليه الإمام المهدي صرة فيها دنانير . وينقل المفيد عن الحسن بن عبد الحميد أنه شك في أمر أحد وكلاء المهدي واسمه (حاجز بن يزيد) فذهب إلى العسكر ، فخرج إليه ما يؤكد صحة دعوى ذلك الوكيل وينهاه عن الشك.^{٢٥٨}

المطلب الثالث: كم هي مدة الغيبة؟

لقد كانت مدة الغيبة في الأيام الأولى محددة بزمان قصير، وكانت تتأرجح بين أيام وشهور أو سنين لا تتجاوز عدد أصابع اليدين ، كما تقول روايات كثيرة يذكرها الكليني والطوسي . بينما كانت روايات أخرى، تقول : أنها ستطول حوالي ثلاثين أو أربعين عاماً. وأشار بعض الروايات إلى تحديد مدة الغيبة بوقت قصير جداً، وحادثة عمر الإمام المهدي عند الظهور، وقد فسرها النعماني بحادثة عمره وقت

^{٢٥٨} - المفيد، الإرشاد، ص ٣٥٥

إفضاء الإمامة إليه. ونقل الطوسي رواية أخرى عن الإمام الباقر: إن صاحب هذا الأمر لا يتجاوز الأربعين . وقالت روايات أخرى: إن عمره قد يجاوز المائة والعشرين . بينما روى الطوسي في مكان آخر، عن أبي عبد الله (ع) : انه قال: ما تنكرون إن يمد الله لصاحب هذا الأمر في العمر كما مد لنوح في العمر؟ . وردّ على من استشكل طول مدة الغيبة وخروجها عن العادة ، بأن الأمر ليس على ما قالوه ، ولو صح لجاز إن ينقض الله العادة لضرب من المصلحة. واستشهد الصدوق والطوسي بغيبات الأنبياء السابقين مثل موسى بن عمران ويوسف بن يعقوب ويونس بن متى ، وأصحاب الكهف وصاحب الحمار ، ونوح وسلمان الفارسي والدجال ولقمان بن عاد وربيعة بن ضبع ويعرب بن قحطان ، الذين قيل انهم غابوا عن أقوامهم لفترات من الزمان .^{٢٥٩}

المطلب الرابع: كيفية التأكد من هوية المهدي

وعلى أي حال فإن الغيبة الطويلة أدت و تؤدي إلى مشكلة موضوعية أخرى ، وهي : كيفية التعرف على المهدي عند الظهور ، والتأكد من هويته . ولم تكن هذه المشكلة مطروحة في البداية وخاصة في عصر (الغيبة الصغرى) ولكنها بدأت تفرض نفسها مع توالي الزمان .. ومرور الأعوام. وقد كانت مدار بحث ونقاش بين الرافضين لوجود المهدي والقائلين به ، في ذلك الوقت. وقد تصدى الشيخ الصدوق لمناقشتها ، وقال رداً على المعتزلة والمعارضين الذين كانوا يغمزون من هذه القناة: " انه قد يجوز بنقل من تجب بنقله الحجة من أوليائه ، وقد يجوز إن يظهر معجزاً يدل على ذلك، وهذا الجواب الثاني هو الذي نعتمد عليه ونجيب الخصوم به ، وإن كان الأول صحيحاً".^{٢٦٠}

وقد أشار المفيد والمرتضى والطوسي إلى هذه المشكلة : (مشكلة التعرف على المهدي والتأكد من هويته عند الظهور) بذكر مجموعة كبيرة من المعاجز والآيات الكونية الغريبة التي تسبق الظهور كعلامات على قيامه . وعالج السيد المرتضى المشكلة في معرض مناقشته لإمكانية الظهور المؤقت أثناء فترة الغيبة ، فاشتراط ظهور آيات تدل على صدقه.^{٢٦١}

المطلب الخامس: علائم الظهور

^{٢٥٩} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٣٨ و ٣٤٠ والطوسي ، الغيبة، ص ٧٦ - ٧٨ و ١٠٤ و ٢٥٨ والنعماني،

الغيبة، ص ٣٢٣

^{٢٦٠} - الصدوق، إكمال الدين ، ج ١ ، ص ٦١ - ٦٢

^{٢٦١} - المرتضى، الشافي، ج ١ ، ص ١٤٩

يذكر الكليني والصدوق والمفيد والطوسي والعباشي : مجموعة كبيرة من الروايات تربط بين الظهور وبين حدوث علامات سماوية ، تتعلق بتوقف حركة الأفلاك ، وتغير في قوانينها ، وما شابه من المعاجز غير الطبيعية ، كركود الشمس وقت الزوال إلى وقت العصر ، وخروج صدر رجل ووجهه في عين الشمس ، وكذلك وقوع الكسوف والخسوف بصورة غير طبيعية ، ككسوف الشمس في النصف من شهر رمضان وخسوف القمر في آخره. أو تكلم العلم والسيف مع (الإمام المهدي) ومناداته بعدم جواز القعود بعد ذلك الوقت. فيخرج ويقتل أعداء الله حيث ثقفهم ، ويقيم حدود الله ويحكم بحكم الله . إضافة إلى طلوع الشمس من المغرب ، وطلوع نجم بالشرق يضيء كما يضيء القمر... وخروج جراد في أوانه وغير أوانه.. وخروج العبيد عن طاعة أسيادهم وقتلهم مواليتهم.. ومسح لقوم من أهل البدع حتى يصيروا قردة وخنازير ، وغلبة العبيد على بلاد السادات.. ونداء من السماء يسمعه أهل الأرض كلهم ، كل أهل لغة بلغتهم ، وأموات ينشرون من القبور حتى يرجعوا إلى الدنيا فيتعارفون فيها ويتزاورون..

ويذكر المفيد : إن جبرائيل ينزل على القائم لمبايعته عند الظهور ، ويقول الطوسي : إن أصحاب القائم سوف ينقلون إلى مقر المهدي من بيوتهم بصورة اعجازية كلمح البصر!

ويتحدث المفيد عن بعض العلامات الكونية التي سوف تحدث عند ظهور (المهدي) كامتداد طول اليوم إلى عشرة أضعاف ليكون ٢٤٠ ساعة ! وهذا ما يفسره الطوسي بحديث مشابه ، حيث يقول : "إذا قام القائم .. يأمر الله الفلك في زمانه فيبطيء في دوره حتى يكون اليوم في أيامه كعشرة من أيامكم ، والشهر كعشرة أشهر ، والسنة كعشر سنين من سنيكم".

ويروي الكليني حديثاً عن الإمام الباقر، يتنبأ فيه باستعمال الشيعة لطريقة (التلفون التلفازي) في التحدث مع القائم ومشاهدته عن بعد ، ومن مختلف الأقطار، وذلك عند ظهوره.

وتقول بعض الروايات: إن القائم إذا قام ، أشرقت الأرض بنور ربها واستغنى العباد عن ضوء الشمس ، وذهبت الظلمة ، ويعمر الرجل في ملكه حتى يولد له ألف ولد ذكر لا يولد فيهم أنثى!

وأخيراً نتحدث الروايات الواردة حول ظهور المهدي عن مدة ملكه ، فتقول إحداها : انه سيحكم سبع سنين تكون أشبه بسبعين سنة من سنينا . بينما تقول رواية أخرى: إن القائم يملك ثلاثمائة وتسع سنين ، كما لبث أهل الكهف في كهفهم ، وتقول رواية ثالثة: انه يحكم تسعة عشر عاماً فقط.^{٢٦٢}

الفصل الثاني

مناقشة النظرية (الاثني عشرية)

المطلب الأول:

غموض هوية المهدي عند أهل البيت (ع)

تتألف النظرية (المهدوية الاثني عشرية) من قضيتين منفصلتين هما: الإيمان بوجود الإمام الثاني عشر : (محمد بن الحسن العسكري) و انه : (المهدي المنتظر) . وهي تعترف بعدم إعلان الإمام الحسن العسكري عن وجود ولد له في الظاهر، وتدعي أنه أخفاه في السر خوفاً عليه من السلطات العباسية، التي يفترض أنها كانت تعلم مسبقاً بأنه المهدي المنتظر الذي سوف يزلزل عروشها ، وأنها كانت تبحث عنه لتقضي عليه وهو في المهدي.

ولكن الدراسة التاريخية المتعمقة لقصة نشوء هذه النظرية تكشف عن وجود فاصل زمني طويل بين جزئي النظرية، حيث كانت في البداية تتركز أساساً حول وجود ولد للإمام العسكري ، يرثه في الإمامة ، ثم تحولت بعد ذلك إلى القول أنه المهدي المنتظر الغائب . ووجدت في (غيبة المهدي) تفسيراً لعدم إعلان أبيه عن ولادته ، وعدم ظهوره بعد ذلك .

ولكي نتأكد من حقيقة هذه النظرية التي لعبت دوراً كبيراً في التاريخ الإسلامي ، وفي صياغة الفكر السياسي الشيعي الإمامي الاثني عشري ، لا بد أن نفكك أجزاء هذه النظرية وندرسها على حدة ،

^{٢٦٢} - الكليني، الكافي، ج ١، ص ٢٠١ والصدوق ، إكمال الدين، ص ٢٦٨ وكذلك: عيون أخبار الرضا، ج ١ ، ص ٦٣ والمفيد ، الإرشاد، ص ٣٥٥ و ٣٥٩ و ٣٦٢ والطوسي ، الغيبة، ص ٢٧٤ و ٢٨٣ - ٢٨٥ والعياشي في تفسيره، ج ٢ ، ص ٣٢٦

وبدقة وموضوعية. ولا بد أن نرى أولاً : هل كانت النظرية المهدوية الشيعية قبل منتصف القرن الثالث الهجري ، واضحة ومعروفة ومحددة بشخص (الإمام الثاني عشر: محمد بن الحسن العسكري)؟ أم كانت غامضة وعامة وفكرة مجردة ؟

إن تاريخ أئمة أهل البيت (ع) و رواياتهم التي يحتفظ بها التراث الشيعي الامامي، تؤكد غموض هوية الإمام المهدي، وعدم التصريح باسمه أو زمان خروجه ، ليس بسبب الخوف عليه ، وإنما بسبب عدم تحديده من قبل، لأن فكرة (المهدوية) كانت اسماً عاماً وأملاً يخلق فوق رأس كل واحد منهم ، وقد بزغ هذا الأمل مع تولي الإمام علي للخلافة ، واشتد بعد مقتل الإمام الحسين بن علي في كربلاء ، حيث أخذ كثير من الشيعة يعد العدة للثأر والانتقام ويعمل من اجل إسقاط النظام الأموي ، والخروج المسلح ، ويلتف حول هذا الإمام أو ذاك من أئمة أهل البيت ، ويطلق عليه صفة المهدوية ، فيقوم وينجح أو يدركه الموت قبل أن يخرج ، وربما يقول البعض : انه اختفى وغاب وسوف يظهر في المستقبل .

ولو كانت هوية المهدي قد حددت من قبل منذ زمان رسول الله (ص) وأجمع الشيعة عليها ، لما ذهبوا يمينا وشمالا ، واحتاروا وتساءلوا عن هوية المهدي .

ولو كانت هوية المهدي قد حددت من قبل منذ زمان رسول الله (ص) وأجمع الشيعة عليها ، لما ذهبوا يمينا وشمالا ، واحتاروا وتساءلوا عن هوية المهدي .

يقول الإمام محمد بن علي الباقر مخاطباً الشيعة: " لا تزالون تمدون أعناقكم إلى الرجل منا تقولون: هذا هو ، فيذهب إلى ربه حتى يبعث الله لهذا الأمر من لا تدرون ولد ؟ أم لم يولد؟ خلق؟ أم لم يخلق؟" ٢٦٣ .

ويقول الكليني : إن الحكم بن أبي نعيم جاء إلى الإمام الباقر في المدينة فقال له:

- عليّ نذر بين الركن والمقام إن أنا لقيتك أن لا اخرج من المدينة حتى اعلم انك قائم آل محمد أم لا ؟ فقال له الإمام الباقر:

- ياحكم .. كلنا قائم بأمر الله . ولكن الحكم لم يرتضِ هذا الجواب العام فسأله بالتحديد:

- فأنت المهدي؟ فأجابه الباقر جوابا عاما أيضا:

- كلنا نهدي إلى الله ، وعاد الحكم ليسأل بالتحديد ووضوح:

- فأنت صاحب السيف ، وأجابه الإمام للمرة الثالثة بغموض:

- كلنا صاحب السيف ووارث السيف ، فسأل الحكم بوضوح تام:

- فأنت الذي تقتل أعداء الله؟ فقال الإمام الباقر:

- يا حكم .. كيف أكون أنا وقد بلغت خمسا وأربعين سنة؟! وان صاحب هذا الأمر اقرب عهدا باللبن مني وأخف على ظهر الدابة.^{٢٦٤}

ويقول الكليني والنعمانى : إن الإمام الصادق كان يرفض تحديد هوية المهدي ، وان أبا حمزة - أحد أصحابه - سأله مرة: أنت صاحب هذا الأمر ؟ فقال : لا ، فقال: فولدك؟ .. قال :لا ، قال: فولد ولدك هو؟ فقال : لا ، فقال: فولد ولدك ؟ فقال: لا ، قال: من هو؟ قال : الذي يملأها عدلا كما ملئت ظلما وجورا على فترة من الأئمة كما إن رسول الله (ص) بعث على فترة من الرسل .^{٢٦٥}

يؤيد ذلك إن الإمام الصادق عندما اقنع الشاعر السيد الحميري الذي كان يعتقد بمهدوية محمد بن الحنفية ، بوفاته ، لم يقل له من هو الإمام المهدي بالتحديد ، وقد انشد الحميري أبياتا من الشعر سجل فيها تحوله عن القول بمهدوية ابن الحنفية ، ولكنه لم يشير إلى هوية المهدي ، حيث قال:

وما كان قولي في ابن خولة مطنبا معاندة مني لنسل المطيب

ولكن رويانا عن وصي محمد وما كان فيما قال بالمكذب

بأن ولي الأمر يفقد لا يرى ستيرا كفعل الخائف المترقب

فتقسم أموال الفقيد كأنما تغيبه بين الصفيح المنصب

^{٢٦٤} - الكليني، الكافي، ج ١ ص ٥٣٦

^{٢٦٥} - الكليني، الكافي، ج ١ ص ٣٤١ ، والنعمانى، الغيبة، ص ١٨٧

فلما روى : إن ابن خولة غائب صرفنا إليه قولنا لم نكذب

وقلنا هو المهدي والقائم الذي يعيش به من عدله كل مجذب

فان قلت لا فالحق قولك والذي أمرت ، فحتم غير ما متعصب

واشهد ربي إن قولك حجة على الناس طرا من مطيع ومذنب

فان ولي الأمر والقائم الذي تطلع نفسي نحوه بتطرب

له غيبة لا بد من إن يغيبها فصلى عليه الله من متغيب

فيمكث حيناً ثم يظهر حينه فيملك من في شرقها والمغرب

بذاك أدين الله سرا وجهرة ولست وان عوتبت فيه بمعتب

ومع إن الإمام الصادق في الرواية السابقة لم يكن ينفي فكرة القيام عن نفسه ولم يؤكد لها ، فان الصدوق يروي عن ابن أبي يعفور انه سمع الصادق يقول: " ويل لطغاة العرب من أمر قد اقترب ". ويروي أيضا عن سدير عن أبي عبد الله انه قال: " يا سدير الزم بيتك وكن حلسا من احلاسه واسكن ما سكن الليل والنهار ، فإذا بلغك إن السفياي قد خرج فارحل إلينا ولو على رجلك " .^{٢٦٦} مما يوحي أن الإمام الصادق كان يحدث أصحابه بقرب قيامه. ولكن محمد بن الحسن الصفار يروي عن أبي بصير انه جاء يوما إلى أبي عبد الله وقال له:

- جعلت فداك ، إني أريد إن المس صدرك (وكان أبو بصير أعمى) فقال له:

- افعل ، قال: فمسست صدره ومناكبه ، فقال:

- و لم يا أبا محمد ؟ فقال أبو بصير:

- جعلت فداك .. إني سمعت أباك وهو يقول: إن القائم واسع الصدر مسترسل المنكبين عريض ما بينهما ، فقال الإمام الصادق:

^{٢٦٦} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٣٥

- يا أبا محمد .. إن أبي لبس درع رسول الله (ص) وكانت تسحب على الأرض ، وأنا لبستها فكانت وكانت .. وأنها تكون من القائم كما كانت من رسول الله مشمرة كأنه ترفع نطاقها بجلقتين ، وليس صاحب هذا الأمر من جاز أربعين.^{٢٦٧}

ويروي الطوسي حوارا جرى بين الإمام الصادق وبين أبي بصير الذي سأله: أ لهذا الأمر أمد نريح إليه أبداننا وننتهي إليه؟ فقال له الإمام: بلى.. ولكنكم أذعتم فزاد الله فيه. ويروي رواية أخرى أكثر صراحة يقول فيها الإمام الصادق: كان هذا الأمر في فأخره الله ، ويفعل بعد في ذريتي ما يشاء.^{٢٦٨} مما يكشف إن أمل المهدي كان معلقا على الإمام الصادق في عصره ، ولذلك عندما توفي ولم تتوفر له الظروف لتحقيق الأمل المطلوب والكامن في قلوب الشيعة ، رفض بعض أصحابه ، ومنهم خاصته ، أن يصدق نبأ وفاته ، وأصرّ على أنه قد غاب وسيظهر عما قريب ، وقال : انه المهدي المنتظر . وكان على رأس هؤلاء زعيم الشيعة في البصرة : عبد الله بن ناووس .

الأمل بمهدوية الكاظم. ومع اشتداد الضغط السياسي العباسي على الإمام موسى بن جعفر الكاظم ، ازداد أمل الشيعة الذين قالوا بإمامته ، بخروجه وقيامه ، وتفجير الثورة في وجه الحكم العباسي.. واعتقد معظم الشيعة قويا بأن موسى هو القائم المهدي ، ورووا روايات كثيرة عن الباقر والصادق في تحديد شخصه ، وربما أضافوا إليها من عند أنفسهم الشيء الكثير ، انطلاقا من شوقهم وحرصهم ومعاناتهم . وعندما توفي الإمام الكاظم بعد خمس وثلاثين سنة من الانتظار والأمل ، لم يصدق عامة الشيعة الموسوية نبأ وفاته ، ورفضوا إلا الإصرار على القول بغيبته وحياته والتأكيد على انه المهدي المنتظر، وانه سوف يخرج ويملا الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا.

الرضا ينفي احتمال المهديوية فيه. وقد عاد ذلك الأمل إلى الشيعة بعد حوالي عشرين عاما ، وذلك عندما دعا الخليفة العباسي المأمون ، الإمام علي بن موسى الرضا إلى خراسان ، وقلده ولاية العهد عام ٢٠١ للهجرة ، وهذا ما أحيى الأمل في نفوس الشيعة ودفعهم للاعتقاد بإمكانية إن يصبح الرضا: المهدي المنتظر.

^{٢٦٧} - الصفار، بصائر الدرجات، ص ١٨٩

^{٢٦٨} - الطوسي ، الغيبة، ص ٢٦٣

ينقل الكليني : إن أيوب بن نوح جاء إلى الإمام الرضا وقال له: إني أرجو أن تكون صاحب هذا الأمر.. وإن يسوقه الله إليك بغير سيف ، فقد بوع لك وضريت الدراهم باسمك . ولكن الإمام الرضا بدد توقعه ونفى أن يكون هو المهدي .^{٢٦٩}

وعندما جاء الشاعر دعبل الخزاعي إلى الإمام الرضا وانشده القصيدة المعروفة : (مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات) أشار إلى المهدي بصورة غامضة وقال: (خروج إمام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات ، يميز فينا كل حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمات) ولم يسمه بالاسم .

إن تحديد هوية (الإمام المهدي) بالثاني عشر من أئمة أهل البيت ، كما هو معروف لدى الشيعة الاثني عشرية اليوم ، قد حدث في وقت متأخر بعد وفاة الإمام الحسن العسكري ، والقول بوجود ولد له في السر ، بفترة طويلة ، أي في بداية القرن الرابع الهجري تقريبا. وذلك في أعقاب تطور نظرية "الإمامة الإلهية" وتحولها من التسلسل اللاحدود ، إلى الاختصار على (اثني عشر) وتكوّن الفرقة الاثني عشرية .

وقد ذكر الشيخ الصدوق في كتاب : (إكمال الدين) الذي ألفه في منتصف القرن الرابع الهجري ، مجموعة كبيرة من الروايات عن النبي الأكرم (ص) وأئمة أهل البيت (ع) ، يشير بعضها إلى القائم أو المهدي دون تحديد اسمه واسم أبيه، ويؤكد بعضها تحديد رقمه الثاني عشر وانه ابن الحسن العسكري ، كما في الرواية التي يقول فيها: إن الإمام الرضا سأل الشاعر دعبل الخزاعي ، بعد إن ألقى قصيدته وأشار فيها إلى المهدي بصورة غامضة ، فقال له: هل تدري من هذا الإمام ؟ ومتى يقوم؟ فقال: لا يا مولاي ، إلا أني سمعت بخروج إمام منكم يطهر الأرض من الفساد ويملاؤها عدلا كما ملئت جورا. فقال له : يا دعبل .. الإمام بعدي محمد ابني ، وبعد محمد ابنه علي ، وبعد علي ابنه الحسن ، وبعد الحسن ابنه الحجة القائم المنتظر في غيبته ، المطاع في ظهوره .^{٢٧٠} وهذه الروايات ضعيفة المتن والسند ، ولا تصمد أمام البحث العلمي ، وسوف نناقشها في الفصل الخاص بنقد الأدلة الروائية (النقلية) ونثبت عدم صحتها واختلافها فيما بعد.

المطلب الثاني

^{٢٦٩} - الكليني ، الكافي ، ج ١ ، ص ٣٤١ ، والصدوق ، إكمال الدين ، ص ٣٧٠

^{٢٧٠} - الصدوق ، إكمال الدين ، ص ٣٧٣

ظاهرة المهديّة في التاريخ الإسلامي

ومما يؤكّد غموض هوية المهدي عند أهل البيت ، ولدى جماهير الشيعة والمسلمين في القرون الثلاثة الأولى ، هو تكرّر دعوات المهديّة هنا وهناك .. حتى جاوزت العشرات ، وحتى أصبح لكل فرقة وطائفة أكثر من مهدي واحد.. حيث تدلنا هذه الظاهرة على تماهي مصطلح (الإمام المهدي) مع معنى الثورة والحرية والعدالة وانبثاقه كرد فعل على الواقع الفاسد الذي كان يتدهور إليه المجتمع الإسلامي مرة بعد أخرى.

لقد كانت معظم قصص المهديّة في القرون الإسلامية الأولى، مرتبطة ومنبثقة من حركات سياسية ثورية تتصدى لرفع الظلم والاضطهاد، وتلتف حول زعيم من الزعماء ، وعادة ما يكون إماماً من أهل البيت (ع) ، وعندما تفشل الحركة ويموت الإمام دون أن يظهر ، أو يقتل في المعركة ، أو يختفي في ظروف غامضة.. كان أصحابه يختلفون ، فمنهم من يسلم بالأمر الواقع ويذهب للبحث عن أمام جديد ومناسبة جديدة للثورة.. ومنهم من كان يرفض التسليم بالأمر الواقع فيرفض الاعتراف بالهزيمة ويسارع لتصديق الإشاعات التي تتحدث عن هروب الإمام الثائر واختفائه وغيبته. وعادةً ما يكون هؤلاء من بسطاء الناس الذين يعلقون آمالاً كبيرة على شخص أو يضخمون مواصفات ذلك الزعيم فيصعب عليهم التراجع بعد ذلك، لأنه كان يعني لديهم الانهيار والانسحاق النفسي.

مهدوية الإمام علي

فقد كان شيعة الإمام علي بن أبي طالب (ع) الذين ثاروا على الحكم الأموي، وقاتلوا في معركة الجمل، وحاربوا معاوية في صفين ، واشتبكوا مع الخوارج في النهروان، يأملون إن يستمر حكم الإمام العادل إلى فترة أطول ينعمون خلالها بالعدل والمساواة.. وكان أملهم في الإمام كبيراً.. ولذلك فإن البعض منهم صدم بخبر اغتياله ولم يكذب يصدق نبأ وفاة الإمام .

يقول مؤرخو الشيعة الإمامية (كالنوبختي والاشعري القمي والكشي) : إن جماعة من الشيعة رفضوا التصديق بوفاة الإمام ، وقالوا: إن علياً لم يقتل ولم يموت ولا يقتل ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه ويملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً .

هذا القول بمهدوية الإمام علي وغيبته، يمكن إن نفسره بالصدمة والمفاجأة والأمل الكبير.. حيث لم يتحمل أولئك النفر الذين كانوا بعيدين عن الكوفة، خبر استشهاد الإمام ، بعد إن كانوا يأملون إن يحقق الإمام العدالة الكونية على الأرض ، فأدى بهم ذلك إلى تصورات بعيدة عن الواقع.

مهدوية ابن الحنفية

وبعد مجزرة كربلاء تجمع الغضب الشيعي حول قيادة محمد بن الحنفية أخي الإمام الحسين ، من اجل الثأر والانتقام لشهداء كربلاء.. وعندما توفي محمد في ظروف غامضة عام ٨١ هـ ، قالت جماعة من أنصاره (الكيسانية) : انه لم يمت وانه مقيم بـجبال رضوى بين مكة والمدينة ، واعتقدوا انه (الإمام المهدي المنتظر) الذي بشر به النبي (ص) أنه يملأ الأرض قسطا وعدلا.^{٢٧١}

ويفسر السيد المرتضى دعوى الكيسانية بمهدوية ابن الحنفية بالحيرة التي ألجأهم إلى القول بها.^{٢٧٢} وربما كانت الحيرة قد أصابتهم نتيجة عقدتهم الأمل على ابن الحنفية لكي يسترجع السلطة من أيدي الأمويين ، وقد أصيبوا بالحيرة بعد موته قبل تحقيق الهدف المنشود ، فاضطر أتباعه من الشيعة الكيسانية إلى اختراع القول بمهدويته واستمرار حياته وغيبته، في محاولة منهم للمحافظة على الأمل متقدماً في صدورهم ، خاصة وان الشيعة يوم ذاك لم يكونوا يعرفون شخصية معينة محددة من قبل على أنها (المهدي المنتظر) .

مهدوية أبي هاشم

وقد تراجع هذا القول بمهدوية ابن الحنفية عندما برز أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، كقائد جديد للشيعة في نهاية القرن الأول الهجري ، وتعلق الأمل الكبير به لتحقيق ما عجز أبوه عن تحقيقه.. وتكررت الأزمة من جديد عندما توفي أبو هاشم دون أن يظهر.. وهذا ما أدى إلى اعتقاد قسم من شيعته باختبائه وغيبته والقول انه (المهدي المنتظر) وانه حي لم يمت .^{٢٧٣}

أما الذين اعترفوا بوفاة أبي هاشم فقد حافظوا على الأمل في نفوسهم أيضا وذلك بانتظار قيام أحد أبناء محمد بن الحنفية في المستقبل ، ولم يحددوا شخصا معينا.^{٢٧٤}

مهدوية الطيار

^{٢٧١} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٢٩ ، والأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ٢٧

^{٢٧٢} - المرتضى، الشافي، ص ١٨٤

^{٢٧٣} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٣٤

^{٢٧٤} - المصدر

وسرعان ما التف الشيعة الذين كانوا يشكلون المعارضة الرئيسية للحكم الأموي، حول قائد جديد من أبناء أهل البيت، هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار ، الذي نجح في إقامة دولة شيعية في اصفهان، في أواخر العهد الأموي ، ولكنه انهزم بعد ذلك وقتل في ظروف غامضة.. ولم يتحمل بعض الشيعة نبأ انهيار الدولة الشيعية ، فقالوا إن الطيار حي لم يمت وأنه مقيم في جبال اصفهان لا يموت أبدا حتى يقود نواصيتها إلى رجل من بني هاشم من ولد علي وفاطمة.^{٢٧٥}

انحصار المهدي في البيت الفاطمي

لم تكن النظرية المهديّة عند الشيعة قبل هذه الحركة محصورة في البيت الفاطمي ، حيث كان (الكيسانية) الذين يمثلون مرحلة تاريخية من تطور الشيعة ، يحصرونها في البيت العلوي ، ويجيزونها في محمد بن الحنفية وأولاده ، أو يحصرونها فيهم ، ثم امتدت إلى خارج البيت العلوي ، إلى عبد الله بن معاوية الطيار ، ثم تطورت لتتحصّر في البيت الفاطمي من أبناء الحسن والحسين.. ولم تكن محصورة في ذلك الوقت في أي واحد من البيتين. لذلك اعتقد قسم من الشيعة بمهدوية زيد بن علي ، كما اعتقد قسم آخر بمهدوية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن (ذي النفس الزكية) ، وإذا كان زيد قد قتل بسرعة .. فان أتباعه انظموا إلى النفس الزكية . وكان عبد الله بن الحسن أبوه قد سمى ابنه (محمدا) وتنبأ عند ولادته ، بأن يكون (المهدي الموعود) الذي بشر به النبي وقال عنه إن: (اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي) حسبما كان مشهورا في تلك الفترة.

مهدوية ذي النفس الزكية

كان (النفس الزكية) يأمل إن يثور ضد الحكم الأموي ، حيث بايعه بنو هاشم ، وكان فيهم إبراهيم الإمام والسفاح والمنصور ، ولكن سرعان ما قامت الدولة العباسية فانتفض عليه من بايعه، والتف حوله قسم من الشيعة ، فخرج في المدينة سنة ١٤٥ وسيطر على الحجاز واليمن ، وقتل بعد شهور . وهنا أصيب قسم من شيعته بالصدمة ولم يتحملوا نبأ الهزيمة ولم يصدقوا بمقتل (المهدي) الذي كانوا ينتظرون خروجه منذ فترة طويلة ، فقالوا: انه حي لم يمت ولم يقتل وأنه مقيم بجبل العلمية ، وهو جبل بين مكة ونجد ، حتى يخرج . وتشبثوا بالحديث النبوي الذي يقول: (القائم اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي) .

^{٢٧٥} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٣٥، والأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ٣٥

ولما لم تكن هناك أحاديث صريحة ومحددة ومعروفة توضح هوية المهدي ، فقد طَبَّقَ أتباع النفس الزكية أحاديث المهدوية عليه ، وتأولوا الأحاديث الواردة به ، وربما اختلقوا بعض الروايات أو نسبوها إلى النبي لتعزيز نظريتهم وتأييد زعيمهم المنتظر.

مهدوية الباقر

وتقول بعض الروايات: إن قسما من الشيعة اعتقد بمهدوية الإمام محمد بن علي الباقر (ع) اعتمادا على رواية تقول : إن النبي (ص) قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: (انك تلقاه فاقراه مني السلام).^{٢٧٦} ويقول الكليني : إن الإمام الباقر كان يسرّ إلى أصحابه بقرب القيام والخروج ويوصيهم بالكتمان ، وان بعضهم قد ترك أعماله انتظارا لساعة الصفر .^{٢٧٧}

مهدوية الصادق

وبعد وفاة الإمام الباقر، وهزيمة محمد بن عبد الله ذي النفس الزكية، وانتصار العباسيين ، وتألق الإمام جعفر بن محمد الصادق ، شاعت روايات كثيرة حول مهدويته.^{٢٧٨} وينقل النوبختي : إن بعض الشيعة روى عن الإمام الصادق انه قال : " إن رأيتم رأسي قد أهوى عليكم من جبل فلا تصدقوه فإني أنا صاحبكم " وانه قال: " إن جاءكم من يخبركم عني انه مرضني وغسلني وكفني فلا تصدقوه فإني أنا صاحبكم صاحب السيف".^{٢٧٩}

من هنا رفض قسم من شيعة الإمام الصادق، الاعتراف بموته وقالوا: " انه المهدي المنتظر، وانه حي لم يمّت " وعرفت هذه الفرقة بـ : (الناووسية) نسبة إلى عجلان بن ناووس.^{٢٨٠} وكان منهم: أبان بن عثمان الأحمر، الذي يعدّه الكشي من (أصحاب الإجماع) ، أي من اقرب المقربين إلى الإمام الصادق .^{٢٨١}

مهدوية إسماعيل

^{٢٧٦} - الاسفراييني، الفرق بين الفرق، ص ٦٠

^{٢٧٧} - الكليني ، الكافي، ص ٢٤٥

^{٢٧٨} - المصدر

^{٢٧٩} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٦٧

^{٢٨٠} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٦٧ ، والأشعري، المقالات والفرق، ص ٧٩

^{٢٨١} - الكشي، أخبار معرفة الرجال، ترجمة أبان

من هذا يبدو إن النظريات المهدوية المختلفة كانت تولد مع الزمن وفي الظروف المختلفة.. وكانت اقرب إلى الأمل والرجاء منها إلى الاستناد إلى أحاديث قاطعة وصریحة ، وكان القول بـ : (الغيبة) يبرز عند وفاة الإمام المنتظر دون إن يظهر .. ولم يكن الشيعة يجمعون دائما وأبدا ومنذ البداية على مهدوية إمام معين من قبل.. ففي الوقت الذي كان بعضهم يؤمن بمهدوية الإمام الصادق كان البعض الآخر يذهب ليعلق الأمل على مهدوية ابنه إسماعيل ، وعندما توفي إسماعيل في حياة أبيه الإمام الصادق رفض أصحابه التسليم بوفاته، واخترعوا القول بغيبته، وفسروا تشييع الإمام له ودفنه أمام أعين الناس، بأنه مسرحية تستهدف التغطية على هروب إسماعيل واختفائه، والإعداد لظهوره في المستقبل !.^{٢٨٢}

ومن المعروف إن الشيعة اختلفوا بعد وفاة الإمام الصادق إلى ست فرق ، فذهب الإسماعيلية إلى القول بحياة إسماعيل وإمامته ومهدويته وغيبته ، ثم قال فريق منهم بعد إن يئسوا منه، بمهدوية ابنه محمد .. ثم نقلوا المهدوية في أبناء إسماعيل إلى أن ظهر واحد منهم ، في نهاية القرن الثالث، وأقام الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا.

مهدوية الديباج

وادعى محمد بن جعفر الصادق (الديباج) الذي خرج في مكة عام ٢٠٠ انه المهدي المنتظر، وأعلن نفسه خليفة للمسلمين واخذ البيعة وتسمى بأمر المؤمنين.^{٢٨٣}

إذن.. نستطيع إن نقول إن النظرية المهدوية كانت تعني الثورة والقيام والخروج ولم تكن محددة في شخص معين.. وإن نظرية الغيبة كانت تبرز عندما يفشل أي أمام منتظر أو يموت دون تحقيق أهدافه.

مهدوية محمد بن عبد الله ألا فطح

الحالة الاستثنائية الوحيدة التي نجدها خلاف تلك القاعدة في ذلك الوقت، هي نظرية : (مهدوية محمد بن عبد الله بن جعفر الصادق) .. وهذا الشخص لم يولد أساسا، ولم يكن له وجود ، وقد اختلق بعض الشيعة الفطحية قصة وجوده في السر، بعد وفاة أبيه عبد الله ألا فطح ، الذي آمن أولئك الشيعة انه الإمام بعد أبيه الصادق ، وقد أصيبوا بأزمة عندما توفي الأفطح دون عقب يرثه في الإمامة ، وكانوا يعتقدون بضرورة استمرار الإمامة في الأعقاب ، وأعقاب الأعقاب ، أي بتوارثها بصورة عمودية ، ولذا لم يستطيعوا بسبب هذه الأزمة الفكرية، أن ينتقلوا إلى القول بإمامة أخي عبد الله : موسى بن جعفر ،

^{٢٨٢} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٦٨ ، والأشعري القمي، ص ٨٠

^{٢٨٣} - المصادر

فاخترعوا قصة وجود ولد له في السر! ، وقالوا : إن اسمه يطابق الحديث النبوي المشهور : "اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي" .^{٢٨٤}

ولا يستبعد أن يكون بعض المصلحين والمنافقين من أصحاب الأئمة، قد اخترع هذه القصة الوهمية (أسطورة المهدي المنتظر محمد بن عبد الله بن الصادق) لكي يتاجر بها ويدعي الوكالة له، ويقبض الأموال باسمه ، حيث كان يروج الإشاعات عن وجود ذلك المهدي الموهوم في اليمن ، وانه سوف يظهر ويملاً الأرض قسطاً وعدلاً بعد إن تملأ ظلماً وجوراً.

مهدوية الكاظم

ومع انقلاب الدولة العباسية على أهدافها الإصلاحية، وانتشار الظلم والفساد، كان من الطبيعي أن يلتفت المعارضون لها حول شخصية عظيمة من زعماء أهل البيت هو الإمام موسى بن جعفر الكاظم الذي كان رمز التقوى والعلم والعبادة.. وان يعظم الأمل بخروجه وقيامه.. وهكذا فقد انتشرت روايات كثيرة جداً حول مهدوية الكاظم وانه (قائم آل محمد) .. وراح البعض من الشيعة ينقل روايات عن الصادق : " أن من المحتوم أن ابني هذا قائم هذه الأمة وصاحب السيف " و " وان موسى هو القائم وهذا حتم من الله " وان يدهده رأسه عليكم من جبل فلا تصدقوا فانه القائم " وان القائم اسمه جديدة الحلاق " وكأني بالراية السوداء صاحبة الرقعة الخضراء تحف فوق رأس هذا الجالس " وما إلى ذلك من الروايات التي فاقت حد "التواتر"!

وعندما اعتقل هارون الرشيد الإمام الكاظم، احتسب معظم الشيعة الموسوية ، ذلك غيبة أولى أو صغرى ، ولما توفي في السجن وألقي بجثمانه على الجسر في بغداد ، رفضوا التصديق بذلك وقالوا: أنها مسرحية عباسية، وقالوا: إن الإمام الكاظم قد غاب غيبته الثانية وهرب من السجن ، وانه حي لم يموت ولا يموت حتى يملك شرق الأرض وغربها، ويملاًها كلها عدلاً كما ملئت جوراً، وانه القائم المهدي.^{٢٨٥}

وقد قال معظم أولاد الإمام الكاظم بذلك ، وكذلك معظم أصحابه المقربين كالمفضل بن عمر، وداود الرقي، وضريس الكناني، وابوبصير، واعين بن عبد الرحمن بن أعين، وحديد الساباطي، والحسن بن قياما الصيرفي، وكتب اثنان من أصحابه هما علي بن أبي حمزة و علي بن عمر الأعرج ، كتباً حول (الغيبة) .

^{٢٨٤} - الأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ٨٨

^{٢٨٥} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٨٠ ، والأشعري القمي، المقالات ، ص ٨٩

وقد عُرف أولئك الشيعة بالواقفية ، أي الذين وقفوا على الإمام الكاظم ورفضوا الإيمان بإمامة ابنه علي بن موسى الرضا. وقد قام أحد هؤلاء الواقفة، وهو: داود الرقي، بمحاورة الإمام الرضا، والاحتجاج ضده بتلك الروايات "المتواترة" التي تحدد المهديونية بالكاظم وتقول: "إن سابعنا قائمنا" فقال له الإمام الرضا: إن الأمل بقيام الكاظم كان معلقا على مشيئة الله ولم يكن من المحتوم .^{٢٨٦}

وظل الواقفية يؤمنون بمهديونية وغيبة الإمام الكاظم، إلى وقت طويل .. ولكنهم تقلصوا شيئا فشيئا حتى ماتت النظرية وانقرضوا ، خاصة عندما أكد الإمام الرضا وفاة أبيه وقال لهم: "إن الحجة لله على خلقه لا تقوم إلا بإمام حي يعرف.. سبحانه الله!.. مات رسول الله ولم يميت موسى بن جعفر؟!.. بلى والله لقد مات وقُسمت أمواله ونكحت جواريه" واتهم من قال بعدم وفاته بالكذب وقال: "انهم كفار بما انزل الله عز وجل على محمد (ص). ولو كان الله يمدّ في أجل أحد من بني آدم لحاجة الخلق إليه لمدّ الله في أجل رسول الله (ص)".^{٢٨٧}

مهدوية محمد بن القاسم

وفي مطلع القرن الثالث الهجري في سنة ٢١٩ وفي أيام خلافة المعتصم ، حدثت ثورة علوية في الطالقان بقيادة محمد بن القاسم ، فهزمه المعتصم ، واعتقله وحمله إلى بغداد فحبسه في قصره ، ولكن الثائر العلوي استطاع الهرب . فاختلف الناس في أمره ، وقال بعضهم: مات أو هرب ، وقال بعض الشيعة : انه حي ، وانه سيخرج وانه مهدي هذه الأمة .^{٢٨٨}

مهدوية يحيى بن عمر

وبعد سنوات خرج في الكوفة إمام علوي آخر، هو يحيى بن عمر ، ضد الخليفة العباسي المستعين بالله ، فوجه إليه الحسين بن إسماعيل فقتله ، إلا إن بعض أصحاب يحيى رفض الاعتراف بالهزيمة، وقال انه لم يقتل وإنما اختفى وغاب، وانه المهدي القائم وسوف يخرج مرة أخرى.^{٢٨٩}

^{٢٨٦} - النوري الطبرسي، خاتمة مستدرک وسائل الشيعة، ج ٣ ، ص ٥٩٥

^{٢٨٧} - الكشي، معرفة الرجال، ص ٣٧٩

^{٢٨٨} - الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص ٥٧٧ ، والاسفرايني، الفرق بين الفرق، ص ٣١

^{٢٨٩} - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ، ص ١٤٧ والكامل في التاريخ، ج ٧ ، ص ٤٣

مهدوية محمد بن علي الهادي والعسكري

واختلف الشيعة الإمامة في منتصف القرن الثالث الهجري في هوية الإمام المهدي المنتظر فقال قسم منهم : بأنه محمد بن علي الهادي ، الذي توفي فجأة في الدجيل ، وقالوا بغيبته كغيبه إسماعيل بن جعفر ، ورفضوا التصديق بوفاته.. وذهب قسم آخر إلى القول بمهدوية الإمام الحسن العسكري ، بينما قال قسم ثالث بوجود ومهدوية ولد له في السر هو الإمام (محمد بن الحسن العسكري) .. وقال آخرون : انه غير محدد وانه سوف يكون واحداً من أهل البيت لا على التعيين وانه سوف يولد ويظهر في المستقبل ٢٩٠ .

مهدوية القائم المجهول

وأخيراً يذكر المؤرخان الشيعة المعاصران لوفاة الإمام العسكري (النوبختي، والأشعري القمي): إن فرقة من أتباع الإمام العسكري قالت: "إن الحسن بن علي قد مات وصح موته ، وانقطعت الإمامة إلى وقت يبعث الله فيه قائماً من آل محمد ممن قد مضى ، إن شاء بعث الحسن بن علي وإن شاء بعث غيره من آبائه. ولا بد من ذلك .. لأن قيام القائم وخروج المهدي حتم من الله ، وبذلك وردت الأخبار وصحت الآثار واجمع عليه الأمة فلا يجوز بطلان ذلك ، ولأن وفاة الحسن بن علي قد صحت وصح أنه لا خلف له ، فقد انقطعت الإمامة ولا عقب له ، وإذا لا يجوز إلا أن يكون في الأعقاب ، ولا يجوز إن ينصرف إلى عم ولا ابن عم ولا أخ بعد الحسن والحسين ، فهي (الإمامة) منقطعة إلى القائم منهم، فإذا ظهر وقام اتصلت إلى قيام الساعة". ٢٩١

كل ذلك التعدد والتنوع في الحركات المهدوية يعبر عن غموض مفهوم (الإمام المهدي) واحتمال كونه أي واحد من أئمة أهل البيت ، وهو من يقوم بالسيف ويخرج ويقيم دولة الحق.. وقد كانت كل فرقة شيعية تعتقد انه من هذا البيت الهاشمي أو ذاك البيت العلوي أو الفاطمي أو الحسيني أو الحسيني أو الموسوي.. وانه هذا أو ذاك .. ولو كانت هوية المهدي قد حددت من قبل ، منذ زمان رسول الله (ص) أو الأئمة الأحد عشر السابقين لما اختلف المسلمون ولا الشيعة ولا الإمامية ولا شيعة الإمام الحسن العسكري ، في تحديد هوية المهدي ، ولما اعتقد بعضهم بكونه: (الإمام الحسن العسكري) نفسه .

٢٩٠ - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٩٤ و ٩٦ و ١٠٥ ، والأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ١٠١ و ١٠٦ و ١٠٨

٢٩١ - النوبختي، فرق الشيعة، ص ١٠٥ ، والأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ١٠٨

نستنتج من كل ذلك : إن هوية المهدي كانت غامضة وغير محددة في حياة أهل البيت ، وإن القول بأنه (ابن الحسن العسكري) نشأ بعد افتراض وجوده في السر، وفي محاولة لتفسير (غيبته) عن الأنظار وعدم إعلان أبيه عن ولادته ، باعتبار (الغيبه) صفة من صفات (المهدي).

المبحث الثاني

العوامل الفلسفية

لنشوء فرضية (الإمام الثاني عشر)

إذا قمنا بقراءة الرواية التاريخية لما حدث للشيعة الإمامية بعد وفاة الإمام الحسن العسكري سنة ٢٦٠ هجرية ، والقينا نظرة على " الدليل العقلي " الذي قدمه ذلك الفريق الذي قال ب : " وجود ولد مخفي للإمام ، هو الإمام من بعده وهو المهدي المنتظر " ، فأنا سنكتشف أزمة نظرية مرّ بها ذلك الفريق من الإمامية ممن يشترط توارث الإمامة بصورة عمودية ، وعدم جواز انتقالها إلى أخ أو ابن أخ ، أو عمّ أو ابن عمّ ، واضطراره إما إلى التنازل عن هذا الشرط ، أو التسليم بانقطاع الإمامة بعد وفاة العسكري دون خلف ، كما هو الظاهر من حياته ، أو افتراض وجود ولد له في السر ، بالرغم من عدم التصريح به ، أو الإعلان عنه ، أو وجود أي دليل عليه، وتفسير هذا الغموض والكتمان بالتقية والخوف من السلطة ، بالرغم من عدم وجود مؤشرات تستدعي ذلك .

تقول الرواية التاريخية، التي يعترف بها وينقلها المؤرخون والمتكلمون (الاثنا عشريون): إن الإمام العسكري توفي دون إن يخلف ولدا ظاهرا ، وأوصى بأمواله إلى أمه المسماة ب : "حديث " . وهذا ما سمح لأخيه جعفر بن علي بأن يدعي الإمامة من بعده ويدعو الشيعة الإمامية إلى اتباعه كخليفة له ، كما اتبعوا الإمام موسى بن جعفر بعد وفاة أخيه الأكبر (عبد الله الأفطح) الذي أصبح إماما لفترة وجيزة بعد وفاة أبيه الصادق ، ولم ينبج ولدا تستمر الإمامة في عقبه .

ويقول النوبختي والأشعري القمي والمفيد : إن كثيرا من الشيعة الامامية لبوا نداء جعفر وكادوا يجمعون على القول بإمامته .^{٢٩٢} وذلك لأن عامة الشيعة لم يكونوا يعرفون أحداً غير جعفر من أبناء الإمام الهادي ، ولم يكونوا شاهدوا أي ولد للإمام العسكري ، وهذا ما تؤكد رواية (أبي الأديان البصري) رسول الإمام العسكري الى أهل المدائن ، وآخر شخص يودع الإمام ، والذي يقول : إن العسكري لم يخبره باسم خليفته ، وإنما أعطاه بعض العلامات للتعرف عليه ، ويقول: انه عاد الى سامراء يوم وفاة الإمام العسكري فرأى جعفر وحوله عامة الشيعة وعلى رأسهم عثمان بن سعيد العمري ، وهم يعزونه ويهنتونه ، وانه ذهب وعزاه وهناه كواحد منهم، كما يقول: إن وفدا من شيعة قم قدموا في ذلك اليوم الى سامراء وسألوا عن الإمام الحسن وعرفوا موته ، فقالوا : من نعزي؟ فأشار الناس الى جعفر ، فسلموا عليه وعزوه وهنتوه.^{٢٩٣} وهو ما تؤكد أيضا رواية (سنان الموصلية) التي تتحدث عن قدوم وفد بقيادة أبي العباس محمد بن جعفر الحميري القمي ، الى سامراء ، بعد وفاة الإمام العسكري ، وسؤالهم عنه وعن وارثه ، وقول الناس لهم: إن وارثه جعفر بن علي ، وعدم وجود مانع يحول دون قولهم بإمامته سوى عدم معرفته بعلم الغيب.^{٢٩٤}

وبناء على ذلك فقد أرسل جعفر الى أهل قم ، التي كانت مركزا للشيعة فأجابه ، يدعوهم الى نفسه ، ويُعلمهم : أنه القيم بعد أخيه . وقد اجتمع أهل قم عند شيخهم (احمد بن إسحاق) وتداولوا في الموضوع ، وقرروا إرسال وفد اليه لمناقشته و " سؤاله بعض المسائل التي كانوا يسألون آباءه عنها من قبل والتأكد من دعواه" كما يقول الخنصبي والصدوق والطبرسي والصدر.^{٢٩٥} مما يعني أن أهل قم لم يكونوا يعرفون هوية الإمام الجديد من قبل ، ولم يكونوا يعرفون بوجود ولد للإمام العسكري ، ولم يكن يوجد لديهم أي مانع لقبول إمامة جعفر بن علي ، أي انهم لم يكونوا يلتزمون بقانون الوراثة العمودية في الإمامة ، وإنما كانوا أقرب الى الفطحية، ويجيزون إمامة الأخوين .

^{٢٩٢} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٩٨ ، والأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ١١٠ ، والمفيد، الفصول المختارة،

ص ٢٥٩

^{٢٩٣} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٧٥

^{٢٩٤} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٧٦ - ٤٧٩ ، والراوندي، الخراج والخراج، ص ١٦٤ ، والصدر ، الغيبة

الصغرى، ص ٣٢٣

^{٢٩٥} - الخنصبي، الهداية الكبرى ، ص ٣٩١ والصدوق، إكمال الدين، ص ٤٧٥ والطبرسي، الاحتجاج، ج ٢ ، ص

٢٧٩ والصدر، الغيبة الصغرى، ص ٣٩١

وكانت العقبة الرئيسية التي حالت دون إيمان بعض الشيعة بإمامة جعفر، هو المبدأ القديم المشكوك فيه، الرافض لاجتماع الإمامة في أخوين بعد الحسن والحسين ، وقد طرحه وفد قم على جعفر بن علي أثناء الحوار، فأجابهم : " إن الله قد بدا له في ذلك " ، كما يقول الخصبى.^{٢٩٦}

وتقول بعض الروايات التي ينقلها الصدوق والطوسي : إن وفد قم طالب جعفر بالكشف عن كمية الأموال التي كان يحملها معه، وأسماء أصحابها ، غيباً ، كما كان يفعل أخوه العسكري ، وان جعفر رفض ذلك الطلب و الادعاء، واتهم الوفد بالكذب على أخيه ، أنكر نسبة علم الغيب اليه.^{٢٩٧} كما تحاول بعض الروايات أن تتهم جعفر بالفسق وشرب الخمر والجهل وإهمال الصلاة.^{٢٩٨} وذلك من أجل إبطال دعواه في الإمامة ، ولكن عامة الشيعة لم يأخذوا بتلك الاتهامات ، ولم يطرحوا مسألة علم الغيب ، وقد عزوه وهنتوه بالإمامة . وكانت المشكلة الرئيسية لدى البعض منهم هي مسألة : (الجمع بين الأخوين في الإمامة) . وقد ارتكز الطوسي عليها في عملية الاستدلال على نفي إمامة جعفر و افتراض وجود ولد للحسن ، وادعى عدم الخلاف حولها بين الامامية .^{٢٩٩}

وكانت هذه المشكلة قد تفجرت في صفوف الشيعة الامامية ، لأول مرة ، بعد وفاة الإمام عبد الله الأفيطح بن الصادق ، الذي أجمع فقهاء الشيعة ومشايخهم على القول بإمامته ، ولكنه توفي دون عقب، مما أوقع الامامية في أزمة، وفرّقهم الى ثلاث فرق ، فمنهم من تمسك بمبدأ: " عدم جواز الجمع بين الأخوين في الإمامة " واضطر الى افتراض وجود ولد موهوم لعبد الله، قال إن اسمه (محمد) وهو مخفي ، وانه سيظهر في المستقبل . ومنهم من تجاوز هذا المبدأ وأجاز لنفسه الانتقال الى الأخ ، إذا لم يكن للإمام السابق ولد ، وقال نتيجة لذلك بإمامة موسى بن جعفر بعد أخيه عبد الله الأفيطح . ومنهم من تراجع عن القول بإمامة الأفيطح ، واستنتج من عدم وجود عقب له : انه لم يكن إماما وشطب اسمه من قائمة الأئمة بالمرّة.

وقد تكررت هذه المشكلة مرّة أخرى عند وفاة الإمام الحسن العسكري دون ولد ، مما أدى الى اختلاف الشيعة الامامية حول مسألة الخلف الى عدة فرق : فمنهم من جمع بين الأخوين وقال بإمامة

^{٢٩٦} - الخصبى، الهداية الكبرى، ص ٣٨٣ - ٣٩١

^{٢٩٧} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٧٦ والصدر ، الغيبة الصغرى، ص ٣١٦

^{٢٩٨} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٤٧٩ والصبى، الهداية الكبرى، ص ٣٩١

^{٢٩٩} - الطوسي، الغيبة، ص ١٣٥

جعفر بن علي بعد أخيه الحسن ، ومنهم من تراجع عن القول بإمامة العسكري وقال: "إن القول بإمامة الحسن كان غلطاً وخطأ ، وجب علينا الرجوع عنه الى إمامة جعفر ، وإن الحسن قد توفي ولا عقب له فقد صح عندنا انه ادعى باطلا ، لأن الإمام بإجماعنا جميعا لا يموت إلا عن خلف ظاهر معروف يوصي اليه ويقيم مقامه بالإمامة ، والإمامة لا ترجع في أخوين بعد الحسن والحسين .. فالإمام لا محالة جعفر بوصية أبيه إليه" كما يقول النوبختي والاشعري القمي .^{٣٠٠}

ومنهم من أصّر على إمامة الحسن والتمسك الشديد بذلك المبدأ أو الشعار الرافض للجمع بين الأخوين في الإمامة . وانقسم هؤلاء إلى عدة أقسام : فمنهم من قال بمهدوية العسكري وغيبته ، ومنهم من قال برجوعه إلى الحياة بعد الموت ، ومنهم من قال بالفترة ، ومنهم من احتار وتوقف ، وقال: "لم يصح عندنا إن للحسن خلفا ، وخفي علينا أمره ، ونحن نتوقف ونتمسك بالأول حتى يتبين لنا الآخر ، كما أمرنا، انه إذا هلك الإمام ولم يعرف الذي بعده فتمسكوا بالأول حتى يتبين لكم الآخر، فنحن نأخذ بهذا ونلزمه ، ولا ننكر إمامة أبي محمد ولا موته ، ولا نقول انه رجع بعد الموت ، ولا نقطع على إمامة أحد من ولد غيره ، فانه لا خلاف بين الشيعة : " انه لا تثبت إمامة أمام إلا بوصية أبيه إليه وصية ظاهرة " .^{٣٠١}

ومنهم من وجد نفسه مضطرا لافتراض وجود ولد مخفي للإمام العسكري ، وقال انه الإمام من بعده ، وانه المهدي المنتظر ، وفسر عدم إشارة أبيه إليه في حياته وعدم وصيته إليه ، وعدم ظهوره من بعده ، وغيبته .. فسر كل ذلك ، تعسفاً ، بالتقية والخوف من الأعداء .

وكان الدافع الرئيسي لهذا القول ، هو التمسك الشديد بقانون الوراثة العمودية ، وعدم جواز انتقال الإمامة إلى أخوين بعد الحسن والحسين . وبالرغم من أن هذا كان قولاً ضعيفاً، ولم يجمع الشيعة الإمامية عليه في ذلك الوقت ، خلافا لما ادعى الطوسي بعد ذلك بمائتي عام ، فان المتكلمين الذين التزموا به ، جعلوا منه حجر الزاوية في عملية الاستدلال على وجود (ولد) للإمام الحسن العسكري. وقد نسجوا منه ، ومن بقية القضايا الكلامية التي توجب العصمة في الإمام، أو توجب النص في أهل البيت ، دليلاً أسموه ب : "الدليل العقلي" ، أو "الفلسفي" .

^{٣٠٠} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٩٨ والاشعري القمي، المقالات والفرق، ص ١٠٧ - ١١٠

^{٣٠١} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ١٠٥ - ١٠٨ ، والأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ١١٥ ، والمفيد، الفصول المختارة، ص ٢٦٠ ، والكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٤٣ ، والطوسي، الغيبة، ص ٢٤٤٤ ، والصدوق، إكمال الدين، ص ٢٣٠ ، والحر العاملي، إثبات الهداة، ج ٣ ، ص ٤٧٧

وقد استعرضنا في الفصل الأول، من هذا الجزء، أقوال المتكلمين والمؤرخين الذين استدلوا بالعقل على وجود وولادة: (محمد بن الحسن العسكري) وكان دليلهم يعتمد على نظرية العصمة والنص والوراثة العمودية في الإمامة . ولكنه في الحقيقة كان يعتمد فقط على المبدأ الأخير: (الوراثة العمودية) ، وذلك لأن كثيرا من الشيعة الإمامية (الطاحية) الذين كانوا يتفقون معهم في الإيمان بالعصمة والنص ويؤمنون بإمامة الحسن العسكري أيضا ، لم يجدوا أنفسهم مضطرين للإيمان بوجود ولد له في السر ، خلافا للظاهر ، وآمنوا بدلا من ذلك بإمامة أخيه جعفر بن علي الهادي ، لأنهم لم يكونوا يؤمنون بقوة بضرورة الوراثة العمودية وعدم جواز إمامة الأخوين .

إذن .. فان " الدليل العقلي " كان أشبه بالافتراض الفلسفي العاري عن الإثبات التاريخي . وكان ذلك يتجلى في استناد بعض المتكلمين على الحديث الرضوي القائل: (إن صاحب هذا الأمر لا يموت حتى يرى ولده من بعده) لإثبات وجود الولد للإمام العسكري ، كما يقول الشيخ الطوسي.^{٣٠٢}

وذلك بالرغم من إمكانية الاستدلال بنفس الحديث لنقض إمامة العسكري ، كما فعل قسم من الشيعة الذين تراجعوا عن القول بإمامة العسكري ، واتخذوا من عدم إنجابه ولدا تستمر الإمامة فيه دليلا على عدم صحة إمامته ، كما تراجع الشيعة الموسوية ، في منتصف القرن الثاني ، عن القول بإمامة عبد الله الأفطح ، لأنه لم ينجب ، وشطبوا اسمه من قائمة الأئمة . واعتبر ذلك الفريق من الشيعة، التراجع عن إمامة العسكري والقول بإمامة جعفر بعد أبيه الهادي مباشرة ، أهون من افتراض ولد موهوم للعسكري .

والغريب إن السيد المرتضى علم الهدى ، يتهم الذين قالوا بوجود ولد للإمام عبد الله الأفطح ، باللجوء إلى اختراع شخصية وهمية اضطراراً ، من أجل الخروج من الحيرة والطريق المسدود.^{٣٠٣} ولكنه يمارس نفس الشيء في عملية افتراض وجود ولد للحسن العسكري ، وذلك اضطراراً من أجل الخروج من الحيرة التي عصفت بالشيعة الإمامية في منتصف القرن الثالث الهجري.

ولا بد بعد ذلك من الإشارة إلى أن تسمية عملية الاستدلال النظري على وجود ولد للحسن العسكري ، بالدليل "العقلي" ، هو من باب التسامح والاستعارة ، وإلا فإنه ابعد ما يكون عن الاستدلال العقلي ، إذ يعتمد على مجموعة مقولات نقلية ، وبعضها أخبار آحاد بحاجة إلى إثبات الدلالة والسند، كمنقولة (الوراثة العمودية وعدم جواز انتقال الإمامة إلى أخوين بعد الحسن والحسين) ..

^{٣٠٢} - الطوسي، الغيبة، ص ١٣٣ و ١٣٥

^{٣٠٣} - المرتضى، الشافي، ص ١٨٤

ومن هنا فقد قال الشيخ الصدوق: "إن القول بغيبة صاحب الزمان مبني على القول بإمامة آبائه... وان هذا باب شرعي وليس بعقلي محض".^{٣٠٤} وهذا يعني أن المناقشة في أية مقدمة من مقدمات الدليل "العقلي" الطويلة، كضرورة العصمة في الإمام، وضرورة النص عليه من الله، وثبوت الإمامة في أهل البيت، وانحصارها في البيت الحسيني، وكيفية انتقالها من إمام إلى إمام، ودعاوى بقية الأئمة الذين ادعوا الإمامة والمهدوية كمحمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم، وزيد بن علي، ومحمد بن عبد الله ذي النفس الزكية، وإسماعيل بن جعفر وأبنائه، وعبد الله الأفطح ومحمد بن علي الهادي.. وما إلى ذلك من التفاصيل الجزئية في نظرية الإمامة الإلهية، من البداية إلى النهاية، حتى وفاة الإمام الحسن العسكري.. ان المناقشة في أية مقدمة من تلك المقدمات تسد الطريق على الوصول إلى فرضية: (وجود ولد للحسن العسكري)..

ومن هنا كان إثبات وجود (الإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري) بصورة عقلية لسائر الناس أو سائر المسلمين، أو سائر الفرق الشيعية، أو حتى لسائر الفرق الإمامية التي لم توافق على مبدأ: "الوراثة العمودية"، صعباً أو مستحيلاً.. ولذلك كان علماء الكلام (الاثنا عشريون) يمتنعون عن خوض النقاش مع سائر الناس حول إثبات شخصية (ابن الحسن) إلا بعد التسليم بالمقدمات النقلية الطويلة السابقة، والإيمان بكل واحدة.. واحدة منها.

وقد قال عبد الرحمن بن قبة الرازي، في الرد على علي بن أحمد بن بشار: "لا نتكلم في فرع لم يثبت أصله، وهذا الرجل (ابن الحسن) الذي يتحدثون وجوده، وإنما يثبت له الحق بعد أبيه.. فلا معنى لترك النظر في حق أبيه والاشتغال بالنظر معكم في وجوده، فإذا ثبت الحق لأبيه، فهذا ثابت ضرورة عند ذلك بإقراركم، وان بطل أن يكون الحق لأبيه، فقد آل الأمر إلى ما تقولون، وقد أبطلنا".^{٣٠٥} وقال السيد المرتضى: "إن الغيبة فرعٌ لأصول، إن صحت فالكلام في الغيبة أسهل شيء وأوضحه، إذ هي متوقفة عليها، وان كانت غير صحيحة فالكلام في الغيبة صعب غير ممكن".^{٣٠٦}

وهذا اعتراف صريح بعد وجود أية أدلة تاريخية مستقلة، أو علمية وشرعية، تثبت وجود ولد للإمام العسكري، الذي توفي دون أن يشير إلى ذلك، بل أوصى بأمواله إلى أمه، ولم يتحدث عن أي وريث آخر. وان افتراض وجود ولد له، كان مبنياً على "ضرورة استمرار الإمامة الإلهية إلى يوم القيامة ووجوب

^{٣٠٤} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٦٣

^{٣٠٥} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٥٤

^{٣٠٦} - المرتضى، رسالة في الغيبة، ص ٢

توارثها بصورة عمودية". بالرغم من أن الإيمان بنظرية الإمامة، أو التسليم بإمامة الحسن العسكري ، لم يكن يؤدي بالضرورة إلى وجوب الإيمان بوجود ولد له. وهذه حقيقة يعترف بها زعيم الحوزة العلمية في قم ، المعاصر، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في كتابه : (المهدي : الثورة الكبرى) حيث يقول: " إن الاستدلال الفلسفي يمكن أن يثبت قضايا كلية عامة، ولكنه لا يستطيع أن يضع إصبعه على إنسان في الخارج ، ويثبت وجوده".^{٣٠٧}

وهو في النهاية، ليس إلا افتراضاً وهمياً ، وظناً بغير علم . وقد نهانا الله عزّ وجلّ عن اتباع الظن، وخاصة في الأمور العقديّة، حيث قال تعالى: " ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسئلاً" (الإسراء ٣٦)

وقال منتقداً أصحاب الديانات الأخرى الذين يبنون عقائدهم على الظن والتخمين والافتراض : " قل هل عندكم من علم، فتخرجوه لنا ؟ .. إن تتبعون إلا الظن ، وإن انتم إلا تخرصون!" (يونس ٣٦)

وقال: " إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآبأؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى". (النجم ٢٣)

وقال: " وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ". (النجم ٢٨)

المبحث الثالث

نقد الدليل الروائي (النقلي)

لسنا بحاجة لمناقشة الاستدلال بالقرآن الكريم، أو الأحاديث العامة التي تتحدث عن (المهدي) أو (القائم) من دون تحديد هوية ذلك الشخص.. فان هدف دراستنا ليس نفي مبدأ خروج المهدي في المستقبل من الأساس .. وإنما نهدف إلى القول إن شخصاً باسم (محمد بن الحسن العسكري) لم يولد ولم يوجد بعد ، وبالتالي فان تلك الآيات أو الأحاديث العامة، لا تثبت ولادة ذلك الإنسان أو وجوده ، بالرغم من إمكانية المناقشة في دلالة الآيات الكريمة على الموضوع.

أما الروايات الواردة حول (الغيبة) و(الغائب) فهي أيضاً لا تتحدث عن "غائب" بالتحديد.. ولا تذكر اسم (محمد بن الحسن العسكري) ولا تشير إلى غيبته بالخصوص.. وبالتالي فإنها لا يمكن أن تشكل دليلاً على (غيبة الحجة بن الحسن) لأنه لم يولد بعد .. ولم يرغب .. وهي لا تتحدث عن أمر قبل وقوعه حتى يكون ذلك إعجازاً ودليلاً على صحة الغيبة ، كما قال الشيخ الصدوق.

ولا توجد في تلك الروايات أية دلالة على ما ذهب إليه المتكلمون الإماميون ، لأنها لم تتضمن الإخبار بالشئ قبل كونه ، كما قال الشيخ الطوسي ، ولم يحصل أي إخبار مسبق من جهة علام الغيوب.. وذلك لأن تلك الروايات كانت تتحدث عن أشخاص آخرين كانوا موجودين فعلاً ، وادعيت لهم المهدوية ، وغابوا في الشعاب والجبال والسجون، كمحمد بن الحنفية، ومحمد بن عبد الله بن الحسن (ذي النفس الزكية)، والإمام موسى الكاظم .. وقد حدث في ظل غيبتهم أن تفرق شيعتهم واختلفوا واحتراروا.. وقد صنع أصحابهم تلك الروايات من وحي الواقع ولأهداف خاصة ، وبالذات الشيعة الواقفية الذين كانوا يؤمنون ، بقوة ، بمهدوية الإمام الكاظم ، ولما اعتقله الرشيد قالوا بغيبته ، ولما توفي الإمام رفضوا الاعتراف بوفاته، وادعوا هروبه من السجن وغيبته غيبة كبرى لا يرى فيها، واعتبروا مرحلة السجن غيبة صغرى. وقد كانت الغيبة الكبرى أطول من الغيبة الصغرى ، لأنها امتدت وامتدت بلا حدود.

وكان الواقفية قد استعاروا أحاديث الغيبة، ممن سبقهم من الحركات المهدوية ، وطبقوها على الإمام الكاظم .

وإذا توقفنا عند الرواية التي يذكرها النعماني حول الغيبة ، والتي يقول عنها : " لو لم يكن يروى في الغيبة إلا هذا الحديث، لكان فيها كفاية لمن تأملها " لوجدنا أنها تتحدث عن الوفاة والقتل والذهاب، لإمام موجود ومعروف سابقاً.. بينما يحتاج هو (أي النعماني) أن يثبت وجود (الإمام محمد بن الحسن العسكري) أولاً، حتى يستطيع أن ينسب إليه تلك الأفعال لاحقاً.

لقد كان المتكلمون الإماميون في البداية (في القرن الثالث الهجري) يحاولون إثبات صحة فرضية (وجود الإمام الثاني عشر ابن الحسن) ولم يكونوا يتحدثون عن (المهدي والمهدوية). إذ أنهم كانوا بحاجة إلى إثبات وجود العرش قبل إثبات النقش.. ولكن الأزمة التي وقعوا فيها ، بعد القول بوجود (ابن الحسن) ، وهي :-(عدم ظهور الإمام للقيام بمهمات الإمامة) دفعتهم إلى البحث والتنقيب في تراث الفرق الشيعية القديمة كالكيسانية والواقفية، والتفتيش عن مخرج للأزمة والحيرة، ووجدوا في أحاديث المهدوية القديمة أفضل حل للخروج من أزمة عدم الظهور ، ودليلاً جديداً على إثبات فرضية (وجود ابن الحسن) في نفس الوقت.

ومن هنا فقد تطورت الفرضية التي كانت مهمة بإثبات (وجود الإمام الثاني عشر) إلى الحديث عن (مهدويته) وأصبح الحديث يدور حول (وجود الإمام المهدي الحجة ابن الحسن العسكري). وذلك انطلاقاً من حالة الفراغ والغيبية وعدم المشاهدة ، والاستنتاج منها: " إن الشخص المفترض انه الإمام والذي لا يُشاهد : هو المهدي صاحب الغيبة ، وإن سبب عدم مشاهدته هو : الغيبة!"

وإذا كان يصح الاستدلال بتلك الروايات على مهدوية الأئمة السابقين المعروفين، الذين غابوا في السجون أو الشعاب أو في سائر أنحاء الأرض ، فإنه لا يمكن الاستدلال بها على صحة فرضية (وجود ابن الحسن) .. وذلك لأن وجوده كان موضع شك واختلاف بين أصحاب الإمام العسكري، وإن عملية الاستدلال بها على (مهدوية ابن الحسن) بحاجة أولاً إلى الاستدلال على وجوده وإثبات ذلك، قبل الحديث عن إمامته ومهدويته وغيبته وما إلى ذلك.

إن الاستدلال بالغيبية على الوجود ، بدون إثبات ذلك من قبل ، يشبه عملية الاستدلال على وجود ماء في إناء ، بالقول : " إن الماء لا رائحة له ولا لون.. ونحن لا نشم رائحة ولا نرى لونا في هذا الإناء.. إذن فإن فيه ماء !".

وإذا كان ذلك لا يجوز، إلا بعد إثبات وجود شيء سائل في الإناء ، ثم القول : " إن هذا السائل ليس له لون ولا رائحة.. فإذاً هو ماء " ، فإن عملية إثبات وجود (ابن الحسن) ، كذلك تحتاج أولاً إلى إثبات وجوده وإمامته ومهدويته.. ثم إثبات غيبته ، لا إن يتم عكس الاستدلال ، فيُتخذ من المجهول والعدم و (الغيبة) دليلاً على إثبات الوجود والإمامة والمهدوية لشخص لا يزال موضع بحث ونقاش!.

إذن فلا يمكن ، في الحقيقة ، الاستدلال بأحاديث (الغيبة) العامة والغامضة والضعيفة، على إثبات وجود (الإمام محمد بن الحسن العسكري) .

وقد حاول بعض المنظرين لموضوع (الغيبة) إن يستشهدوا بحديث الغيبتين الصغرى والكبرى، ليثبتوا صحة (فرضية وجود ابن الحسن). ولكن حكاية (الغيبتين) نفسها لم تثبت في التاريخ ، ولا يوجد عليها دليل سوى موضوع (النيابة الخاصة) التي ادعاها بعض الأشخاص ، وهي لم تثبت لهم في ذلك الزمان ، وكان الشيعة القائلون بوجود (ابن الحسن) يحتلفون فيما بينهم حول صحة ادعاء هذا الشخص أو ذاك بالنيابة الخاصة، التي كان قد ادعاها حوالي عشرين شخصا أكثرهم من الغلاة . ومن هنا فإن الحد الفاصل بين الغيبتين : الصغرى والكبرى، كان حداً وهمياً لم يثبت في التاريخ . ويلاحظ أن الاستشهاد بـ (الغيبتين) قد ابتدأه النعماني في منتصف القرن الرابع الهجري ، بعد انتهاء عهد (النواب الخاصين) ولم يشر اليه من سبقه من المؤلفين حول (الغيبة) الذين اكتفوا بالإشارة إلى الغيبة الواحدة . وذلك لأنهم لم يعرفوا من قبل بحدوث غيبتين.

وقد اعترف السيد المرتضى علم الهدى والشيخ الطوسي، لدى الحديث عن أسباب الغيبة، أن من الضروري أولاً: بحث موضوع الوجود والإمامة لـ : (ابن الحسن العسكري) ، قبل الحديث عن الغيبة وأسبابها. وقالوا: " إن من شك في إمامة ابن الحسن يجب أن يكون الكلام معه في نص إمامته ، والتشاغل بالدلالة عليها ، ولا يجوز مع الشك فيها أن نتكلم في سبب الغيبة ، لأن الكلام في الفرع لا يسوغ إلا بعد إحكام الأصول" .^{٣٠٨}

دليل "الإثني عشرية"

وهذا دليل متأخر .. بدأ المتكلمون الإماميون يستخدمونه بعد أكثر من نصف قرن من الحيرة ، أي في القرن الرابع الهجري ، ولم يكن له أثر في القرن الثالث، عند الشيعة الإمامية ، حيث لم يشر اليه الشيخ علي بن بابويه الصدوق في كتابه: (الإمامة والتبصرة من الحيرة) كما لم يشر اليه النوبختي في كتابه: (فرق الشيعة) ولا سعد بن عبد الله الأشعري القمي في: (المقالات والفرق) .. وذلك لأن النظرية (الاثني عشرية) طرأت على الإمامية في القرن الرابع ، بعد ان كانت النظرية الإمامية ممتدة إلى آخر الزمان، بلا حدود ولا حصر في عدد معين ، كما هو الحال عند الشيعة الإمامية الإسماعيلية والزيدية .. لأنها كانت موازية لنظرية الشورى وبديلاً عنها .. فمادام في الأرض مسلمون ويحتاجون إلى دولة وإمام ، وكان محرمًا عليهم اللجوء إلى الشورى والانتخاب ، كما تقول النظرية الإمامية، كان لا بد أن يعين الله لهم إماماً معصوماً منصوباً عليه .. فلماذا إذن يحصر عدد الأئمة في اثني عشر واحداً فقط؟

^{٣٠٨} - الطوسي، تلخيص الشافي ، للمرتضى، ج ٤ ، ٢١٣

من هنا لم يكن الاماميون يقولون بالعدد المحدود في الأئمة ، ولم يكن حتى الذين قالوا بوجود (الإمام محمد بن الحسن العسكري) في البداية ، يعتقدون أنه خاتم الأئمة ، وهذا هو النوبختي يقول في كتابه (فرق الشيعة): "إن الإمامة ستستمر في أعقاب الإمام الثاني عشر الى يوم القيامة".^{٣٠٩}

وتشير روايات كثيرة يذكرها الصفار، والكليني ، والحميري ، والعياشي ، والمفيد ، والحر العاملي ، وغيرهم.. وغيرهم .. الى ان الأئمة أنفسهم لم يكونوا يعرفون بحكاية القائمة المسبقة المعدة منذ زمان رسول الله (ص) ولم يكونوا يعرفون بإمامتهم ، أو بإمامة الإمام اللاحق من بعدهم ، إلا قرب وفاتهم ، فضلا عن الشيعة أو الإمامية أنفسهم ، الذين كانوا يقعون في حيرة واختلاف بعد وفاة كل إمام ، وكانوا يتوسلون لكل إمام ان يعين اللاحق بعده ويسميه بوضوح لكي لا يموتوا وهم لا يعرفون الإمام الجديد.^{٣١٠} حيث يروي الصفار في (بصائر الدرجات) باب: ان الأئمة يعلمون الى من يوصون قبل وفاتهم مما يعلمهم الله ، حديثا عن الإمام الصادق يقول فيه: " ما مات عالم حتى يعلمه الله الى من يوصي ".^{٣١١} ، كما يرويه الكليني في (الكافي) عنه أيضا : " لا يموت الإمام حتى يعلم من بعده فيوصي اليه ".^{٣١٢} وهو ما يدل على عدم معرفة الأئمة، من قبل، بأسماء خلفائهم ، أو بوجود قائمة مسبقة بهم . وقد ذهب الصفار والصدوق والكليني ابعده من ذلك، فرووا عن أبي عبد الله الصادق ، انه قال: " ان الإمام اللاحق يعرف إمامته وينتهي اليه الأمر، في آخر دقيقة من حياة الأول".^{٣١٣}

ونتيجة لذلك فقد طُرحت عدة أسئلة في حياة أهل البيت ، وهي : كيف يعرف الإمام إمامته إذا مات أبوه بعيدا عنه في مدينة أخرى؟ وكيف يعرف انه إمام، إذا كان قد أوصى الى جماعة؟ أو لم يوصَ أبداً؟ وكيف يعرف الناس أنه أصبح إماماً؟.. خاصة إذا تنازع الاخوة الإمامة وادعى كل واحد منهم الوصية؟ كما حدث لعدد من الأئمة في التاريخ؟

^{٣٠٩} - النوبختي، فرق الشيعة، الفرقة التي قالت بوجود ولد للعسكري.

^{٣١٠} - راجع: بصائر الدرجات، لصفار، والكافي للكليني، وقرب الإسناد للحميري ، وتفسير العياشي، والإرشاد

للمفيد، وإثبات الهداة للحر العاملي.

^{٣١١} - الصفار ، بصائر الدرجات ، ص ٣٧٤

^{٣١٢} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٢٧٧

^{٣١٣} - الصفار، بصائر الدرجات، ص ٤٧٨، والصدوق، الإمامة والتبصرة من الحيرة، باب ١٩، ص ٨٤ ، والكليني،

الكافي، ج ١ ، ص ٢٧٥

روى الكليني حديثاً عن أحد العلويين الملتزمين بنظرية الإمامة، هو عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ، قال: " قلت لأبي عبد الله: إن كان كوثٌ ، ولا أراني الله ذلك ، فبمن أأتم؟ .. قال فأومأ الى ابنه موسى ، قلت: فان حدث بموسى حدث فبمن أأتم؟ قال : بولده ، قلت: فان حدث بولده حدث وترك أخا كبيراً وابناً صغيراً فبمن أأتم؟ قال: بولده، ثم قال: هكذا أبداً . قلت: فان لم اعرفه ولا اعرف موضعه؟ قال : تقول: اللهم إني أتولى من بقي من حججك من ولد الإمام الماضي ، فان ذلك يجزيك ان شاء الله " .^{٣١٤} وهذا الحديث يدل على عدم وجود قائمة مسبقة بأسماء الأئمة من قبل، وعدم معرفة علوي إمامي مثل عيسى بن عبد الله بها ، وإمكانية وقوعه في الحيرة والجهل . ولو كانت القائمة موجودة من قبل لأشار الإمام الصادق اليها.

وبسبب غموض هوية الأئمة اللاحقين لجماهير الشيعة والإمامية ، فقد كانوا يسألون الأئمة دائماً عن الموقف الواجب اتخاذه عند وفاة أحد الأئمة. وفي هذا المجال ينقل الكليني وابن بابويه والعياشي حديثاً عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله ، قال: " قلت له: إذا حدث للإمام حدث كيف يصنع الناس؟ قال: يكونوا كما قال الله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة، ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم ، لعلهم يحذرون) التوبة ١١٢ ، قلت : فما حالهم ؟ .. قال: هم في عذر ما داموا في الطلب ، وهؤلاء الذين ينتظروهم في عذر حتى يرجع اليهم أصحابهم " .^{٣١٥}

وهناك رواية أخرى مشابهة عن زرارة بن أعين، الذي ابتلي بهذه المشكلة ومات بُعيد وفاة الإمام الصادق ، ولم يكن يعرف الإمام الجديد، فوضع القرآن على صدره وقال: " اللهم اشهد إني أثبت من يقول بإمامته هذا الكتاب " .^{٣١٦} وقد كان زرارة من اعظم تلاميذ الإمامين الباقر والصادق ، ولكنه لم يعرف خليفة الإمام الصادق، فأرسل ابنه عبيد الله الى المدينة، لكي يستطلع له الإمام الجديد ، فمات قبل ان يعود اليه ابنه، ومن دون ان يعرف من هو الإمام ؟^{٣١٧}

^{٣١٤} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٠٩

^{٣١٥} - الصدوق، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ٧٧ ، والكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٧٨، وتفسير العياشي، ج ٢ ، ص ١١٧ ،

^{٣١٦} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٧٤

^{٣١٧} - المصدر، ص ٧٦

وتقول روايات عديدة يذكرها الكليني والمفيد والطوسي : ان الإمام الهادي أوصى في البداية الى ابنه السيد محمد ، ولكنه توفي في حياة أبيه ، فأوصى للإمام الحسن وقال له: " لقد بدا لله في محمد كما بدا في إسماعيل.. يا بني أحدث لله شكراً فقد أحدث فيك أمراً ، أو نعمة" .^{٣١٨}

وإذا كانت روايات القائمة المسبقة بأسماء الأئمة الاثني عشر، صحيحة وموجودة من قبل ، فلماذا لم يعرفها الشيعة الامامية الذين اختلفوا واحتاروا بعد وفاة الإمام الحسن العسكري ، ولم يشر اليها المحدثون أو المؤرخون الامامية في القرن الثالث الهجري؟

ان نظرية (الاثنا عشرية) لم تكن مستقرة في العقل الامامي حتى منتصف القرن الرابع الهجري .. حتى أن الشيخ محمد بن علي الصدوق أبدى شكه بتحديد الأئمة في اثني عشر إماماً فقط ، وقال: "لسنا مستعبدين في ذلك إلا بالإقرار باثني عشر إماماً ، واعتقاد كون ما يذكره الثاني عشر بعده" .^{٣١٩}

ونقل الكفعمي في (المصباح) عن الإمام الرضا ، الدعاء التالي حول (صاحب الزمان) : "... اللهم صل على ولاة عهده والأئمة من بعده" .^{٣٢٠}

وروى الصدوق عدة روايات حول احتمال امتداد الإمامة بعد الثاني عشر، وعدم الاقتصار عليه ، وكان منها رواية عن الإمام أمير المؤمنين (ع) حول غموض الأمر بعد القائم ، وان رسول الله (ص) قد عهد اليه : " ان لا يخبر أحداً بذلك إلا الحسن والحسين " ، وانه قال: " لا تسألوني عما يكون بعد هذا ، فقد عهد إليّ حبيبي ان لا اخبر به غير عترتي " .^{٣٢١}

وروى الطوسي : ان رسول الله (ص) قال لعلي: " يا علي انه سيكون بعدي اثنا عشر إماماً، ومن بعدهم اثنا عشر مهدياً ، فأنت يا علي أول الاثني عشر الإمام ... م يكون من بعده اثنا عشر مهدياً" .^{٣٢٢}

^{٣١٨} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٢٦ و ٣٢٨ والمفيد، الإرشاد، ص ٣٣٦ و ٣٣٧ والطوسي، الغيبة، ص ١٢٠ ،

١٢٢

^{٣١٩} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٧٧

^{٣٢٠} - القمي، مفاتيح الجنان، ص ٥٤٢

^{٣٢١} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٧٨

^{٣٢٢} - الطوسي، الغيبة ، ص ٩٧

وعندما نشأت فكرة تحديد عدد الأئمة ، بعد القول بوجود وغيبة (محمد بن الحسن العسكري) ، كاد الشيعة الامامية يختلفون فيما بينهم حول تحديد عددهم باثني عشر أو ثلاثة عشر ، إذ برزت في ذلك الوقت روايات تقول : بأن عدد الأئمة ثلاثة عشر ، وقد نقلها الكليني في (الكافي).^{٣٢٣} و وجدت في الكتاب الذي ظهر في تلك الفترة ونُسب الى (سليم بن قيس الهلالي) ، حيث تقول إحدى الروايات: ان النبي قال لأمرير المؤمنين : " أنت واثنا عشر من ولدك أئمة الحق " . وهذا ما دفع هبة الله بن احمد بن محمد الكاتب ، حفيد أبي جعفر محمد بن عثمان العمري ، الذي كان يتعاطى (الكلام) لأن يؤلف كتابا في الإمامة ، يقول فيه : ان الأئمة ثلاثة عشر ، ويضيف الى القائمة المعروفة (زيد بن علي) كما يقول النجاشي في (رجاله) .

وقد ذكر المؤرخ الشيعي المسعودي (توفي سنة ٣٤٥ هـ) في (التنبيه والاشراف): " ان أصل القول في حصر عدد الأئمة باثني عشر ما ذكره سليم بن قيس الهلالي في كتابه " .^{٣٢٤}

وكان (كتاب سليم) هذا ، قد ظهر في بداية القرن الرابع الهجري ، وتضمن قائمة بأسماء الأئمة الاثني عشر ، التي يقول عنها : إنها كانت معروفة منذ عهد رسول الله ، وانه هو الذي قد أعلنها من قبل . وأدى ظهور هذا الكتاب الى تكوّن الفرقة (الاثني عشرية) في القرن الرابع الهجري.. ثم بدأ الرواة يختلفون الروايات شيئا.. فشيئا . ولم يذكر الكليني في (الكافي) سوى سبع عشرة رواية ، ثم جاء الصدوق بعده بخمسين عاما ليزيدها الى بضع وثلاثين رواية.. ثم يأتي تلميذه الخزاز ليجعلها مائتي رواية!^{٣٢٥}

المفيد يضعف كتاب سليم

وكان اعتماد الكليني والنعماني والصدوق في قولهم بالنظرية (الاثني عشرية) على كتاب سليم الذي وصفه النعماني : " بأنه من الأصول التي يرجع اليها الشيعة ويعولون عليها " ، ولكن عامة الشيعة في ذلك الزمان كانوا يشكون في وضع واختلاق كتاب سليم ، وذلك لروايته عن طريق (محمد بن علي الصيرفي أبو سمينة) الكذاب المشهور ، و (احمد بن هلال العبرتائي) الغالي الملعون ، وقد قال ابن الغضائري : " كان أصحابنا يقولون : ان سليماً لا يُعرف ولا ذكر له... والكتاب موضوع لا مزية فيه، وعلى ذلك

^{٣٢٣} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٥٣٤

^{٣٢٤} - المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ١٩٨ ، والأميني، الغدير، ج ١، ص ١٩٥

^{٣٢٥} - لمزيد من التفاصيل ، راجع كتاب (نقد الأحاديث الشيعية والسنية الواردة حول الإثني عشرية) للمؤلف ، والموجود على شبكة المعلوماتية (الانترنت) في موقع الكاتب . www.alkatib.co.uk

علامات تدل على ما ذكرنا " .^{٣٢٦} وقد ضعف الشيخ المفيد (كتاب سليم) وقال: " انه غير موثوق به ولا يجوز العمل على أكثره ، وقد حصل فيه تخليط وتدليس ، فينبغي للمتدين ان يتجنب العمل بكل ما فيه، ولا يعول على جملته والتقليد لروايته ، وليفزع الى العلماء فيما تضمنه من الأحاديث ليوقفوه على الصحيح منها والفاسد".^{٣٢٧} وانتقد الشيخ المفيد : الصدوق ، على نقله الكتاب واعتماده عليه، وعزى ذلك الى منهج الصدوق الأخباري ، وقال عنه: " انه على مذهب أصحاب الحديث، في العمل على ظواهر الألفاظ والعدول عن طرق الاعتبار، وهذا رأي يضرّ صاحبه في دينه، ويمنعه المقام عليه عن الاستبصار".^{٣٢٨}

ومن هنا فقد اعترض الزيدية على الامامية وقالوا: " ان الرواية التي دلت على ان الأئمة إثنا عشر، قولٌ أحدثه الامامية قريباً، وولّدوا فيه أحاديث كاذبة". واستشهدوا على ذلك بتفرق الشيعة بعد وفاة كل إمام الى عدة فرق وعدم معرفتهم للإمام بعد الإمام ، وحدث البداء في إسماعيل ومحمد بن علي، وجلس عبد الله الأبطح للإمامة، وإقبال الشيعة اليه، وحيرتهم بعد امتحانه، وعدم معرفتهم الكاظم حتى دعاهم الى نفسه ، وموت الفقيه زرارة بن أعين دون معرفته بالإمام .^{٣٢٩}

وقد نقل الصدوق اتهاماتهم للامامية بإحداث النظرية (الاثني عشرية) في وقت متأخر ، ولم ينفِ التهمة ولم يردّ عليها ، وإنما برّر ذلك بالقول: " ان الامامية لم يقولوا : ان جميع الشيعة بما فيهم زرارة كانوا يعرفون الأئمة الاثني عشر" ثم انتبه الصدوق الى منزلة زرارة وعدم إمكانية جهله بأي حديث من هذا القبيل ، وهو اعظم تلامذة الإمامين الباقر والصادق ، فتراجع عن كلامه وقال باحتمال علم زرارة بالحديث وإخفائه للتقية ، ثم عاد فتراجع عن هذا الاحتمال وقال: " ان الكاظم قد استوهبه من ربه لجهله بالإمام ، لأن الشاك فيه على غير دين الله".^{٣٣٠}

وهذا ما يناقض دعوى الخزاز في (كفاية الأثر) والطوسي في (الغيبة) بتواتر أحاديث (الاثني عشرية) عن طريق الشيعة، ويثبت أن لا أساس لها من الصحة ، في الأجيال الأولى، وخاصة في عهود الأئمة من

^{٣٢٦} - الحلي، الخلاصة، ص ٨٣

^{٣٢٧} - المفيد، أوائل المقالات وشرح اعتقادات الصدوق، ص ٢٤٧

^{٣٢٨} - المصدر نفسه، ص ٢٤٢

^{٣٢٩} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٧٥ - ٧٦

^{٣٣٠} - المصدر نفسه، ص ٧٦

آل البيت (ع) ، حيث لم يكن يوجد لها أي أثر ، خاصة وان الطوسي لم يذكر الكتب الشيعية القديمة التي زعم أنها تتحدث عن (الاثني عشرية). وقد تحرب الخزاز من مناقشة تهمة الوضع المتأخر ، وحاول ان ينفي تهمة الوضع من قبل الصحابة والتابعين وأهل البيت.^{٣٣١} في حين ان التهمة لم تكن موجهة الى الصحابة أو أهل البيت ، وإنما الى بعض الرواة المتأخرين الذين اختلقوا (كتاب سليم) في عصر الحيرة ، من أمثال: أبو سمينة و العبرثائي وعلي بن إبراهيم القمي.

أين الدلالة؟

هذا وان معظم الأحاديث التي تتحدث عن حصر الأئمة في اثني عشر، وكذلك جميع الأحاديث الواردة عن طريق السنة، لا تذكر أسماء الأئمة أو الخلفاء أو الأمراء بالتفصيل.. وان الأحاديث السنية بالذات لا تحصرهم في اثني عشر ، وإنما تشير الى وقوع المهرج بعد الثاني عشر من الخلفاء، كما في رواية الطوسي عن جابر بن سمرة. أو تتحدث عن النصر للدين أو لأهل الدين حتى مضي اثني عشر خليفة .^{٣٣٢}

ولو أخذنا بنظرية الشيعة الامامية الفطحية، الذين لا يشترطون الوراثة العمودية في الإمامة ، لأصبح الإمام الحسن العسكري هو الإمام الثاني عشر، بعد الإقرار بإمامة عبد الله الأفطح بن الصادق ، أو الاعتراف بإمامة زيد بن علي ، الذي اعترف به قسم من الامامية .

إذن .. فان الاستدلال بأحاديث (الاثني عشرية) العامة والغامضة والضعيفة ، دون وجود دليل علمي أو شرعي، على ولادة (محمد بن الحسن العسكري) هو نوع من الافتراض والظن والتخمين .. وليس استدلالا علميا قاطعا..

(لا بد من إمام حي ظاهر يُعرف!)

أما الدليل النقلي الأخير، القائل بضرورة وجود الإمام في كل عصر، وعدم جواز خلو الأرض من حجة.. فهو دليل ينقض نفسه بنفسه ، إذ ما معنى الإمام والحجة ؟ وما الفائدة منهما ؟ أ ليس لهداية الناس وإدارة المجتمع وتنفيذ الأحكام الشرعية؟ فكيف يمكن للإمام الغائب ، على فرض وجوده ، ان

^{٣٣١} - الخزاز ، كفاية الأثر، ص ٢٩٣

^{٣٣٢} - الطوسي، الغيبة، ص ٨٨ و ٨٩ ، والصدوق، إكمال الدين، ص ٢٧٤

يقوم بكل ذلك؟ .. وإذا كان الإمام الغائب يقوم بمهمة الإمامة والحجّة ، فلماذا شعر الفقهاء بالحاجة الى الإمام والحجّة في عصر الغيبة ؟

وإذا كان الهدف من وجوده هو إدارة الكون كما يقول بعض الغلاة ، فان الله سبحانه وتعالى لديه ملائكة كثيرون يقومون بذلك..

وقد رد الإمام علي بن موسى الرضا ، على الواقفية الذين قالوا بغيبة أبيه (الإمام الكاظم) : بأنه لا بد من أمام حي ظاهر يعرفه الناس ويرجعون اليه ! وقال: " ان الحجّة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام حيّ يُعرف " و " من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية.. إمام حيّ يعرفه.. وقد قال رسول الله (ص): من مات وليس له إمام يسمع له ويطيع مات ميتة جاهلية" .^{٣٣٣} وقال الإمام الرضا لأحد الواقفية: " مَنْ مات وليس عليه أمام حي ظاهر، مات ميتة جاهلية ، فسأله مستوضحا ومركزا على كلمة "إمام حي" فأكد له مرة أخرى : "إمام حي".^{٣٣٤}

إن منشأ هذه الفكرة ، هي المقدمة الأولى العقلية لنظرية الإمامة ، والمقصود منها : ضرورة وجود عموم الإمام (أي الرئيس) في الأرض ، وعدم جواز بقاء المجتمع بلا حكومة ، أية حكومة وأي أمام .. وإذا كانت قد تطورت الى ضرورة وجود (الإمام المعصوم المعين من قبل الله) فان الإصرار عليها والاستنتاج منها : وجود (الإمام محمد بن الحسن العسكري) واستمرار حياته الى اليوم ، هو أيضا نوع من الافتراض والظن والتخمين . فأين هو اليوم ذلك الإمام المعلم الهادي والمطبق لأحكام الله الذي يحافظ على الشريعة من الزيادة والنقصان؟

وحتى لو صحت تلك الأحاديث فقد يكون الإمام شخصا آخر .. إذا لم يكن المقصود به مطلق الإمام أو مطلق الحجّة والعالم بأحكام الدين .

المبحث الرابع

نقد الدليل التاريخي

المطلب الأول: تناقض الروايات

^{٣٣٣} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ١٧٧ ، والحميري، قرب الإسناد، ص ٢٠٣

^{٣٣٤} - المصدر نفسه

اعتقد ان القارئ العادي لا يحتاج الى ان يتجشم عناء درس علم الرواية والدراية حتى يقيم تلك الروايات "التاريخية" الواردة حول مولد (الإمام محمد بن الحسن العسكري) أو ان يكون من العلماء المختصين في التاريخ.. فان المؤلفين الذين أوردوا تلك الروايات في كتبهم، أراحوا أنفسهم من تهمة الاعتماد على هكذا روايات ضعيفة، وقالوا في البداية: "إننا نثبت وجود (الإمام الثاني عشر) بالطرق العقلية (أو الفلسفية أو الاعتبارية أو النظرية)، ولسنا بحاجة الى الروايات التاريخية، وإنما نأتي بها من باب الإسناد والتعضيد والتأييد". وألقوا عن أنفسهم عبأ المناقشة العلمية لتلك الروايات والتأكد من سندها والنظر الى متنها.

واعتقد انهم كانوا يوردونها من باب (الغريق يتشبث بكل قشة) وإلا فانهم اعرف الناس بضعفها وهزلها.. ولو كانت فرقة أخرى تستشهد بمثلها روايات على وجود أئمة لها، أو أشخاص من البشر.. لسخروا منها، واستهزؤوا بعقولها، واتهموها بمخالفة المنطق والعقل والظاهر.. كما فعل متكلمو الفرقة الاثني عشرية، في مناقشتهم لفريق من الشيعة الامامية الفطحية، الذين ادعوا وجود ولد مكتوم للإمام عبد الله الأفتح بن جعفر الصادق، وقالوا: ان اسمه محمد وانه المهدي المنتظر، وزعموا ولادته في السر واختبائه في اليمن.. وذلك اعتمادا على مبدأ ضرورة استمرار الإمامة في الأعقاب وأعقاب الأعقاب، وعدم جواز انتقالها الى أخوين بعد الحسن والحسين.. وقال الشيعة الاثنا عشرية عن ذلك الفريق من الشيعة الفطحية: انهم اخترعوا وجود شخص وهمي لا وجود له هو: (الإمام المهدي محمد بن عبد الله الأفتح) نتيجة لوصولهم الى طريق مسدود.

ان من يطلع على التراث الشيعي العلمي الضخم في مجال الرواية والدراية، ويرى اعتناء العلماء، منذ القرون الأولى، بتقييم الرواة ودراسة الأحاديث وغربلتها وتمييز القوي من الضعيف.. يدرك مدى الأهمية التي يوليها العلماء الشيعة لبناء الأحكام الشرعية على أسس علمية متينة، وعدم قبولهم ببناء مسائل الدين على الأوهام والفرضيات والإشاعات والأساطير. ولكن المراقب المحايد يصاب بالدهشة لإهمال العلماء طوال التاريخ لدراسة الروايات التاريخية الواردة حول إثبات ولادة ووجود (الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري) واعتمادهم في ذلك على قاعدة ما أنزل الله بها من سلطان، تقول: "الضعيف يقوي بعضه بعضا"، واعتبار مسألة الولادة والوجود أمراً مفروغاً منه مسلماً لا يحتاج الى مراجعة أو نقاش.. وهذا ما أدى بهم الى ترديد تلك الروايات بلا تمنع ولا تفكير.. تماماً كما كان يفعل غلاة الاخباريين.

ومن المعروف أن الاخباريين الأوائل كانوا يتلقفون كل رواية بلا دراسة ولا تمحيص.. ثم تطوروا فأخذوا يميزون بين الروايات. ثم ولدت الحركة الأصولية التي راحت تقسم الأحاديث الى صحيح وحسن

وقوي وضعيف.. إلا ان هذا التطور لم يشمل الروايات التاريخية الواردة حول موضوع (ولادة الإمام الثاني عشر) حيث نرى الشيخ الطوسي الذي ألف (الفهرست) و (الرجال) في علم الرجال ، ينقل تلك الروايات عن رجال يضعفهم في كتبه ، وذلك بسبب الحاجة الى تلك الروايات لبناء نظريات كلامية معينة.

لقد انفق محقق كبير معاصر مثل السيد مرتضى العسكري ، سنوات طويلة من عمره ، لكي يثبت في مجلدين أو ثلاثة: ان عبد الله بن سبأ أسطورة وهمية، اختلقها بعض المؤرخين لكي يتهم الشيعة بأخذ نظرية الوصية في الإمامة من الإسرائيليين. وبذل السيد العسكري جهودا مضنية ودرس عشرات الكتب التاريخية ، لكي ينفي قصة وجود عبد الله بن سبأ ودوره في الفكر الشيعي ، ولكنه لم يبذل واحدا بالمائة أو بالألف من تلك الجهود لبحث حقيقة (وجود الإمام الثاني عشر) أو يدرس تلك الروايات التي تحدث عن ولادته.. ولم يتوقف عندها في كتاب من كتبه ، وهو الذي اكتشف وجود (مائة وخمسين صحابي مختلف)!

بعد كل ذلك.. يمكنني القول بعدم وجود قضية مهمة أو معرض عنها في التراث الشيعي ، كقضية (وجود الإمام المهدي وولادته) ولا توجد قضية خارج البحث والاجتهاد مثل تلك القضية.. وعندما قمت بدراستها بالصدفة ، أو بالأحرى بتوفيق من الله تعالى ، وعرضت نتيجة دراستي على العلماء والمجتهدين والمفكرين لأكثر من خمسة أعوام ، وجدت الكثير منهم يتهرب من قراءة الدراسة ويمتنع نفسيا من مجرد البحث فيها ، كأنها تحاول ان توقظه من الاستغراق في حلم جميل.. وقد تأكدت من وجود حالة نفسية عقائدية تحول دون ممارسة البحث العلمي أو نقد تلك الروايات التاريخية ..

ان بعض المثقفين من عامة الناس يتلذذ بنقد عقائد الفرق الأخرى ، والاستهزاء برجالها الضعاف الوضاعين، ورواياتها غير المعقولة ، ولكنه عندما يواجه قضية مشابهة تخص طائفته، فانه يغمض عينيه، ويتذرع بالجهل وعدم الاختصاص، ويرفض ان يشغل عقله قليلا ، ويفضل ان ينام على ما ورثه من خرافات وأساطير.

وقبل ان نناقش تلك الروايات "التاريخية" متنا وسندا.. ينبغي ان نشير الى ان هذه الروايات لم تكن معروفة في فترة ما يسمى ب: (الغيبة الصغرى) حيث لم ينقلها المؤلفون الذين اعتقدوا بوجود الإمام الثاني عشر، وكتبوا حول ذلك في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، كالنوبختي في (فرق الشيعة) وسعد بن عبد الله الاشعري القمي في (المقالات والفرق) وعلي بن بابويه الصدوق في (الإمامة والتبصرة من الحيرة) ومحمد بن أبي زينب النعماني في: (الغيبة) وحتى الشيخ الكليني الذي حاول ان يجمع أية قصة أو

رواية حول الموضوع ، وذكر قصة الرجل الهندي (سعيد بن أبي غانم) الذي سافر من كشمير بحثا عن الإمام المهدي ، ولكنه لم يذكر كثيرا من تلك القصص التي سجلها من بعده بعشرات السنين، الشيخ محمد بن علي الصدوق في : (إكمال الدين) أو الشيخ المفيد في : (الإرشاد) و(الفصول المختارة) أو الشيخ الطوسي في (الغيبة).

ومن المعروف ان الشيخ الصدوق (الابن) جاء بعد حوالي مائة سنة من وفاة الإمام العسكري .. وان الشيخ الطوسي توفي بعد قرنين من ذلك التاريخ.. ولكنهما راحا يسجلان كل ما يسمعان من حكايات وإشاعات وأساطير تتعلق بولادة (محمد بن الحسن العسكري) ، ويرسلان أو ينقلان عن عدد من الغلاة والضعاف والمجاهيل والمختلقين .

وكما رأينا فقد كانت تلك "الأدلة التاريخية" تختلف فيما بينها اختلافا فاحشا وكبيرا بدءا من تحديد هوية أم (محمد بن الحسن) المفترضة ، ومرورا بتاريخ ولادته ، وانتهاء بأدق التفاصيل.. حيث اختلفت في اسم والدته بين الجارية نرجس ، أو سوسن ، أو صقيل ، أو خمط ، أو ربحانة ، أو مليكة، أو الحرة: مريم بنت زيد العلوية ، وأنها جارية ولدت في بيت بعض أخوات الإمام الهادي .. أو اشترت من سوق الرقيق في بغداد..

واختلفت تلك الروايات في تحديد تاريخ الولادة في اليوم والشهر والسنة.. واختلفت تبعا لذلك في تحديد عمره عند وفاة أبيه بين سنتين أو ثماني سنوات.

واختلفت في طريقة الحمل في الرحم أم في الجنب ، وفي الولادة من الفرج أم من الفخذ!

واختلفت الروايات في تحديد لونه بين البياض أو السمرة .

واختلفت في طريقة نموه بين الطريقة العادية المتعارفة، والقول بأنه كان يبدو عند وفاة أبيه بهيئة صبي ، وبين الطريقة اللاطبيعية .. واختلفت في هذه الطريقة بين النمو السريع في اليوم مثل النمو خلال سنة اعتيادية ، أو النمو في اليوم مثل النمو في أسبوع .. والنمو في الأسبوع مثل النمو خلال شهر.. والنمو في شهر مثل النمو خلال سنة. وبناء على ذلك فانه كان يبدو قبل وفاة أبيه بهيئة رجل كبير قد يبلغ سبعين عاما.. بحيث لم تتعرف عليه عمته حكيمة واستغربت من أمر الإمام الحسن لها بالجلوس بين يديه.

واختلفت تلك الروايات، في أمر التكميم عليه.. فقالت رواية: ان حكيمة ودعت الإمام الحسن في أعقاب ولادة ابنه، وانصرفت الى منزلها ، وعندما اشتاقت له بعد ثلاثة أيام رجعت ففتشت عنه في غرفته

فلم تجد له أثراً ولا سمعت له ذكراً ، فكرهت ان تسأل ودخلت على أبي محمد فبدأها بالقول: "هو يا عمّة في كنف الله ، أحرزه وستره حتى يأذن الله له، فإذا غيَّب الله شخصي وتوفاني ورأيت شيعتي قد اختلفوا فأخبري الثقة منهم، وليكن عندك مستوراً وعندهم مكتوماً ، فان ولي الله يغيبه الله عن خلقه ويحجبه عن عباده فلا يراه أحد حتى يقدم له جبرائيل فرسه" .

وقالت رواية أخرى: ان حكيمة كانت تشاهد ابن الحسن كل أربعين يوماً ، وإنها لم تنزل تراه الى ان اصبح رجلاً .

وقالت روايات أخرى : ان الإمام الحسن العسكري أعلن عن ولادة ابنه، وأرسل الى بعض أصحابه بكبش ليعقوا عنه ، وانه عرضه على مجموعة من أصحابه ، وانه كتب الى احمد بن إسحاق القمي بذلك.. وانه أخرج ابنه وأراه إياه عند زيارته له في (سر من رأى) وان عدداً من الخدم والأصحاب شاهدوا ، بالصدفة أو بالعمد، ابن الإمام الحسن ، وهو جالس في غرفة أو يمشي في الدار .

واختلفت الروايات بين ذكر الخوف من السلطة للقبض عليه، وبين الاطمئنان التام الى حد الخروج للصلاة على جثمان أبيه أمام الناس، واستقبال الوفود في دار أبيه.

واختلفت الروايات حول علم الأصحاب والخدم بوجود ابن للإمام العسكري ، فقال بعضها: بأن الخدم والأصحاب المقربين كانوا يعلمون بوجوده وانهم قد شاهدوه .. وقال بعضها: انهم فوجئوا به عند ظهوره للصلاة على جثمان أبيه وعدم معرفته إلا بالعلامات العديدة.

واختلفت الروايات حول نضجه العقلي ، فقال بعضها: انه سجد لحظة ولادته وتشهد بالشهادتين وصلى وسلم على آبائه وحداً واحداً وقرأ آيات من القرآن المجيد.. وقال بعضها: انه كان وهو غلام يلعب برمانة ذهبية ويصد أباه عن كتابة ما يريد!..

رواية حكيمة

تقول رواية الصدوق عن حكيمة: ان نرجس لم يكن بها أي أثر للحمل، وإنها لم تكن تعرف ذلك. وقد استغرقت عندما قالت لها حكيمة : أنها ستلد تلك الليلة ، وقالت يا مولاتي ما أرى شيئاً من هذا !.. وان حكيمة نفسها استغرقت عندما أخبرها الإمام الحسن بولادة ابن له في ليلة النصف من شعبان

وتساءلت : من أمه؟ وعندما قال لها : (نرجس) قالت: جعلني الله فداك ما بها أثر. وعندما اقترب الفجر ولم يظهر أي أثر دخل الشك الى قلب حكيمة .

وتقول الرواية: ان حكيمة أقبلت تقرأ القرآن على نرجس، فأجابها الجنين من بطن أمه ، يقرأ مثلما تقرأ ، وسلم عليها ، مما أثار فزعها. ومع ذلك تقول الرواية: ان حكيمة أخذتها فترة ولم تشهد عملية الولادة ، وفي رواية أخرى: ان نرجس غُيِّبَت عن حكيمة ، فلم ترها ، كأنه ضُربَ بينها وبينها حجاب ، مما أثار استغرابها ودفعها الى الصراخ واللجوء الى أبي محمد.

ولا تذكر رواية الصدوق ما ذكره الطوسي في إحدى رواياته من: ان حكيمة وجدت على ذراع الوليد مكتوبا : " جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا" الإسراء ٨١ ، بالرغم من تقدم الصدوق على الطوسي بحوالي مائة عام ، ولكن الصدوق ينفرد بذكر الطيور التي حلقت فوق رأس الوليد ، وقول الحسن لطير منها : احمله واحفظه ورده الينا في كل أربعين يوما.

ويتفق الاثنان (الصدوق والطوسي) على تكلم الوليد والتشهد بالشهادتين والصلاة على النبي والأئمة السابقين والسلام على أمه وأبيه ، كما يتفق الاثنان أيضا: على ان الوليد غاب بعد ذلك واختفى ، وان عمته لم تجد له أثرا ولا سمعت له ذكرا.

وكل هذه الأمور غريبة لم تعرف عن رسول الله (ص) ولا عن أحد من الأئمة السابقين (ع) .. وهي من مقولات الغلاة وأساطيرهم ، ولا علاقة لها بالشيعية الجعفرية أو الامامية الذين جعلوا النص طريقا للتعرف على الإمام الجديد ، ولم يذكروا شيئا من تلك الأمور الخارقة لللاطبيعية.

وقد ذكر الله عز وجل قصة تكلم النبي عيسى (ع) في المهد أمام الناس بصورة إعجازية لكي ينفي عن أمه تهمة الزنا ، ويثبت ولادته بصورة غير طبيعية ، وليست هناك حاجة لإحداث المعجزة والأمر الخارقة للعادة مع ولادة (الإمام الثاني عشر) . وإذا كان لا بد للمعجزة ان تحدث .. فلا بد ان تحدث أمام الناس لكي يطلعوا عليها ويؤمنوا برسالتها.. ولا يمكن ان تحدث بصورة سرية لا يطلع عليها أحد .. فما الفائدة منها؟

لقد كان هناك شك في أساس ولادة ابن للحسن العسكري ، وإذا كانت هناك إمكانية لحدوث أمر خارق للعادة ، فانه كان يمكن ان يحدث لإثبات أمر الولادة .. وحفظ الوليد من سوء مثلا.. وهذا ما لم يحدث.

ويلاحظ ان جميع الروايات التي تتحدث عن ولادته سرّاً وغيبته بين أجنحة الطيور التي هي الملائكة ، لم تشر الى وجود خوف من السلطة ، والى انه المهدي المنتظر.. ولو كان قد ولد حقاً لكان من الأفضل ان يعلن الإمام العسكري عن ولادته بحيث يراه جميع الناس ويتأكدوا من وجوده وخلافته لأبيه.. وإذا حاولت السلطة العباسية ان تلقي القبض عليه أو تقتله فانه يختفي بقدره الله وبصورة إعجازية..

وتقول الرواية المنسوبة الى حكيمة: ان الإمام الحسن العسكري كان يعلم بصورة غيبية بجنس الجنين وانه ذكر .. كما تقول : انه كان يعلم غيبيا بما تفكر به أخته حكيمة التي شكت في قوله ، وقال لها : لا تعجلي يا عمة. كما تشير الى علم الإمام الحسن باقتراب اجله وقوله لأخته : "عن قريب تفقدوني" وكذلك علم الإمام المهدي بالغيب وإجابته على أسئلة حكيمة قبل ان تبدأ بها .. وكل هذه أمور تخالف عقيدة الشيعة الجعفرية والامامية وتتفق مع نظريات الغلاة والمنحرفين عن أهل البيت، إذ ان هناك حديث مشهور لدى الشيعة عن أئمتهم : يأمر بضرب أي حديث يتعارض مع القرآن عرض الجدار .

إذن فان كل هذه التساؤلات والإشكاليات والمآخذ تضعف الرواية المنسوبة الى حكيمة ، وتسقطها عن الحجية والثوق وتقرب من كونها أسطورة حاكها الغلاة والمتطرفون.

رواية أبي الأديان البصري

وهي رواية انفرد بها الصدوق في : (إكمال الدين) عن رجل مختلق أو موهوم لم يذكر اسمه ولا اسم أبيه ولا عشيرته : (أبو الأديان البصري) وقال انه أحد خدام الإمام وحامل كتبه ورسوله الى الأمصار وجامع أمواله.. ومع ذلك فلم يعرفه أحد ولم يشر الى وجوده أي مؤرخ آخر. وبالرغم من المكانة العالية التي يعطيها إياه الصدوق، لكي يسوّق كلامه، فان الراوي (أبا الأديان) يعترف في نفس الرواية: بأن الإمام العسكري لم يخبره بهوية الإمام من بعده ، وجهله بوجود ابن للإمام ، ويقول أيضا: بأن عامة الشيعة بما فيهم عقيد والسمان (عثمان بن سعيد) والبصري نفسه عزوا جعفر بن علي وهنثوه ، ولم يكونوا يعرفون من هو الإمام بعد العسكري ، وأرادوا ان يصلوا خلف جعفر.

وتعتمد الرواية من بدايتها الى نهايتها على عنصر (علم الإمام بالغيب) حيث يقول الراوي في البداية: ان الإمام الحسن قال له: " امضي الى المدائن ، فانك ستغيب خمسة عشر يوما ، وتدخل الى (سر من رأى) يوم الخامس عشر، وتسمع الواعية في داري ، وتجديني على المغتسل". وكل ذلك من علم الغيب

الذي لا يعلمه إلا الله ، حيث يقول القرآن الكريم: " وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي ارض تموت " (لقمان ٣٤).

وتقول الرواية: ان الإمام القادم المجهول سوف يطالب البصري ، دون ان يعرفه من قبل، بجواب كتب الإمام العسكري ، كما تقول : بأنه سوف يخبر بما في الهميان . وان صبيّاً خرج بعد تكفين العسكري ودفع جعفر وصلى على أبيه ، ثم قال للبصري: هات جوابات الكتب التي معك ، فدفعها اليه . وفي تلك الأثناء جاء وفد من شيعة قم والجبّال فسألوا عن الإمام العسكري فأخبروهم بوفاته ، فقالوا: من نعزي؟ فأشار الناس الى جعفر بن علي ، فسلموا عليه وعزّوه وهنّئوه..

ولم يوضح البصري لماذا لم يدلّهم هو الى الإمام الجديد؟ ولماذا لم يشر قادة الشيعة الذين صلّوا ، لتوهم ، خلف الصبي ، اليه ، إذا كان قد حدث ذلك حقاً و فعلاً ؟.

وعلى أي حال فان الراوي (أبا الأديان البصري) يقول: ان وفد قم لم يعترضوا على تعيين جعفر كإمام بعد أخيه ، ولم يحتجوا بضرورة الوراثة العمودية ، وإنما قالوا بأن معهم كتباً وأموالاً، وطلبوا من جعفر ان يخبر بصورة غيبية ممن هي الكتب والأموال.. فقام جعفر ينفّض أثوابه ويقول: تريدون منا ان نعلم الغيب؟!.. فخرج الخادم (؟) وقال: معكم كتب فلان وفلان وهميان فيه ألف دينار وعشرة دنانير مطلية ، فدفعوا اليه الكتب والمال وقالوا: الذي وجه بك لأخذ ذلك هو الإمام .

ولم يقل الصدوق في هذه الرواية: ان وفد قم عرفوا هوية الإمام أو رأوه أو التقوا به . ولكنه يقول في رواية أخرى: ان الوفد سار مع الخادم ودخل على الإمام القائم وهو قاعد على سرير، كأنه فلقه قمر عليه ثياب خضر ، فسلم الوفد عليه ، ورد عليهم السلام ، ثم قال: جملة المال كذا وكذا.. حمل فلان كذا وحمل فلان كذا.. ولم يزل يصف حتى وصف الجميع ، ثم وصف رجال الوفد وثيابه وما كان معه من الدواب.

وبالرغم من أن المسألة ليست عسيرة جدا .. حيث يمكن لأي شخص ان يندس بين الوفد ويطلع على حاله، أو يتفق مع رئيس الوفد ويخبر البقية بالتفاصيل.. فان رواية أبي الأديان البصري تعتبر ذلك من علم الغيب ، وانه يشكل دلالة على إمامة الرجل (أو الصبي) القاعد على السرير ، وإمامته ، دون ان تقول كيف تعرف الوفد على هوية الرجل ، وهل قال لهم انه ابن الإمام العسكري ؟ أم لا ؟.

وكما هو واضح.. فان هذه الرواية لا تذكر شيئاً عن الخوف والإرهاب المحيط بالشيعة والإمام الجديد ، بل تقول ان الخليفة العباسي المعتمد، وقف الى جانب الوفد في خلافهم مع جعفر، وانه أرسل لهم

حرسا يحمونهم في الطريق. وتنسى الرواية التي تقول : ان السلطات العباسية كبست دار الإمام العسكري وفتشته بحثا عن وجود ولد له.

وإذا كان الإمام فعلا خائفا ومتكتما ومستورا فلماذا يخرج للصلاة على أبيه؟ ولماذا يجلس في بيته في سامراء ، ويستقبل الوفود على مقربة من عيون السلطة؟

هذا وان المعروف والثابت تاريخيا ان أبا عيسى المتوكل هو الذي صلى على جثمان الإمام العسكري وشيعته عاصمة الخلافة (سّر من رأى) التي أغلقت أبوابها عن بكرة أبيها وضجت بالبكاء والعيول .

ويبدو ان هذه الحكاية قد نشأت في قم في مرحلة متقدمة ، لإثبات وجود خلف للإمام العسكري .. قبل ان تتطور وتنشأ نظرية مهدوية ذلك الخلف .. وذلك لأن مسألة إثبات الخلف تختلف وتسبق زمنا مسألة إثبات صفة المهدوية له ، وقد كان الناس مشغولين في البداية بإثبات المسألة الأولى ، ولم تنشأ المسألة الثانية (المهدوية) إلا في وقت متأخر بعد سنين طويلة ، انطلاقا من حالة الغيبة وعدم الوجدان للإمام ، فاعتبر البعض ذلك علامة من علامات المهدي وقال : إذن فانه المهدي المنتظر.

ومن هنا فان واضعي الحكاية لم يأخذوا في حسابهم الخوف من السلطات وتفتيش الشرطة عنه ، فتحدثوا عن خروج الصبي للصلاة على أبيه ، واستقبال الوفود في داره.

وقد ذكرنا الى جانب تلك الرواية، روايتين أخريين، هما رواية إسماعيل بن علي النوبختي، الذي يقول: انه زار الإمام العسكري قبيل ساعة من وفاته ، فطلب الإمام من خادمه (عقيد) ان يأتيه بابنه ، وانه جاء به اليه، فقال له: "أبشر يا بني فأنت صاحب الزمان"... ورواية: المجموعة من الأصحاب الذين قالوا: ان الإمام العسكري عرض عليهم ابنه وقال لهم: "هذا إمامكم من بعدي وخليفتي عليكم.. أما إنكم لا ترونه بعد يومكم هذا".

والرواية الأولى تتناقض مع رواية أبي الأديان البصري، الذي يقول فيها: ان (عقيد) كان يجهل وجود ولد للإمام العسكري ، ولذلك طلب من أخيه جعفر ان يصلي عليه ، بينما تقول الرواية الأولى: ان (عقيد) جاء بالصبي لأبيه أمام إسماعيل بن علي النوبختي.

ومن الجدير بالذكر ان النوبختي لا يشير بنفسه الى هذه القصة ويقول: انه عرف بوجود ابن للحسن عن طريق الاستدلال النظري.^{٣٣٥}

أما الرواية الثانية فتتناقض أيضا مع رواية أبي الأديان البصري التي تنفي معرفة كبار الأصحاب بوجود ابن للحسن العسكري ، بما فيهم السمان (عثمان بن سعيد العمري) و(حاجز الوشاء) الذي تساءل من جعفر : من الصبي لنقيم عليه الحجة؟ فقال: والله ما رأيته قط ولا اعرفه!

ومن المعروف .. ان السمان العمري وحاجز الوشاء ادعيا (النيابة الخاصة والوكالة عن الحجة ابن الحسن) بعد ذلك ، فمتى رأوه؟ ومتى اخذوا الوكالة منه؟

وهناك نقطة أخرى: هي ان الرواية الثانية تقول: ان الإمام العسكري قال لأصحابه بعد ان عرض عليهم ابنه: "أما إنكم لا ترونه بعد يومكم هذا" .. فكيف ظهر بعد ذلك وصلى على جثمان أبيه واستقبل الوفود؟

وكل هذه الروايات تتناقض مع الرواية الأولى المروية عن حكيمة، والتي يقول فيها الإمام العسكري: إنها لن تراه بعد يوم ولادته ، حيث تعود كل رواية فتنقض الرواية السابقة.

وهذا ما يدل على ان الفريق الذي اخترع وجود ولد للإمام العسكري ، خلافا للظاهر والحقيقة.. وبناء على مقولات فلسفية واهية، كعدم جواز انتقال الإمامة الى أخوين بعد الحسن والحسين وضرورة استمرار الإمامة في الأعقاب وأعقاب الأعقاب.. ان هذا الفريق راح يخلق القصص والحكايات والأساطير عن مولد ابن الحسن ، واللقاء به في حياة أبيه ومشاهدته عند وفاته.

ولما كانت الروايات مختلفة ، ولا تعبر عن الحقيقة ، ومصنوعة من قبل رجال مختلفين، فقد جاءت متناقضة ومختلفة في أدق التفاصيل ، وتعبر كل واحدة منها عن أفكار واضعها النفسية الخاصة ، كما جاءت مخفوفة بالمعاجز والأمور الخارقة للعادة ، ومنطوية على دعوى علم الأئمة بالغيب ، وهذه دعوى تناقض القرآن الكريم الذي يصرح: "قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله" النمل ٦٥ ، ويقول: "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول" الجن ٢٧ .. وتحاول تفسير ظاهرة الغيبة المحيرة والمناقضة لنظرية الإمامة الإلهية واللطيف الإلهي .

^{٣٣٥} - كما ينقل عنه الصدوق في ، إكمال الدين، ص ٩٢ عن كتاب النوبختي: (التنبية).

ان الرواية التاريخية الظاهرية تقول: ان الإمام الحسن العسكري لم يشر الى وجود ولد له ، وعندما أحسن بالوفاة استدعى القاضي ابن أبي الشوارب ، وأوصى أمامه بأمواله وممتلكاته الى أمه (حديث) ، وقد ادعت ، بعد وفاته، جارية له اسمها (نرجس) بأنها حامل منه ، أملا في عتقها ، لأنها كانت ستصبح (أم ولد) وتعتق من نصيب ابنها .. وربما كانت الدورة الشهرية قد تأخرت عليها فظنت نفسها أنها حامل.. وقد أرجأ القاضي قسمة التركة واهتم بالجارية ، ونقلها الى نساء الخليفة المعتمد ، وأمر باستبرائها ، أي التحقق من ادعائها الحمل.. ثم لم يتبين عليها أي شيء .

وكان بعض الشيعة الامامية الذين لم يقولوا بإمامة جعفر بن علي ، قد أصيبوا بأزمة فكرية وحيرة، فتشبت بعضهم بـ : " قشة نرجس " ، وقال: إنها ولدت بعد ذلك.. وقال بعضهم: إنها لم تلد ولم نر ذلك .. ولكنها سوف تلد عندما يأذن الله في المستقبل ، وان الجنين بقي في بطنها مدة طويلة بصورة إعجازية.. وقال بعض آخر: إنها ادعت الحمل للتغطية على ولدها الذي ولدته من قبل.. وقال آخرون أقوالاً أخرى مشابهة .

وراح الذين ادعوا وجود الولد من قبل ، ينسجون الإشاعات والأساطير، بصورة سرية خافتة، ليضلوا بها البسطاء ويستفيدوا من ورائها الأموال.. ولم يصدق العلماء والمحققون الأوائل بتلك الإشاعات.. ثم جاء الشيخ الصدوق بعد مائة عام ، والشيخ الطوسي بعد مائتي عام ، ليسجلوا تلك القصص والأساطير، دون ان يحققوا بمصادرها وإسنادها ، ودون ان يعتمدوا عليها كثيرا.. وكانوا يشعرون بضعفها وهزلها، فقالوا في البداية : إننا نعتمد على الدليل العقلي (الفلسفي) لإثبات وجود (ابن الحسن) ونأتي بتلك القصص من باب المعاضدة والتأييد..

ثم جاء من بعدهم من المؤرخين (الاخباريين) فنقلوا تلك القصص الأسطورية كأنها حقائق تاريخية لا تقبل المناقشة والحوار.

ومع ان الله سبحانه وتعالى يطالبنا بالأخذ بالرواية الظاهرية النافية لوجود ولد للإمام الحسن العسكري ، ولا يحاسبنا ولا يسألنا بالأخذ بالرواية السرية الباطنية المتناقضة والمحفوفة بالخرافات والأساطير ..

وإننا لسنا بعد ذلك ، وبعد ما تبين ما فيها من ضعف كبير، بحاجة الى دراسة سندها ومعرفة الرواة الناقلين لها.. فإننا بالرغم من ذلك سوف نلقي نظرة على سندها، لننظر من أين جاء بها الأموي المؤرخون ، ولنزداد معرفة و يقينا بضعف هذه الروايات التي لعبت دورا كبيرا في التاريخ الإسلامي وفي بناء الفكر السياسي الشيعي عبر التاريخ.

المطلب الثاني: تقييم سند الروايات التاريخية

قبل ان ندخل في دراسة سند تلك الروايات التاريخية ، لا بد ان نشير الى ان بعض العلماء الذين كتبوا حول (الإمام المهدي) أهملوا تلك الروايات ولم يعتمدوا عليها ، كما فعل الشهيد السيد محمد باقر الصدر في كتابه (بحث حول المهدي) ولكنه اعتمد على دعوى (النواب الأربعة) الذين ادعوا النيابة الخاصة والوكالة عن (الإمام المهدي) واستبعد ان يكذب هؤلاء في دعواهم اللقاء بالإمام ، وبني، بناء على ذلك ، على صحة وجود وولادة الإمام المهدي ، وراح يفسر بعد ذلك ، فلسفة الغيبة، ويثبت إمكانية العمر الطويل.

وهناك من يعتمد على المشايخ الكبار الذين رروا تلك الروايات ، كالشيخ الكليني والصدوق والطوسي والمفيد، ويستبعد كذبهم أو اعتمادهم على رواة ضعاف وروايات ضعيفة.

وبالرغم من وجود عمليات تزوير وتلاعب في الكتب القديمة والحديثة ، فلم أر من يتوقف لكي يدرس تلك الكتب ويتأكد من صحتها..

وعموما اعتقد : ان من الضروري في البحث العلمي التأكد :

أولاً: من صحة نسبة الكتب التاريخية المعروفة ك: (الغيبة) و(إكمال الدين) و(الإرشاد) و(الفصول المختارة) الى أصحابها، والتأكد من عدم إضافة أو نقصان أو تحوير أي شيء منها .. وهذا أمر عسير غير ممكن.. حيث لا توجد في التراث الشيعي من الكتب (الصحيحة) ، أي ما صح نسبتها الى مؤلفيها ، سوى كتب الحديث الأربعة: (الكافي، ومن لا يحضره الفقيه، والتهذيب، والاستبصار) التي رواها العلماء واحدا عن واحد.

ثم لا بد ثانيا: من دراسة مؤلفيها ومدى دقتهم وضبطهم . وهذا أمر ممكن وليس بعسير.

ثم لا بد من دراسة سلسلة الرواة الذين ينقلون عنهم ، والتأكد من وجودهم وصدقهم وضبطهم.. فان بعض الرواة لا وجود لهم ، أي انهم أشخاص وهميون مختلفون ، وبعضهم غلاة كذابون وضاعون ، وذلك حسبما يقول علماء الرجال الشيعة الامامية الاثنا عشرية ، كالطوسي والنجاشي والكشي وابن الغضائري وغيرهم.

وهناك بعض الرواة الذين اجمع علماء الرجال (الاماميون الاثنا عشريون) على وثاقتهم وصدقهم والأخذ عنهم.. ولكن بقية الفرق الامامية والشيعة والإسلامية لا تعترف بذلك، وتشك بصدقهم ، وذلك كالنواب الأربعة، وغيرهم ممن ادعى رؤية (الإمام المهدي) واللقاء به واخذ الوكالة عنه.

وان أية دراسة لسند الروايات التاريخية، التي تثبت ولادة ووجود (الإمام المهدي) ، ينبغي ان تدرس الظروف الموضوعية المحيطة بمؤلاء (النواب) ، وتعيد النظر في وثاقتهم وصدقهم.. كما أعاد الشيعة النظر في كثير من أصحاب الإمام الكاظم ، الذين وقفوا عليه وقالوا بغيبته ومهدويته ، رغم وثاقتهم وصدقهم.. وتوقفوا على الأقل في رواياتهم التي يتحدثون فيها عن استمرار حياة الإمام الكاظم.. بعد ان اتهموهم بجر النار الى قرصهم ، والاستفادة ماديا من دعوى مهدوية الإمام الكاظم وغيبته واللقاء به.

وقد اعتاد المؤرخون والمؤلفون عن (الإمام المهدي) ان يسلّموا بوثاقة (النواب الأربعة) ويصدقوا برواياتهم عن مشاهدة (الإمام المهدي) واستلام (التوقييع) منه .. وهذا نوع من الانحياز المسبق والتسليم الأعمى والتصديق الساذج ، لرجال متهمين باختلاق القصة من أساسها ، واستغلالها لتحقيق مكاسب مادية شخصية.

ولقد كان الشك موجودا في حياتهم.. حيث كان الشيعة يشكون بصدق دعواهم في (النيابة) ويتساءلون عن مصير الأموال التي يجبوها باسم (الإمام المهدي) ، وكان بعض أدعياء النيابة يكذب بعضا ، ويتهم كل فريق منهم الفريق الآخر بالدجل والشعوذة.

ولا يوجد ما يثبت صحة دعوى (النواب الأربعة) من بين اكثر من عشرين شخصا كان يدعي (النيابة الخاصة) في تلك الأيام ، سوى مجموعة إشاعات عن قيام النواب بالمعاجز وعلمهم بالغيب ، وهذه أمور ذكرها المؤرخون (الكليني والصدوق والطوسي والمفيد) في كتبهم وصدقوا حدوثها بالنسبة لبعض (النواب) ورفضوا تصديقها بالنسبة الى البعض الآخر.

وإذا رفضنا قبول حكايات المعاجز والعلم بالغيب ، التي ادعاها (النواب الأربعة) أو روجها عنهم أنصارهم.. فلا يبقى لدينا ما نستدل به على صدقهم وتمييزهم عن سائر المدعين الكذابين ، لأن الجميع متهم بجر النار الى قرصه .

ومن هنا سوف ندرس سلسلة رواة القصص التاريخية التي تتحدث عن ولادة ووجود ومشاهدة (الإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري) دراسة محايدة ، ونعتمد أساساً على تضعيف علماء الرجال الشيعة الامامية الاثني عشرية .. وإذا كان لدينا رأي خاص حول رجل معين فسوف نقدم أدلتنا الخاصة حوله.

رواية حكيمة

ينقل الصدوق قصة ولادة (صاحب الزمان) عن محمد بن الحسن بن الوليد، قال: حدثنا محمد بن يحيى العطار ، قال: حدثنا أبو عبد الله الحسين بن رزق الله ، قال: حدثني موسى بن محمد القاسم ، قال : حدثني حكيمة...^{٣٣٦}

والحسين بن رزق الله ، شخص مجهول ، أو مختلق لا وجود له في تراجم الرجال ، أما موسى بن محمد فهو مهمل .

وفي بعض النسخ يوجد (الحسين بن عبيد الله) بدلا من (أبو عبد الله الحسين) ، وهو من يطعن فيه النجاشي ويتهمه بالغلو.

وفي رواية أخرى ، ينقل الصدوق القصة عن الحسين بن أحمد بن إدريس ، قال: حدثنا أبي ، قال: حدثنا محمد بن إسماعيل ، قال: حدثني محمد بن إبراهيم الكوفي ، قال: حدثنا محمد بن عبد الله الطهوي ، عن حكيمة...

وتختلف النسخ الموجودة من (إكمال الدين) في اسم الطهوي ، ففي بعضها: الظهري ، وفي بعضها الزهري ، وفي بعضها: المطهري ، وفي بعضها: الطهري.. ولا يوجد أي ذكر لهذا الرجل في تراجم الرجال ، مما يحتمل اختلاقه من قبل بعض الرواة ، وعلى أي حال .. فهو مجهول.

أما الشيخ الطوسي فينقل القصة في (الغيبة) عن عمه الإمام العسكري ، ويسمّيها (خديجة) بدلا من (حكيمة).^{٣٣٧}

وينقل القصة مرة أخرى ، عن ابن أبي جيد ، عن محمد بن الحسن بن الوليد ، عن الصفار محمد بن الحسن القمي ، عن أبي عبد الله المطهري عن حكيمة، التي تذكر ان اسم والدته ابن الحسن (سوسن) وليس (نرجس) كما في رواية الصدوق.

وينقل القصة أيضا برواية ثالثة، عن ابن جيد ، عن محمد بن الحسن بن الوليد، عن محمد بن يحيى العطار، عن محمد بن حمويه الرازي ، عن الحسين بن رزق الله ، عن موسى بن محمد..

^{٣٣٦} - الصدوق ، إكمال الدين، ص ٤٢٤

^{٣٣٧} - الطوسي ، الغيبة ، ص ١٣٨ - ١٤٦

وفي رواية رابعة ، ينقلها الطوسي عن احمد بن علي الرازي ، عن محمد بن علي ، عن علي بن سميع بن بنان ، عن محمد بن علي بن أبي الداري ، عن احمد بن محمد ، عن احمد بن عبد الله ، عن احمد روح الاهوازي ، عن محمد بن إبراهيم ، عن حكيمة ، بمثل معنى الحديث الأول ، إلا انه قال: قالت بعث اليّ أبو محمد ، ليلة النصف من رمضان ، وليس من شعبان.

وفي رواية خامسة ، ينقلها الطوسي عن احمد بن علي الرازي ، عن محمد بن علي ، عن حنظلة بن زكريا ، قال : حدثني الثقة عن محمد بن بلال عن حكيمة..

وفي رواية سادسة ، ينقلها الطوسي عن جماعة من الشيوخ ، عن حكيمة.

وفي هذه الرواية الأخيرة ، لا يذكر الطوسي اسم أحد من الشيوخ الذين يرسلون الرواية الى حكيمة من دون ذكر أي سند . وهذا ما يسقطها عن الحجية والاعتبار.

وفي الرواية التي قبلها لا يقول حمزة بن زكريا (الذي يضعفه النجاشي) من هو (الثقة) الذي حدثه؟.. أما محمد بن علي بن بلال ، فهو أحد أدعياء الوكالة عن المهدي ، وقد اختلف مع محمد بن عثمان العمري . وأما احمد بن علي الرازي ، فان الطوسي نفسه يضعفه في كتب الرجال ، وكذلك يضعفه النجاشي وابن الغضائري ، ويتهمونه بالغلو.

ومن هنا يتبين حال الرواية الرابعة ، التي ينقلها الطوسي عن احمد بن علي الرازي (الضعيف الغالي) الذي ينقلها عن مجهول هو (احمد الاهوازي) .

أما الرواية الثالثة .. ففيها (محمد بن حمويه الرازي) وهو مجهول أيضا ، بالإضافة الى (الحسين بن رزق الله) المجهول كذلك .

وفي الرواية الثانية يتبدل اسم (محمد بن عبد الله الطهوي) الذي ذكره الصدوق الى (أبي عبد الله المطهري) .. وهو مجهول في كلا الحالين .

أما الرواية الأولى فتقول عمدة الإمام فيها : أنها لم تعان مولد ابن الحسن ، وإنما سمعت بذلك خبرا كتب به أبو محمد الى أمه في المدينة.

إذاً فان رواية حكيمة عن مولد (ابن الحسن) يرويها المتأخرون عن غلاة عن ضعاف عن مجاهيل عن مختلفين.. ولا يمكن الاعتماد عليها مطلقا.

رجل من أهل فارس

ينقل الكليني والصدوق والطوسي والصدر ، قصة (رجل من أهل فارس) ذهب الى (سّر من رأى) ولزم باب أبي محمد الحسن العسكري يعمل مع الخدم.. وشاهد يوما غلاما ابيض ، فقال له الإمام الحسن : " هذا صاحبكم " .^{٣٣٨}

وهذه رواية ضعيفة جدا ، لا حاجة للتوقف عندها ، حيث لا تذكر اسم الراوي وتكتفي بالقول : انه (رجل من أهل فارس) ! .. وهذا أسلوب غير مقبول في الحديث مطلقا.

يعقوب بن منقوش

وأما رواية يعقوب بن منقوش ، التي يقول فيها: انه سأل الإمام العسكري يوما : من صاحب هذا إعلان؟ فقال له: ارفع سترًا مسبلا على باب بيت ، فخرج منه غلام خماسي فقال: " هذا صاحبكم ". والتي ينقلها الصدوق عن أبي طالب المظفر بن جعفر بن المظفر العلوي السمرقندي ، عن جعفر بن محمد بن مسعود ، عن أبيه محمد بن مسعود العياشي ، عن آدم البلخي ، عن علي بن الحسن بن هارون الدقاق ، عن جعفر بن محمد بن عبد الله بن القاسم ، عن يعقوب بن منقوش .. فهذه رواية ضعيفة جدا ..

أولاً: لعدم وجود شخص باسم المظفر السمرقندي في تراجم الرجال.

وثانياً: لأن العياشي يروي عن الضعفاء كثيرا ، كما يقول النجاشي ، وهو يقول بتحريف القرآن في تفسيره بصراحة.

وثالثاً: لقول آدم البلخي بالتفويض ، وهو من الغلاة الذين كانوا يقولون بأن الله خلق محمدا وفوض اليه خلق الدنيا ، وهو الخلاق لما فيها ، ثم فوض إعلان الى علي (راجع رجال النجاشي)

ورابعاً: لإهمال الدقاق واختلاف اسم والده بين الحسن والحسين.

وخامساً: لمجهولية جعفر بن محمد بن عبد الله.

^{٣٣٨} - الكليني ، الكافي ، ج ١ ، ص ٣٢٩ ، والصدوق ، إكمال الدين ، ص ٤٣٥ ، والطوسي ، الغيبة ، ص ١٤٠ ، والصدر ، الغيبة ، ص ٢٨٥

وسادسا لإهمال يعقوب بن منقوش ، واضطراب اسم والده بين منقوش ومنقوش ومنقوش .

عثمان بن سعيد العمري

أما الرواية التي ينقلها الصدوق في : (إكمال الدين) (٦) والطوسي في (الغيبة) (٧) عن جماعة فيهم عثمان بن سعيد العمري ومعاوية بن حكيم ومحمد بن أولئك ، وقول الإمام لهم : " هذا إمامكم من بعدي" .^{٣٣٩} .. فان الصدوق والطوسي يرويانها عن جعفر بن محمد بن مالك الفزاري ، وهو كذاب شهير وضّاع للأحاديث ، يقول عنه ابن الغضائري: " كذاب متروك الحديث جملة ، وكان في مذهبه ارتفاع (غلو) ويروي عن الضعفاء والمجاهيل ، وكل عيوب الضعفاء مجتمعة فيه.. روى في مولد القائم أعاجيب" . ويقول عنه النجاشي: " كان ضعيفا في الحديث ، وقال احمد بن الحسين : كان يضع الحديث وضعا ، ويروي عن المجاهيل ، وسمعت من قال: كان أيضا فاسد المذهب والرواية ، ولا ادري كيف روى عنه شيخنا النبيل الثقة أبو علي بن همام وشيخنا الجليل الثقة أبو غالب الرازي" .

أما رواية (نسيم) و(طريف أبو نصر) الخادمين عند الإمام العسكري ، فينقلهما الصدوق عن المظفر السمرقندي (المهمل) عن العياشي (الضعيف) عن آدم البلخي (الغالي المفوض) .

وأما رواية إسماعيل النوبختي ، التي يرويها الطوسي عن احمد بن علي الرازي ، فهي ضعيفة جدا ، لأن الطوسي نفسه لا يوثق الرازي ويتهمه بالضعف والغلو ، إضافة الى اتهام ابن الغضائري والنجاشي له بذلك .

ويروي الطوسي رواية أخرى عن جعفر بن محمد بن مالك الفزاري ، وعن احمد بن علي الرازي عن كامل بن إبراهيم المدني، الذي يقول : انه دخل على الإمام العسكري فجاءت الريح وكشفت ستره مرخى على باب ، فشاهد فتى وراءه ، فعرفه الفتى وناداه باسمه ، ثم رجع الستر الى حاله فلم يستطع كشفه ، فإنها واضحة الضعف بعد روايتها عن الفزاري والرازي الغاليين الضعيفين.

أبو الأديان البصري

وأما رواية (أبي الأديان البصري) التي ينفرد بنقلها الصدوق ، ويرسلها دون أي سند ، حيث يقول (وحدث أبو الأديان ...) بالرغم من ان بينهما حوالي مائة عام .. ولا يعرف أحد شخصا بهذا الاسم مما يؤكد اختلاقه من قبل بعض الغلاة .

^{٣٣٩} - الصدوق ، إكمال الدين، ص ٤٣٥ ، والطوسي ، الغيبة، ص ٢١٧

وأما تكملة القصة ، وهي مجيء وفد قم والجلال الى (سر من رأى) ، التي ينقلها الصدوق.. ففي سندها (احمد بن الحسين الآبي العروضي) و (أبي الحسين (ابن) زيد بن عبد الله البغدادي، عن سنان الموصلي عن أبيه.. فكلهم مجاهيل لا وجود لذكرهم في تراجم الرجال ، بالإضافة الى اضطراب اسم البغدادي.

سعد بن عبد الله القمي

وأما رواية سعد بن عبد الله القمي ، التي يقول فيها انه دخل مع احمد بن إسحاق ، على الإمام العسكري ، فرأى على فخذه غلاما وهو يلعب برمانة ذهبية ، والتي ينقلها الصدوق عن النوفلي الكرمانى ، عن احمد بن عيسى الوشاء البغدادي ، عن احمد بن طاهر القمي .. فيوجد في سندها أربعة من المهملين أو المجهولين ، وأما الراوي الخامس (الشييباني) فهو من الضعاف والغلاة المفوضة ، كما يقول الكشي وابن الغضائري والطوسي والنجاشي .

وقد سلب العلامة الحلي في (الخلاصة) الثقة من سعد بن عبد الله القمي ، على أثرها . وقال الشهيد الثاني : "ان إمارات الوضع عليها لائحة" ، وذلك لما تتضمن من لعب الغلام (المهدي) بالرمانة الذهبية!

إذن فان الضعف الكبير في سند كل رواية يسقطها جميعا عن الحجية والوثوق .. وإذا ما جمعنا الضعف في السند الى الضعف في المتن .. وإلى تناقض الروايات مع نفسها ، وتناقضها مع الرواية الظاهرية .. فإنها تصبح مجرد إشاعات وهمية أسطورية ، لا تثبت مولد إنسان عادي .. فكيف يمكن ان نعتمد عليها في إثبات مولد أمام من الأئمة وبناء عقيدة دينية على أساس ذلك؟.

وأما خبر محاولة القبض على المهدي الذي رواه الطوسي والمجلسي والصدر ، فانه خبر مرسل الى (رشيق) الشرطي المجهول ، والمشكوك بعدالته ، وهو ضعيف لعدم التصريح بهوية ذلك الرجل الذي كان يصلي على الحصير ، واحتواء الرواية أمورا غريبة منها: بقاء المهدي في بيت أبيه وفي سامراء طوال فترة الغيبة ، وهذا أمر بعيد جدا ، وقد كان بإمكانه ان يسبح في الأرض ويختبئ في أماكن أخرى . ومنها : احتواء الرواية على معاجز غيبية لا ضرورة لها ، وهي تنسجم مع روايات الغلاة وأساطيرهم .

هذا وقد كان المعتضد العباسي يميل الى التشيع ، وقد عزم على لعن معاوية على المنابر ، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس حول ذلك ، كما يقول ابن الأثير.^{٣٤٠} مما يبعد صحة الرواية المرسلة التي عن محاولته اعتقال (الإمام المهدي) ، أو يرجح اختلاقه لقصة اختفاء المهدي في السرداب .

المطلب الثالث: التحقيق في شهادة (النواب الأربعة)

ان الرواية التاريخية الظاهرية للأحداث بعد وفاة الإمام الحسن العسكري تقول : ان الإمام لم يخلف ولدا لا ذكرا ولا أنثى ، وانه أوصى بأمواله لأمه : (حديث) ، ولذلك فقد ادعى أخوه جعفر الإمامة وتبعه قوم من الشيعة ، أما رواية (النواب) فتقول : انه كان ثمة ولد مخفي مستور للإمام العسكري ، وقد ادعوا النيابة عنه والوكالة له . وان تصديقهم يجرّ الى التصديق بوجود (الحجة بن الحسن) ولكن التشكيك بقولهم لا يثبت شيئا من الرواية السرية بوجود ولد للإمام العسكري ، فهل كانوا صادقين حقا ؟ وهل اجمع الشيعة على وثافتهم؟ وكيف صدقوهم ؟ وما هو الدليل على صحة كلامهم ؟ .. وهل هناك ما يدعو الى التشكيك بهم ، والريب في دعواهم النيابة عن (الإمام المهدي) والشك في وجوده؟

قبل ان نقيّم تلك الروايات التي وردت بمدحهم وتوثيقهم ، لا بد ان نشير الى ان ظاهرة ادعاء النيابة عن (الإمام المهدي) هذه لم تكن أول ظاهرة في تاريخ الشيعة ، حيث سبقتها وسبقت هؤلاء (النواب الأربعة) ظواهر أخرى ادعى فيها كثير من الأشخاص النيابة والوكالة عن الأئمة السابقين الذين ادعيت لهم المهذوية ، كالإمام موسى الكاظم ، الذي ادعى كثير من أصحابه استمرار حياته وغيبته ومهدويته ، وكان منهم محمد بن بشير، الذي ادعى النيابة عنه ، ثم ورث النيابة الى أبنائه وأحفاده .

وقد ادعى النيابة عن (الإمام محمد بن الحسن العسكري) بضعة وعشرون شخصا ، كان منهم الشريعي والنميري والعبرتائي والحلاج وغيرهم ، و ذلك لأن دعوى النيابة كانت تجر مصالح مادية ومكانة اجتماعية سياسية للمدعي ، خاصة وان المدعي كان يهمس بها في السر وينهى عن التحقيق في دعواه ، ويستغل علاقاته السابقة بالإمام فيدعي استمرار حياته أو وجوده ، والنيابة عنه . وكانت دعواه تنطلي على البسطاء ويرفضها الأذكىاء المحققون الواعون . وقد رفض الشيعة الامامية دعوى أكثر من عشرين مدعٍ للنيابة عن (الإمام المهدي ابن الحسن العسكري) واتهموهم بالكذب والتزوير ، كما شككوا بصحة دعوى الأموي (النواب الأربعة) واختلفوا حولهم ، و لم يكن في الروايات التي أوردها المؤرخون ، دليلا علميا قويا على صدقهم وصحة دعاوهم، وهذا ما يجعل هؤلاء قسما من المدعين الكاذبين المتاجرين بقضية (الإمام المهدي) .

^{٣٤٠} - ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج ٦ ، ص ٨٥

لقد اعتمد الشيخ الطوسي في توثيق عثمان بن سعيد العمري على عدة روايات ، وكان بعضها ، كرواية احمد بن إسحاق القمي ، ينص على توثيقه من قبل الإمام الهادي والإمام العسكري ، في الحيا والممات ، وانه الوكيل والثقة المأمون على مال الله . وليس فيها ما ينص على نيابة العمري عن الإمام (المهدي). ولكن بعض الروايات كان ينص بصراحة على أصيب الإمام العسكري خلافة العمري للإمام المهدي ، إلا ان سند هذه الرواية ضعيف جدا وذلك لاشتماله على (جعفر بن محمد بن مالك الفزاري) الذي يقول عنه النجاشي وابن الغضائري : " انه كذاب متروك الحديث وكان في مذهبه ارتفاع (غلو) ويروي عن الضعفاء والمجاهيل وكل عيوب الضعفاء مجتمعة فيه ، وقد روى في مولد القائم أعاجيب ، وكان يضع الحديث وضعاً ، وانه كان فاسد المذهب والرواية" .

أما الرواية السابقة التي تتحدث عن وثاقة العمري وأمانته ووكالته فإنها مجهولة ، ويوجد في سندها الغالي (الخصبي) وهي تنطوي على دعوى علم الإمام العسكري بالغيب ، ومعرفته بوفد اليمن قبل ان يراهم.^{٣٤١} وهذه الدعوى من مفاهيم الغلاة . وان الرواية الأولى تقول: ان العسكري أخبر باستقامة العمري في المستقبل بعد وفاته ، وهذا ما لا يعلمه إلا الله ، وهو من علم الغيب أيضاً.

ومن هنا ، وبعد سقوط هذه الروايات لضعفها متنا وسندا ، فانا نكاد نحصل على نتيجة واحدة ، هي: ان العمري الذي كان وكيلاً للإمامين الهادي والعسكري في قبض الأموال ، قد استصحب الوكالة وادعى وجود (ولد) للإمام العسكري ، ليدعي الوكالة له ، دون ان يقدم دليلاً واضحاً وأكدداً على ما يقول . ولذلك لا يؤكد المؤرخون بصراحة على توكيل (المهدي) له ، وهذا الطبرسي الذي كان حريصاً على تدوين كل ما وصل اليه لا يقول في كتابه (الاحتجاج) أكثر من : (ان العمري قام بأمر صاحب الزمان ، وكانت توقيعاته وجوابات المسائل تخرج على يديه) .^{٣٤٢}

ولم يذكر المؤرخون الشيعة أية (معجزة) له تثبت دعواه في النيابة ، بالرغم من قول السيد عبد الله شبر في: (حق اليقين): " ان الشيعة لم تقبل قول النواب إلا بعد ظهور آية معجزة تظهر على يد كل واحد منهم ، من قبل صاحب الأمر ، تدل على صدق مقالته وصحة نيابته" .^{٣٤٣}

^{٣٤١} - الطوسي، الغيبة، ص ٢١٥ - ٢١٦

^{٣٤٢} - عن المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥١ ، ٣٦٢

^{٣٤٣} - شبر ، حق اليقين، ص ٢٢٤

أما (النائب الثاني : محمد بن عثمان بن سعيد العمري) فلم يذكر المؤرخون الشيعة أي نص مباشر عليه من (المهدي) بتعيينه نائبا عنه ، وقال الطوسي: "انه قام مقام أبيه بنص أبي محمد (الحسن العسكري) عليه ونص أبيه عثمان بأمر القائم".^{٣٤٤}

وذكر الطوسي رواية عن عبد الله بن جعفر الحميري القمي ، انه قال: "ان المهدي قد أرسل الى العمري (توقيعا) يعزيه فيه بوفاة والده عثمان بن سعيد ، ويحمد الله على قيامه مقامه، ويدعو له بالتوفيق . وان الكتب أتنا بالخط الذي كنا نكتب به بإقامة أبي جعفر مقام أبيه" ، كما نقل الطوسي رواية أخرى عن محمد بن إبراهيم بن مهزيارالاهوازي ، وأخرى عن إسحاق بن يعقوب ، عن الإمام المهدي ، يشهد بوثاقته ويترضى عليه. وكل هذه روايات تنقل بواسطة العمري نفسه ، وهو ما يضعف الرواية.

ولا يوجد أي طريق لإثبات دعوى ان العمري عثمان بن سعيد ، قد نص على ابنه محمد بأمر القائم ، ويبدو انه تخمين من قبل الطوسي ، كما لا يوجد في الحقيقة أي دليل لإثبات النص من الأب على الابن سوى الوراثية والادعاء.

ان المشكلة الكبرى تكمن في صعوبة التأكد من صحة (التوقييع) التي كان يخرجها العمري وينسبها الى (الإمام المهدي) وخاصة التوقييع الذي رواه الحميري القمي ، حيث لم يذكر طريقه الى (الإمام الغائب) مما يحتمل قويا ان يكون العمري قد كتبه بيده ، ونسبه الى (المهدي) خاصة وانه يكيل المدح والثناء لنفسه فيه ، مما يلقي بظلال الشبهة عليه لو كان الإمام ظاهرا ، فكيف وهو غائب؟ ولا يوجد أي راوٍ للتوقييع سوى العمري نفسه ، ولم يقل الحميري كيف سارع الى تصديق التوقييع مع وجود الجدل في ذلك الزمان بين الشيعة حول صدق العمري في دعوى النيابة ؟ مع احتمال اختلاق الحميري القمي نفسه للتوقييع ونسبته الى (المهدي).

وأما رواية محمد بن إبراهيم بن مهزيار الاهوازي ، فهي ضعيفة لأنه يعترف بأنه كان يشك في وجود المهدي في البداية ، وقد ادعى الوكالة بعد ذلك في أعقاب لقائه بالعمري في بغداد ، وبالتالي فانه مشكوك في أمره ، ولا يقول هنا كيف خرج التوقييع اليه مباشرة أو عبر العمري ؟ فان كان يدعي انه وصله مباشرة ، فكيف؟ وهل رأى المهدي بنفسه ؟ وهو لا يدعي ذلك ؟ أم عن طريق العمري ؟ وهذا ما يثير الشك أيضا .

^{٣٤٤} - الطوسي، الغيبة، ص ٢١٨

وأما الرواية الثالثة (رواية اسحق بن يعقوب) التي تصرح بأنها واردة عن طريق العمري ، فإنها ضعيفة لوجود الشك باختلاق العمري لها ، ولجهولية وضعف إسحاق بن يعقوب ، وعدم تصريحه بكيفية التعرف على خط المهدي ، علما بأن الطوسي يقول: ان الخطوط التي كانت تخرج بها التوقيعات هي نفس الخطوط التي كانت تخرج في زمان العسكري .^{٣٤٥}

وأخيرا فان حكاية رؤية محمد بن عثمان العمري للمهدي في الحج ، هي دعوى مجردة عن الدليل ، وهو لم يقل كيف تعرف على المهدي الذي لم يره من قبل ؟ وربما كان قد اشتبه به مع رجل آخر .

ومن هنا فقد توقف احمد بن هلال العبرتائي (شيخ الشيعة في بغداد) ، الذي نقل الفزاري عنه انه شهد مجلس عرض العسكري للمهدي وتعيين العمري خليفة له ، وشكك في صحة دعوى العمري الابن في النيابة الخاصة عن المهدي ، وأنكر ان يكون سمع الإمام العسكري ينص عليه بالوكالة ، ورفض الاعتراف به بوكالته عن (صاحب الزمان) .^{٣٤٦}

وكان العبرتائي قد لعب دورا كبيرا في دعم دعوى عثمان بن سعيد العمري بالنيابة ، وكان يأمل ان يوصي اليه من بعده ، فلما أوصى الى ابنه محمد ، رفض ذلك وادعى هو النيابة لنفسه ، مما يكشف عن التواطؤ والمصلحية في دعاوى (النيابة الخاصة) .

ونتيجة لغياب النصوص الصحيحة والمؤكدة على نيابة محمد بن عثمان العمري ، فقد شك الشيعة في دعواه ، وروى المجلسي في (بحار الأنوار) : ان الشيعة كانوا في حيرة ، ولم يكونوا يثقون بدعاوى النيابة الكثيرة ، وقال ان أبا العباس احمد السراج الدينوري سأل العمري عن الدليل الذي يؤكد صحة ادعاءه ، وانه لم يؤمن به إلا بعد ان اخبره شخص بالغيب وقدم له (معجزة) .

وقد اشتهر عند الشيعة تلك الأيام حديث عن أهل البيت يقول: "خدامنا وقوامنا شرار خلق الله". مما دفعهم للتشكيك بصحة دعاوى النيابة الخاصة ، وقد أكد الشيخ الطوسي صحة ذلك الحديث ، ولكنه قال: "انه ليس على عمومهم ، وإنما قالوا، لأن فيهم من غيّر وبدّل وخان".^{٣٤٧}

^{٣٤٥} - الطوسي، الغيبة، ص ٢١٧

^{٣٤٦} - الخوئي ، معجم الرجال، ج ٢ ، ص ٢٥١ ، والطبرسي، خاتمة المستدرک، ص ٥٥٦ ، والنجاشي، الرجال

^{٣٤٧} - الطوسي، الغيبة، ص ٢٤٤

وقد ندم بعض الشيعة على إعطاء الأموال الى العمري ، كما شكوا بوجود المهدي والتواقيع التي كان يخرجها العمري وينسبها اليه ، وكان منهم قسم من أهل البيت . وهذا ما دفع العمري الى ان يصدر كتابا على لسان المهدي يندد بالشاكين والمنكرين لوجود المهدي . كما شك قسم آخر بصحة وكالة النوبختي ، وتساءل عن مصرف الأموال التي كان يقبضها باسم الإمام المهدي ، وقال : ان هذه الأموال تخرج في غير حقوقها . ويقول الصدوق والطوسي : ان النوبختي استطاع ان يقنعهم عن طريق المعاجز والإخبار بالغيب ، كتحديد وفاة بعض الأشخاص مسبقا ، والتقاطه لدراهم من صرة شخص على مسافة بعيدة.^{٣٤٨}

وفي الحقيقة ان المؤرخين الشيعة يذكرون قصصاً كثيرة عن شك الناس بالمدعين للنيابة وتكذيب بعضهم للبعض الآخر ، و لكن عامة الاثني عشرية يميزون الأموي (النواب الأربعة) عن بقية المدعين المذمومين ، بقدره الأموي على اجتراح المعاجز وعلمهم بالغيب . وقد ذكر الكليني والمفيد والطوسي عشرات القصص التي تتحدث عن قيام النواب الأربعة بفعل المعاجز الخارقة للعادة ، وإخبارهم بالمغيبات . ونقل الطوسي عن (هبة الله) حفيد العمري: "ان معجزات الإمام ظهرت على يديه وانه كان يخبر عن الغيب".^{٣٤٩} وذكر الطوسي خبرا عن علي بن احمد الدلال : ان العمري اخبره بساعة وفاته من يوم كذا وشهر كذا وسنة كذا ، فمات في اليوم الذي ذكره من الشهر الذي ذكره من السنة التي ذكرها ، وكان ذلك في آخر جمادى الأولى من سنة ٣٠٥ هـ.^{٣٥٠}

ولكن هذا القول كان يخالف مبادئ التشيع وأحاديث أهل البيت (ع) الذين كانوا ينفون علمهم بالغيب أو استخدام الطريقة الإعجازية الغيبية لإثبات إمامتهم. يقول الشيخ الصدوق : "الإمام لا يعلم الغيب ، وإنما هو عبد صالح يعلم الكتاب والسنة ، ومن ينحل للأئمة علم الغيب فهذا كفر بالله وخروج عن الإسلام عندنا ، وان الغيب لا يعلمه إلا الله وما ادعاه لبشر إلا مشرك كافر".^{٣٥١}

وقد قال الإمام الصادق : " يا عجباً لأقوام يزعمون أنا نعلم الغيب!.. والله لقد هممت بضرب جاريتي فلانة فهربت مني فما علمت في أي بيوت الدار هي".^{٣٥٢}

^{٣٤٨} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٥١٦ - ٥١٩ والطوسي، الغيبة، ص ١٩٢

^{٣٤٩} - الطوسي، الغيبة، ص ٢٣٦

^{٣٥٠} - المصدر نفسه ، ص ٢٢١

^{٣٥١} - الصدوق، إكمال الدين، ص ١٠٦ و ١٠٩ و ١١٦

^{٣٥٢} - الحر العاملي، إثبات الهداة، ج ٣ ، ص ٧٤٨

وجاء أبو بصير ذات مرة الى الإمام الصادق وقال له : " انهم يقولون... انك تعلم قطر المطر وعدد النجوم وورق الشجر ووزن ما في البحر وعدد التراب ، فقال : سبحان الله!.. سبحان الله ! لا والله ما يعلم هذا إلا الله " .^{٣٥٣}

وسأل يحيى بن عبد الله الإمام موسى الكاظم فقال: " جعلت فداك انهم يزعمون انك تعلم الغيب؟ فقال: سبحان الله! ضع يدك على رأسي ، فوالله ما بقيت شعرة فيه وفي جسدي إلا قامت . لا والله ما هي إلا وراثته من رسول الله " .^{٣٥٤}

وفي رواية أخرى ينقلها الحر العاملي ، يقول فيها الإمام : " قد آذانا جهلاء الشيعة وحقاؤهم ومن دينه جناح البعوضة ارجح منه... إني بريء الى الله والى رسوله ممن يقول انا نعلم الغيب " .^{٣٥٥}

إذن فلا يمكننا ان نصدق بدعوى الأموي النواب بالنيابة عن الإمام المهدي ، ونعتبر قولهم دليلا على وجود الإمام ، استنادا الى دعاوى المعاجز أو العلم بالغيب ، ولا يمكننا ان نميز دعواهم عن دعوى أدعياء النيابة الكاذبين الذين كانوا يتجاوزون الأربعة والعشرين .

وإذا كنا نتهم أدعياء النيابة الكاذبين بجر النار الى قرصهم ، وبالحرص على الأموال والارتباط بالسلطة العباسية القائمة فأجابه ، فان التهمة تتوجه أيضا الى الأموي (النواب الأربعة) الذين لم يكونوا بعيدين عنها .

يقول محمد بن علي الشلمغاني الذي كان وكيلا عن الحسين بن روح النوبختي في بني بسطام ، ثم انشق عنه وادعى النيابة لنفسه : " ما دخلنا مع أبي القاسم الحسين بن روح في هذا الأمر، إلا ونحن نعلم فيما دخلنا فيه ، لقد كنا نتهاresh على هذا الأمر كما تتهاresh الكلاب على الجيف " .^{٣٥٦}

وإذا لم نستطع إثبات دعاوى (النواب الأربعة) وشككنا في صحة أقوالهم ، فكيف نستطيع إثبات "وجود" (الإمام محمد بن الحسن العسكري) ، بناء على شهادتهم باللقاء به و الوكالة عنه ؟

^{٣٥٣} - المصدر نفسه، ص ٧٧٢

^{٣٥٤} - المصدر نفسه، ص ٧٦٧ والمفيد، الآمال، ص ٢٣

^{٣٥٥} - الحر العاملي، إثبات الهداة، ص ٧٦٤

^{٣٥٦} - الطوسي، الغيبة، ص ٢٤١

وإضافة الى هذا الشك ، هناك دليل آخر على كذب أدعياء النيابة ، وهو عدم قيامهم بأي دور ثقافي أو فكري أو سياسي لخدمة الشيعة والمسلمين ، ما عدا جباية الأموال والادعاء بتسليمها الى (الإمام المهدي) .

وكان المفترض بالنواب الذين يدعون وجود صلة خاصة بينهم وبين (الإمام المهدي) ان يحلوا مشاكل الطائفة ، وينقلوا توجيهات الإمام الى الأمة ، ولكننا نرى (النائب الثالث) : الحسين بن روح النوبختي ، مثلاً ، يلجأ الى علماء قم ليحلوا له مشكلة الشلمغاني الذي انشق عنه ، ويرسل كتابه (التأديب) الى قم ، ليبين علماءها له الصحيح والسقيم ، كما يقول الشيخ الطوسي في (الغيبة).^{٣٥٧}

ان في ذلك دلالة على عدم وجود أي اتصال بينه وبين (المهدي) وإلا لكان عرض الكتاب عليه وسأله عن صحته .

ومما يعزز الشك في عدم وجود (المهدي محمد بن الحسن العسكري) هو عدم قيام أدعياء النيابة بمأ الفراغ الفقهي وتوضيح كثير من الأمور الغامضة التي كان يجب عليهم تبيانها في تلك المرحلة، ومن المعروف ان الكليني قد ألف كتابه (الكافي) في أيام النوبختي ، وقد ملأه بالأحاديث الضعيفة والموضوعة التي تتحدث عن تحريف القرآن وأمور أخرى باطلة ، ولكن النوبختي أو السمري لم يعلقا على الموضوع ولم يصححا أي شيء من الكتاب ، مما تسبب في أذية الشيعة عبر التاريخ و أوقعهم في مشكلة التعرف على الأحاديث الصحيحة من الكاذبة .

ولقد أبدع السيد المرتضى نظرية (اللفظ) التي يقول فيها : ان الإمام المهدي يجب ان يتدخل ليصحح اجتهادات الفقهاء في عصر الغيبة ويخرب إجماعهم على الباطل ، وبناء على ذلك كان الأجدر والأولى والأيسر ان يصحح (الإمام المهدي) ، لو كان موجودا ، كتاب الكليني ، أو يترك وراءه في (عصر الغيبة الكبرى) كتابا جامعاً يرجع اليه الشيعة . وهذا ما لم يحصل ، ولم يقدم أدعياء النيابة أي شيء يذكر في هذا المجال ، وهذا ما يدفعنا للشك في صدقهم ، وفي دعواهم بوجود (أمام غائب) من ورائهم.

ولذا تعجب الشيخ حسن الفريد (زميل الإمام الخميني) في كتابه: (رسالة في الخمس) واستغرب بحيرة، وتساءل عن السر وراء عدم سؤال الكليني من (صاحب الزمان) عبر وكيله النوبختي عن حكم مسألة الخمس في (عصر الغيبة).^{٣٥٨}

المطلب الرابع: التحقيق في رسائل (المهدي)

اتخذ المؤيدون لنظرية وجود (الإمام المهدي) الرسائل، التي قالوا انه قد بعث بها الى عدد من الناس، دليلاً إضافياً على صحة نظريتهم بوجود (الإمام محمد بن الحسن العسكري). ولكننا بعد دراسة هذه الروايات والتحقيق في سندها نكتشف ضعفها بدرجة كبيرة، وإنها ليست إلا إشاعات روجها أدعياء الوكالة. فان رواية الطوسي الأولى يرويها عن جماعة لم يسمهم، عن أبي محمد التلعكبري، عن احمد بن علي الرازي، الذي يقول عنه علماء الرجال الشيعة: انه ضعيف غالي، بالإضافة الى ان احمد بن إسحاق القمي لم يذكر كيفية مراسلة (صاحب الزمان) ومن هو الذي أوصل اليه الجواب، مما يحتمل اختلاقه للرسالة بنفسه.

أما الرسالة الثانية فان الطوسي ينقلها أيضاً عن احمد بن علي الرازي (الضعيف الغالي) عن عدد من المجهولين، بالإضافة الى أنها تتضمن أمراً غير معقول هو الاحتكام الى شخص غير معروف متنازع في وجوده ليثبت هو وجوده! مع احتمال صدور الجواب من أحد أدعياء النيابة. علماً بأن الشك بوجود (ابن الحسن) يقتضي الشك بصدق النواب، فكيف يمكن العودة الى واحد منهم والوثوق به قبل التأكد من صدقه، والتصديق بما يقدمه من أوراق يدعي أنها صادرة عن المهدي؟

أما رواية الصدوق المعروفة ب: (التوقيع) فهي ضعيفة لمجهولية وضعف إسحاق بن يعقوب، وعدم ذكر السابقين كالكليني لها، ولتضمن الرواية عدة أمور غير صحيحة هي:

أولاً: مدح الناقل للرسالة وهو (النائب الثاني محمد بن عثمان العمري) لنفسه وأبيه، وهو ما يقوي احتمال ان تكون الرسالة من وضعه.

ثانياً: إباحة الخمس في عصر الغيبة إلى وقت الظهور، وهذا ما يخالف استمرارية أحكام الإسلام في كل حين، وقد عدل علماء الشيعة مؤخراً عن الأخذ بهذه الإباحة لمنافاتها مع مبادئ الإسلام.

^{٣٥٨} - الفريد، رسالة في الخمس، ص ٨٧

ثالثا: المطالبة بالكف عن السؤال عن علة الغيبة ، مع ان فلسفة الغيبة من الأمور الدينية الضرورية التي لا بد من معرفتها على طريق الإيمان بالمهدي. ومن هنا تصبح تلك الرواية (الرسالة) ضعيفة جدا وغير قابلة للاعتماد.

وكذلك حال رواية الصدوق الثانية عن العمري ، التي ينقلها عن أبي عبد الله جعفر ، الذي يقول انه وجدها مثبتة عن سعد بن عبد الله ، أي انه لم يروها مباشرة ، وإنما وجدها في كتاب ، ومن المعروف في علم الرواية : ان الوجدان في الكتب من اضعف أنواع الرواية ، وإضافة الى ذلك لا يذكر سعد كيف انه حصل على الرسالة؟ ومن اخبره بها؟ وهو لا يرويها عن العمرين اللذين لا يصرحان بها ، وإنما يذكرها عن شخص لم يحدد اسمه ، ولكن يفترض انه (المهدي) . وإذا صحت الرواية عن العمرين فإنها قد تكون من تأليفهما، دعما لنظريتهما القائلة بوجود المهدي ، وتعزيز ادعائهما بالنيابة عنه ، ومن هنا فلا حجة فيها.

أما رسائل الشيخ المفيد ، التي يذكرها الطبرسي وابن شهر آشوب في كتبهما ، فان المفيد نفسه لم يذكرها في أحد من كتبه ، ولو صحت نسبتها اليه فهي لا تحمل في طياتها أي دليل ، وذلك لأن المفيد يقول: انه استلمها من رجل أعرابي لا يعرفه ، والرسالة بخط رجل غير المهدي يقول إنها من إملاء المهدي عليه ، وقد رفض المفيد ان يعرض الرسائل ، التي أوصلها الأعرابي اليه ، على أحد من أصحابه، وقال ان ذلك بأمر المهدي ، ولم يبرز الى الناس سوى رسائل بخط يده قال ان المهدي قد طلب منه ان يفعل ذلك .

فإذا صح ذلك.. فنحن في الحقيقة أمام رسائل بخط الشيخ المفيد نفسه، يقول إنها نسخ عن رسائل سلمها اليه أعرابي مجهول لا يعرفه المفيد ، يقول ذلك الأعرابي إنها من رجل لا يعرفه كتب تلك الرسائل ، يقول ذلك الرجل المجهول: ان الإمام المهدي قد أملاها عليه .

أي اننا أمام خبر آحاد يرويهِ المفيد عن رجل مجهول عن رجل مجهول عن المهدي .

وهذا ما يشير عددا من الاحتمالات ، منها: الجعل من قبل المفيد ، خاصة وإنها تحمل تزكية ومدحا فائقا له ، ويقدم المهدي اسم المفيد في بعضها على اسمه . ومنها : الجعل من قبل ذلك الأعرابي ، أو الجعل من قبل ذلك الرجل المجهول ، أو الجعل من قبل رجل ثالث كذب على الكاتب وقال انه المهدي. وهكذا رواية في منطق علم الدراية غير قابلة للالتفات أو التوقف عندها قليلا أو كثيرا .

مشكلة التعرف على الخط

وأود هنا، ان الفت نظر القارئ الكريم الى نقطة مهمة ، وهي موضوع : خط الإمام المهدي ، في رسائله تلك ، وتواقيعه الكثيرة المنسوبة اليه . فان الإنسان المؤمن بالمهدي ، وخاصة اليوم ، يتوق الى رؤية خط الإمام ، إذ لم يحظَ برؤية شخصه ، ويتمنى ان يكون التاريخ قد احتفظ ولو بنسخة واحدة من تلك الرسائل والتواقيع ، ويرجو ان يكون الشيعة في تلك الأيام قد أدركوا هذه الأهمية ، وحافظوا على رسائل الإمام في خزاناتهم التاريخية ، فإنها تشكل أهم مادة لدراسة تلك المرحلة والتأكد من حقيقة (الإمام المهدي) والظروف التي أدت به الى الغيبة .

ومن هذا المنطلق حاولت ان استقصي آثار خطوط (الإمام المهدي) في رسائله ، وابحث عن أية نسخة من رسائله ، وأتابع (تواقيعه) . وكنت احسب في البداية ، أو افترض ان يكون الشيعة في تلك الأيام أو بالأخص (النواب الأربعة) أو الفقهاء أو المحدثون ، قد اهتموا بالمحافظة عليها والعناية بها، فلم أجد لذلك أثراً ، ووجدت غموضاً مريباً يلف هذا الموضوع ، ووجدت في (التوقيع) الذي يرويه الطبرسي في (الاحتجاج) عن اسحق بن يعقوب عن العمري ، نصاً يقول : " .. ولا تظهر على خطنا الذي سطرناه أحداً". وهو يكشف عن خلاف ما كان متوقعا من الاهتمام بالتعرف على الخط والمحافظة على رسائل المهدي ، وعدم وجود خط معين ومعروف للمهدي، يمكن الرجوع اليه ومقارنة بقية الرسائل به للتأكد من صحتها . كما وجدت الشيخ الطوسي يتحدث عن (خط المهدي) بصورة مريبة ، حيث يقول : (قال أبو نصر هبة الله: " وجدت بخط أبي غالب الرازي: ان العمري كان يتولى هذا الأمر (النيابة) نحو من خمسين سنة ، يحمل الناس اليه أموالهم ويخرج اليهم التوقيعات بالخط الذي كان يخرج في حياة الحسن (ع) بالمهمات في أمر الدين والدنيا ، وفيما يسألونه من المسائل بالأجوبة العجيبة" .^{٣٥٩}

ولم يقل لماذا كان العمري يفعل ذلك ؟ ولماذا لم يكن يخرج التواقيع بخط المهدي؟ ومن المعروف ان التعرف على خط الإمام الحسن بذاته كان مشكلة في حياته ، إذ كان يلجأ بعض أعياء النيابة عنه، من الغلاة ، الى تزوير خطه ، وقد وقع الشيعة بسبب ذلك في مشكلة التعرف على خط الإمام العسكري والتأكد من خطه ، في حياته ، فكيف يمكن التعرف على خط (الإمام المهدي) الذي لم يره أحد ولم يُرَ خطه ولم يُتأكد من وجوده؟ ولا يملك عامة الناس وسيلة للتحقق منه ؟

ومع وجود هذه الاشكالية الكبيرة ، فان العمري لم يكن يسلم الخطوط والتواقيع الى أحد ، بل كان يبرزها لهم فقط أو يستنسخها بخطه. وقد لجأ الشيخ المفيد - حسب الرواية المزعومة - الى هذه الطريقة

^{٣٥٩} - الطوسي، الغيبة، ص ٢٢٣

أيضا ، فقدم نسخا بخط يده قال إنها منقولة عن رسائل من المهدي لم تكن مكتوبة أساسا بخطه ، وإنما كانت إملاء منه على كاتب مجهول .

ولو كنا قد حصلنا على نسخ من خط (الإمام المهدي) لكان باستطاعتنا المقارنة بينها والتأكد من حقيقة نسبتها إليه أو التمييز بين الصحيح والمزور منها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث.

و لذلك يمكننا اتخاذ (سرية الخط ، أو الحرص على إخفائه) دليلا إضافيا على عدم وجود (محمد بن الحسن العسكري) الذي ان كان موجودا فعلاً وكان مختلفا وغائبا لأسباب أمنية ، لكان لجأ بصورة قاطعة الى إثبات شخصيته عند الشيعة ، وقيادتهم عبر الرسائل الموقعة التي لا تقبل الشك والنقاش ، ويمكن معرفتها وتمييزها بواسطة التعرف على الخط ، والمقارنة بينها ، كواحدة من الوسائل العديدة التي يثبت بها نفسه .

ويمكن أن نضيف الى هذه الأسئلة، سؤالاً جديداً، وهو لماذا لا يستخدم الإمام المهدي الغائب وسائل الاتصال الحديثة والمضمونة ، أو وسائل الإعلام الفضائية ، لإيصال رسائله الى الشيعة، مع المحافظة على أمنه وسلامته؟ كما استخدم بعض السياسيين المطلوبين أجهزة الإنترنت والقنوات الفضائية لإيصال صوتهم وتوجيهاتهم الى أتباعهم والعالم.

المبحث الخامس

ما هي حقيقة حكايات المعاجز ؟

من الملاحظ ان معظم تلك (المعاجز) التي يدعيها القائلون بوجود (المهدي محمد بن الحسن العسكري) و التي ينقل أكثرها الطوسي ، يدور حول محور (علم النواب الأربعة بالغيب) وهي تحاول إثبات صحة دعاوى النواب بالوكالة والنيابة عن (الإمام المهدي) وبالتالي (صحة وجوده) .

وقد لجأ (النواب الأربعة) وغيرهم من أدعياء النيابة ، الذين تجاوز عددهم العشرين ، الى سلاح (المعاجز) بعد ان أعيتهم الحيلة لإثبات دعاوهم في النيابة ، في غياب النصوص والأدلة العلمية على

ولادة (الإمام) أو صحة نيابتهم عنه ، كما لجأ الى ذلك ، من قبل ، محمد بن بشير الذي ادعى الوكالة عن الإمام موسى الكاظم ، بعدما ادعى الواقفية هروبه من السجن وغيبته ومهدويته ، لإثبات دعاواهم الواهية في النيابة عنه .

وإذا القينا ، كمثال ، نظرة على قصة (الوكيل) : محمد بن إبراهيم الالهوازي ، الذي يعترف بأنه كان يشك بوجود (محمد بن الحسن العسكري) في البداية ، وانه حمل الأموال التي كانت لدى أبيه، الى بغداد ، واستأجر داراً على شاطئ دجلة، وفكر بصرف الأموال على ملذاته وشهوته. ثم تحوّل الى ادعاء (الوكالة) التي تدر عليه ربها مستمرا حتى آخر يوم من حياته ، وذلك بتأليف قصة الاتصال الغيبي مع العمري .. إذا القينا نظرة على هذه القصة ، فاننا سنكتشف العلاقة بين ادعاء (المعاجز) للإمام المهدي وادعاء (النيابة عنه).

ولسنا بحاجة ماسّة لمناقشة " دليل المعجزة أو العلم بالغيب " . فان هذا الأمر لم يثبت لأحد من الأئمة الأحد عشر السابقين من آل البيت (ع) ولم يكن رسول الله (ص) الذي كانت له قابلية الاطلاع من الله على علم الغيب ، لم يكن ليدعيه أو يمارسه بمثل ما كان يدعيه (النواب) ويشيعون عن أنفسهم معرفته. وقد اعتمد الرسول الأكرم على العقل و(معجزة القرآن) الخالدة ، وقال للمشركين الذين طالبوه بإتيان المعاجز والآيات الخارقة ، كتفجير الينابيع من الأرض ، وإسقاط السماء كسفاً ، والرقى في السماء، وإنزال الكتب منها ، قال لهم: " سبحان الله !.. هل كنت إلا بشرا رسولا؟" (الإسراء ٩٣) وقال : " إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين" (العنكبوت ٥٠) وقال الله عز وجل: " وما منعنا ان نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الأولون" (الإسراء ٥٩). فإذا لم يكن الرسول الأعظم (ص) يستخدم المعاجز والآيات لإثبات رسالته ، فكيف استطاع (النواب الأربعة) استخدامها لإثبات نيابتهم؟ ومن الذي يؤكد حصول ذلك ؟ علماً بأن الطوسي الذي يذكر معظم تلك (المعاجز) الوهمية قد جاء بعد عصر النواب بمائة عام أو أكثر . وقد اعتمد على تلك الروايات وهي أخبار آحاد متهافئة جدا، صادرة عن الغلاة والمشبهين وذوي المصالح المادية في وضعها ، ولا توجد رواية واحدة منها يمكن الاعتماد عليها بعد تنقيح السند، وهي تشتمل على عدة نقاط غامضة ، فتروى عن المجاهيل أو عن أشخاص بدون أسماء ، وتعتمد على الادعاء الفارغ بلا دليل.

وان من السهل جدا وصف تلك (المعاجز) المدعاة ، بـ : " الكذب والاختلاق ، أو السحر والشعوذة والمخاريق". وهو ما يسقطها عن الحجية ، وعن ان تكون (معاجز) خارقة للعادة وحاسمة للجدال . وكان الشيخ الصدوق قد برر عدم لجوء الإمام أمير المؤمنين (ع) الى سلاح (المعاجز) لإثبات حقه

بالخلافه ، بسبب احتمال تفسير الآخرين لها بالسحر والشعوذة والمخاريق.^{٣٦٠} كما رفض والده علي بن بابويه الصدوق ، ادعاء الحلاج بالنبابة عن الإمام المهدي ، ومعرفته للغيب ، وأمر بإخراجه من مكانه ركلاً بالأرجل!^{٣٦١}

ان (المعاجز الغيبية) متعارضة مع القرآن الكريم الذي ينفي علم الغيب عن أي بشر، ويقول: " عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، إلا من ارتضى من رسول " الجن ٢٦ - ٢٧ ، ويقول: " قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله " النمل ٦٥ ، ويقول: " وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي أرض تموت " لقمان ٤٣ . ومن هنا فلم يشر السيد محمد باقر الصدر (رحمه الله) في (بحث حول المهدي ، ص ٣٦) الى مسألة معاجز النواب الأربعة ، كدليل على صحة نيابتهم ، وادعائهم في وجود (الإمام محمد بن الحسن العسكري) .

المبحث السادس

تأفت دعوى الإجماع

وقبل ان ندرس دعوى وجود الإجماع على وجود (الإمام محمد بن الحسن العسكري) يجدر بنا ان نتحدث قليلا عن حجية الإجماع عند الشيعة الامامية الاثني عشرية ، إذ من المعروف ان الإجماع لا يعتبر لديهم دليلا مستقلا ، إلا إذا كان كاشفا عن رأي المعصوم ، ولم يكن يستند الى دليل قرآني أو روائي أو عقلي ، فإذا كان يستند الى آية من القرآن الكريم ، فيمكن ان نراجع الآية وننظر في الأمر، وقد يختلف اجتهدانا عن اجتهد العلماء السابقين ، الذين اجمعوا على ضوء فهمهم الخاص لها ، فلا يصبح اجتهداهم ، أو الإجماع الذي بنوه على أساس ذلك الاجتهاد ، حجة علينا ، لأن الحجة في القرآن ، وهو ، مثلا ، لا يدل عندنا على المطلوب.

وكذلك الأمر بالنسبة الى الأحاديث ، وحكم العقل .

^{٣٦٠} - الصدوق، إكمال الدين، ص ١٠٩

^{٣٦١} - المصدر نفسه

الحالة الوحيدة التي قد يصبح الإجماع فيها دليلاً شرعياً وحجة عند الشيعة ، هي فيما إذا كان الإجماع موجوداً في مسألة معينة ، ولم نكن نعرف مستند الإجماع ، فنحتمل أنه مبني على حديث لم يصلنا ، وبالتالي نقطع على أنه معبر عن رأي المعصوم. وهذا النوع من الإجماع لا يمكن أن يحصل ، ولم يحصل لدى الشيعة ، إلا في الأجيال الأولى القريبة من عهد الأئمة ، وهو ما يعبر عنه بإجماع المتقدمين ، فإذا لم يكن في مسألة إجماع عند المتقدمين ، وحصل فيها بعد ذلك إجماع بين المتأخرين ، فإنه ليس بحجة ، لأنه لا يعبر عن رأي المعصوم .. ولأن الإجماع بذاته غير حجة.

هذا هو حكم الإجماع ، وطبيعته.

والإجماع حول مسألة " وجود ابن الحسن " ليست من نوع الإجماع الوارد في بعض المسائل الفقهية الجزئية ، بل هو ، حسب الفرض ، مبني على الأدلة العقلية والنقلية والتاريخية ، وليس معبراً عن رأي أو قول غير واصل الينا من الأئمة.

ثم إن الإجماع الذي يدعيه الأشعري القمي أو النوبختي أو الصدوق ، غير حاصل أساساً في موضوع وجود (الإمام محمد بن الحسن العسكري) .. إذ لم يختلف الشيعة الإمامية سابقاً في مسألة كما اختلفوا في موضوع (الخلف) حيث انقسموا بعد وفاة الإمام الحسن العسكري ، إلى أربع عشرة فرقة ، فقال بعضهم بمهدوية الحسن بن علي ، وقال بعضهم بمهدوية أخيه محمد ، وقال بعضهم بإمامة ومهدوية أخيه الآخر جعفر ، وقال بعضهم بانقطاع الإمامة ، ولم يقل بوجود وولادة وإمامة ومهدوية (محمد بن الحسن) إلا فرقة واحدة من تلك الفرق الأربعة عشر.

وقد اختلفت هذه الفرقة أيضاً فيما بينها على أقسام ، وذلك حول اسم وهوية المهدي !

وقد فصل النوبختي في كتابه (فرق الشيعة) والأشعري القمي في كتابه (المقالات والفرق) والمفيد في (الفصول المختارة من العيون والمحاسن) والطوسي في (الغيبة) أخبار تلك الفرق التي أوصلها بعضهم إلى عشرين فرقة. وقد استعرضنا خلال صفحات هذا الكتاب كثيراً من تفاصيل تلك الفرق وآرائها المختلفة ، وقد نقل الصدوق والطوسي أخبار تشاجر الشيعة واحتكامهم إلى العمري حول وجود الخلف للإمام الحسن؟

كل ذلك يدل على عدم وجود الإجماع في هذه المسألة عند الشيعة الأوائل ، بل يوجد النص المضاد من الإمام العسكري ، الذي أوصى إلى أمه ، باتفاق جميع الشيعة ، ولم يوصِ إلى أحد غيرها ، وإذا كان له ولد ، حتى في الرحم ، لكان أوصى إليه ، وهذا ما لم يحدث .

من هنا يمكننا القول ، إذا استثنينا شذمة قليلة ، ان إجماع الشيعة في القرن الثالث والقرن الرابع كان قائما على عدم الإيمان بوجود (محمد بن الحسن العسكري) ، وقد ذكر ذلك عامة مؤرخي الشيعة كالنوبختي والاشعري والكليني والنعماني والصدوق والمفيد والطوسي ، الذين أطلقوا على ذلك العصر اسم : "عصر الحيرة".

الفصل الثالث

كيف نشأت نظرية المهدي الثاني عشر؟

الجزء الثاني

الفصل الثالث

كيف نشأت فرضية

المهدي الإمام الثاني عشر؟

المبحث الأول

تناقض (الغيبة) مع فلسفة الإمامة

لكي نفهم موضوع (الغيبة) على حقيقته، لا بد أن نفهم أولا نظرية (الإمامة الإلهية) كما كان يقول بها المتكلمون الاماميون الأوائل الذين أسسوا لها . تقول نظرية (الإمامة) : إن الأرض لا يجوز أن تخلو من إمام (أي من حكومة ودولة) وان الإمام ، (أي الرئيس أو الخليفة أو القائد الأعلى) ، يجب أن يكون معصوما ومعينا من قبل الله ، وان الشورى باطلة ولا يجوز انتخاب الإمام من قبل الأمة ، وتقول النظرية الموسوية (المتفرعة عن الامامية و الموازية للفتحية) : إن الإمامة تتسلسل بشكل وراثي عمودي في ذرية علي والحسين الى يوم القيامة .

ومن هنا فقد افترض المتكلمون الاماميون وجود وولادة (ابن) للإمام الحسن العسكري ، بالرغم من عدم وجود أدلة تاريخية كافية ، ورفض بعضهم الإيمان بإمامة جعفر بن علي الهادي ، لعدم جواز الجمع بين أخوين بعد الحسن والحسين، وقالوا : لا بد أن يكون قد ولد الإمام الحجة بن الحسن العسكري ، وإن أباه قد أخفاه عن أعين الناس .

ولكن السؤال الكبير الذي فرض نفسه هو: إذا كانت الإمامة محصورة في هذا الشخص ، ولا تجوز لغيره من الناس العاديين غير المعصومين وغير المعينين من قبل الله تعالى ، فلماذا يغيب ويختفي ولا يظهر ليقود الشيعة والمسلمين، ويؤسس الحكومة الإسلامية التي لا بد منها؟ ما دام أن الأرض لا يجوز أن تخلو من إمام ، والإمام الغائب لا يمكن أن يمارس إمامته وقيادته للناس ؟. وما هو السر في الغيبة ؟ وإلى متى يغيب؟ وما هو واجب الشيعة في حالة الغيبة؟

لقد كانت النتيجة الطبيعية واللازمة لذلك الفكر هو مبدأ (الانتظار) وتحريم النشاط السياسي في (عصر الغيبة) وهو المبدأ الذي ساد قرونا طويلة من الزمن ، ولا يزال بعض آثاره مستمراً، بالرغم من القول بنظرية (النيابة العامة وولاية الفقيه) حيث انتهت نظرية المتكلمين المثالية إلى غيبة الشيعة عن الحياة وافتقارهم للإمامة ، لعدم ظهور (الإمام المعصوم). وهذا ما شكل تناقضا صارخا مع فلسفة الإمامة التي تقول بوجوب الإمام في الأرض، ووجوب كونه معصوما، ووجوب تعيين الله له في كل زمان ومكان ، من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية وقيادة المسلمين والإفتاء لهم وحل مشاكلهم التشريعية .

وكان الشيعة الامامية (الموسوية) قد خاضوا تجربة مرّة مماثلة مع (الحركة الواقفية) التي ادعت غيبة الإمام موسى الكاظم ، ووقفوا منها موقفا رافضا ، وذلك لتناقض الغيبة مع فلسفة الإمامة ، حيث قال لهم الإمام علي بن موسى الرضا : " سبحان الله !.. يموت رسول الله ولا يموت موسى !.. قد والله مضى كما مضى رسول الله " .^{٣٦٢} واتهم الواقفية الذين زعموا أن أباه لم يموت ، بالكذب والكفر بما أنزل الله عز وجل على محمد (ص) وقال : " لو كان الله يمد في أجل أحد من بني آدم لحاجة الخلق إليه ، لمدّ الله في أجل رسول الله (ص) " .^{٣٦٣}

واخذ الإمام الرضا يناقش (الواقفية) في معنى "الإمام" وفائدة قولهم بالإمامة ، إذا كانوا يعلقون التزامهم بإمام غائب لا وجود له في الحياة ، وينبهم إلى ضرورة التفاعل مع الإمام الحي الظاهر ، وينقل عن آبائه قولهم : " إن الحجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام حي يُعرف . ومن مات بغير إمام مات ميتة

^{٣٦٢} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٣٨٠

^{٣٦٣} - الكشي، الرجال، ص ٣٧٨

جاهلية.. إمام حي يعرفه. وقد قال رسول الله (ص): من مات وليس له إمام يسمع له ويطيع مات ميتة جاهلية. ومن مات وليس عليه إمام حيّ ظاهر مات ميتة جاهلية.. إمام حيّ".^{٣٦٤} مما يكشف عن رفض الإمام الرضا لنظرية الغيبة في أيام الإمام ، وذلك لسقوط الحجّة عن الناس في حالة الغيبة ، وضرورة حضور الإمام بينهم ومعرفتهم له ، والاستماع إليه وطاعته ، والتفاعل معه ، إذا كان يجب على الله ان يبعث إماما من قبله.

إذاً فإن الغيبة تشكل تناقضاً صارخاً مع (ضرورة وجود الإمام) الذي يفترض ان يتصدى لقيادة المسلمين ، ولا يجوز له ان يغيب عن الساحة . فإذا قلنا مثلاً ان الدولة يجب ان تعين ضابطاً للمرور في التقاطع الفلاني ، ورأيناه غائباً والمرور مشتبكاً ، فان غيابيه يشكل تناقضاً مع قولنا (لا بد ان تعين الدولة ضابطاً)، ولا يفيد وجوده خلف ستار الغيب ، لأن المرور أصبح مشتبكاً ومعقداً وفوضوياً . وهذا أمر عقلي بديهي وواضح ، لا يمكن التغاضي عنه ، أو تجاهله أو تبريره ببعض الأخبار الضعيفة. ولكن أركان نظرية (الغيبة) رفضوا استخدام العقل هنا بالرغم من استخدامه في تثبيت المقدمات الأولى : (ضرورة وجود الإمام ، وضرورة كونه معصوماً ، وضرورة كونه معيناً من قبل الله) وقد اخرج احمد بن إسحاق القمي (أحد أركان نظرية الغيبة) كتاباً عن (الإمام الحجة ابن الحسن) قال : انه أرسله إليه ، جواباً عن رسالة كان قد بعثها إليه ، واستفسر فيها عن علة الغيبة، وقد جاء في ذلك الكتاب (التوقيع): " لا تسألوا عن أشياء ان تبدل لكم تسؤكم " ! وبناء على ذلك فقد قال الشيخ الصدوق : " ان الله لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. ولا يقال له : لم؟ ولا كيف؟.. وهكذا إظهار الإمام ، الى الله الذي غيبه، فمتى أرادته أذن فيه فظهر " .^{٣٦٥}

وقال أيضاً: " لا يصح إيمان عبد حتى لا يجد في نفسه حرجاً مما قضى، ويسلم في جميع الأمور تسليمًا، ولا يخالطه شك ولا ارتياب، والإسلام هو الاستسلام والانقياد. ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " .^{٣٦٦}

وروى الصدوق حديثاً عن الإمام الصادق يعتذر فيه عن بيان وجه الحكمة في (غيبة صاحب الأمر) وذلك لأمر لم يؤذن له بكشفه للناس ، ويقول: " ان وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلا بعد ظهوره.. وانه أمر من أمر الله ، وسرٌّ من سرِّ الله ، وغيب من غيب الله " .^{٣٦٧}

^{٣٦٤} - الكيني، الكافي، ج ١ ، ص ١٧٧ والحميري ، قرب الإسناد، ص ٢٠٣

^{٣٦٥} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٨٨

^{٣٦٦} - المصدر نفسه، ص ٥٣١

ورفض الشيخ المفيد سلوك طريق العقل والاعتبار في التحري عن سبب الغيبة ، وقال: " ان المصلحة لا تُعرف إلا من جهة علام الغيوب ، المطلع على الضمائر، والعالم بالعواقب ، الذي لا تخفى عليه السرائر".^{٣٦٨}

وطالب الكراجكي الشيعة بالكف عن التفكير في هذه المسألة ، بعد الإيمان بوجود الإمام وعصمته، وانه لا يفعل شيئاً إلا بإذن الله. والتسليم لكل خطوة أو فعل أو موقف يتخذه (الإمام المعصوم) حتى مع عدم معرفة الأسباب والأغراض، وقال: " انه ليس يلزمنا معرفة هذا السبب ولا يتعين علينا الكشف عنه ، ولا يضرنا عدم العلم به".^{٣٦٩} ونفى الشيخ الطوسي الحاجة الى تكلف الكلام في سبب غيبة الإمام بعد ثبوت وجوده.^{٣٧٠}

وبعد اعتراف أركان نظرية (الغيبة) بعدم وجود تفسير معقول وأكد للغيبة ، لا تبقى حاجة لمناقشة الروايات والنظريات المختلفة، التي قدموها لتبرير الغيبة، بالحكمة المجهولة ، أو بتمحيص الشيعة وغربلتهم ، أو بخوف صاحب الزمان على حياته من القتل ، فان روايتها غلاة وضعاف ، ومضمونها لا ينطبق على (محمد بن الحسن العسكري) .

وقد اعرض معظم الكتاب الذين ألفوا حول الغيبة كالمفيد والمرتضى والطوسي ، عن تبني نظرية (التمحيص) ما عدا الشيخ الصدوق الذي اهتم بها بعض الشيء ، وان لم يتبنها تبنيًا كاملاً ، خاصة بعد انقراض الجيل الأول الذي تعرض للتمحيص حتى لم يبق منه أحد .

ولذا فمن الضروري التوقف فقط ، عند نظرية الخوف ، التي فسر بها بعض المتكلمين كالسيد المرتضى والشيخ الطوسي والكراجكي حالة (الغيبة) . وقد اعتمد القائلون بنظرية الخوف على مجموعة روايات ضعيفة السند وعامة لا تحدد اسم القائم ، وهي مروية عن زرارة عن الإمام الصادق (ع) قبل أكثر من مائة عام من وفاة الإمام الحسن العسكري .

ولم يمكن اللجوء الى نظرية الخوف في تفسير الغيبة ، إلا بعد القول بمجموعة من النقاط الافتراضية الوهمية ، كتحديد هوية الإمام المهدي من قبل ، وهو أمر أثبتنا في الفصل الثاني عدم صحته ، وكذلك

^{٣٦٧} - الصدوق، علل الشرائع ، ص ٢٤٦ ، والأمالى، ص ٤٢٦

^{٣٦٨} - المفيد، الفصول المختارة ، مسألة من الغيبة، ص ٢٦٦ و ٢٦٩

^{٣٦٩} - الكراجكي، كنز الفوائد، ج ١ ، ص ٣٧١

^{٣٧٠} - الطوسي، الغيبة، ص ٣ - ٤

افتراض وجود توتر سياسي بين البيت العلوي والبيت العباسي الحاكم ، وهذا ما سوف ننفيه في هذا الفصل ، والقول أيضا بفكرة خاتمية المهدي للأئمة الاثني عشر ، وهذه نظرية لم تكن موجودة في البداية ، وقد ظهرت في القرن الرابع الهجري ، و القول كذلك بجرمة استعمال الإمام المهدي للتقية وإخفاء هويته حتى يوم ظهوره ، وهو أمر لا ينسجم مع سياسة الأئمة السابقين ولا مبرر له.

ومع كل ذلك فقد كانت نظرية الخوف بعيدة جدا عن أخلاق أهل البيت (ع) وحبهم للشهادة في سبيل الله ، وهي تثير تساؤلات كبيرة حول السر وراء عدم حفظ الله تعالى للمهدي ، على فرض وجوده ، كما حفظ النبي موسى وأنجاه من فرعون ، وكما حفظ الرسول الأعظم (ص) المبشر به من قبل .

وبالرغم من عدم تحديد الأئمة من أهل البيت (ع) لهوية المهدي من قبل ، فان التسليم بهذه المقولة، جدلاً ، يثير تساؤلاً عن السر وراء إعلان أهل البيت لإسم القائم من قبل ، إذا كانوا يعرفون انه سيتعرض للضغط؟ ولماذا لم يتركوه سراً لحين موعد القيام ، حتى يجنبوا المهدي ملاحقة الأعداء منذ الولادة والطفولة؟

وإذا صحت نظرية الخوف من الأعداء فلماذا يستتر المهدي عن أوليائه؟ ولقد قام مئات الملايين من الشيعة عبر التاريخ بانتظار (الإمام المهدي) وإعلان الاستعداد لنصرته ، وقامت لهم دول تتبنى الإيمان به ، فلماذا لم يظهر مع ارتفاع الخوف بالتأكيد؟

وهذا سؤال طرحه بعض رؤساء الدولة البويهية الشيعية التي قامت في القرن الرابع الهجري ، على الشيخ المفيد ، وطالبه بالإجابة عليه ، فأحال المفيد الإجابة على الله وقال: " ان سرَّ الغيبة لا يعلمه إلا هو " ، واعترف بكثرة الشيعة في ظل الدولة البويهية ، ولكنه شكك في صدقهم وشجاعتهم وتقواهم .
٣٧١

والآن.. وبعد مضي أكثر من ألف عام على القول بنظرية (الخوف) في تبرير (الغيبة).. وبعد سقوط عشرات الدول وقيام أضعافها ، فان تلك النظرية تبدو بعيدة جدا عن الواقع ، وعارية عن أية مصداقية ، ولا تشكل سوى فرضية وهمية لتبرير فرضية وجود الإمام (محمد بن الحسن العسكري) وتناقض غيبته مع مسئولية الإمامة الملقاة على كاهله من الله . وهذا ما يثبت عدم صحة فرضية ولادة ووجود (الإمام الحجة بن الحسن). وإلا فلو كان حقاً موجوداً لكان يجب عليه الظهور والقيام عند أول فرصة تسمح له بذلك ، وعدم جواز إبقاء الأمة مهملة بدون قيادة شرعية .

لقد طالب أصحاب نظرية الخوف ، الشيعة ، بأن يزيلوا الأسباب التي دفعت (الإمام المهدي) الى الغيبة ، وذلك بتمكينه وإعداد العدة لنصرته ، أو العزم على نصرته ومعاضدته والانقياد له والكف عن نصرة الظالمين ، ودعوته للخروج ، وقال السيد المرتضى في (الشافي): " ان المكلفين متمكنون مما إذا فعلوه زالت تقية الإمام وخوفه، ووجب عليه الظهور.. وقد بينا ان سبب الغيبة هو فعل الظالمين ، وتقصيرهم فيما يلزم من تمكين الإمام فيه والإفراج بينه وبين التصرف فيهم، وبيننا انهم (الشيعة) مع الغيبة ، متمكنون من مصلحتهم ، بأن يزيلوا السبب الموجب للغيبة ليظهر الإمام وينتفعوا بتدبيره وسياسته".^{٣٧٢}

وقد زال الخوف اليوم ، وأزال الشيعة الأسباب التي دفعت الإمام الى الغيبة ، وأعدوا العدة لنصرته ، وعزموا على معاضدته والانقياد له والكف عن نصرة الظالمين ، ودعوه للخروج ، ولكنه لم يخرج ! بالرغم من قول السيد المرتضى بوجوب الظهور عليه في هذه الحال.

وكان الشيخ الصدوق قد رفض التصديق بقول الواقفية، في غيبة الإمام الكاظم ومهدويته، لأن عمره كان قد تجاوز يوم ذاك العمر الطبيعي المعهود ، ومع ذلك فقد روى هو والطوسي روايات تقول بأن عمر المهدي قد يطول مثل عمر نوح ، وجواز ان ينقض الله العادة لضرب من المصلحة.^{٣٧٣}

المبحث الثاني

الوضع السياسي العام عشية (الغيبة) وغداها

القسم الأول: النظام العباسي

امتاز العهد العباسي الثاني ، بسيطرة الموالي الأتراك على شؤون الخلافة ، والتدخل في تعيين الخلفاء وإزالتهم ، حيث قتل (باغر) التركي المتوكل، نتيجة صراعات داخل البيت الحاكم ، وخلافات بين أركان السلطة والقوات المسلحة.^{٣٧٤} وورث عرش الخلافة من المتوكل ابنه محمد المنتصر ، وله من العمر ٢٥ سنة ، ولكنه لم يستمر في الخلافة أكثر من ستة اشهر حتى توفي.^{٣٧٥} ثم قام قائدا الأتراك (وصيف) و(بغا) بعد وفاة المنتصر بقتل (باغر) الذي قتل المتوكل ، وجاءا بالمستعين الى سدة الخلافة ، والسيطرة

^{٣٧٢} - المرتضى، الشافي، ج ١ ، ص ١٤٧

^{٣٧٣} - الطوسي، الغيبة، ص ٧٦ و ٧٨

^{٣٧٤} - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ، ص ٣٨

^{٣٧٥} - المصدر، ص ٥٢

عليه ، بحيث لم يكن له من الأمر شيء غير الاسم ، حتى قال بعض الشعراء فيه: " خليفة في قفص بين وصيف وبغا ، يقول ما قالوا له كما يقول البيغا".^{٣٧٦}

وقام المستعين باعتقال أخويه المعتز والمؤيد ، ثم ارتبك عليه الوضع فانحدر الى بغداد ، فقام الموالي بإخراج المعتز والمبايعه له والانقياد الى خلافته ومحاربة المستعين وناصرية (وصيف وبغا) ببغداد ، فبايعوه ، وذلك في ١١ / محرم / ٢٥١ هـ ، وأحدر المعتز أخاه أحمد مع عدة من الموالي لحرب المستعين الى بغداد ، مما اضطر المستعين الى الاستقالة من الخلافة يوم الخميس ٣ محرم ٢٥٢ هـ وسلم الخلافة الى المعتز الذي بويع له ، وله يومئذ ١٨ سنة ، وعين أخاه المؤيد وليا للعهد ، ولكنه سرعان ما حبسه لأنه سمع أن المؤيد يتآمر عليه ، ثم خلعه .^{٣٧٧}

وقام المعتز بقتل وصيف وبغا ، ومال الى المغاربة والفراغنة ، فنقم عليه الأتراك وثاروا عليه واجبروه على الاستقالة في أواخر شهر رجب سنة ٢٥٥ هـ ، بعد ان حكم حوالي أربع سنين وستة اشهر ، وحاول محمد بن الواثق ان يتوسط بينه وبين الأتراك ، فقال له المعتز يائساً: أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا اصلح له . وحاول المهتدي ان يتوسط أيضا فقال له المعتز: لا حاجة لي فيها ولا يرضوني لها . وقتل في محبسه بعد ستة أيام من الاستقالة .^{٣٧٨}

وقد نصب الأتراك بعد استقالة المعتز ، المهتدي محمد بن هارون الواثق ، وكان له من العمر ٣٧ سنة ، وحكم حوالي عام ، من ٢٩ رجب ٢٥٥ هـ الى ١٦ رجب ٢٥٦ هـ ، حيث قتل على أيدي الأتراك .

وكان موسى بن بغا الكبير ، عندما قتل المعتز ، غائبا ، بينما كان صالح بن وصيف ، يدير الأمر مع المهتدي ، فعاد موسى مسرعا ودخل (سرّ من رأى) بدون إذن الخليفة المهتدي ، وقتل صالح بن وصيف .^{٣٧٩}

وفي هذه الأثناء تمرد (مساور الشاري) ودنا في عسكره من سامراء ، وعم الناس بالأذى ، وانقطعت السابلة وظهرت الأعراب ، فأخرج المهتدي ، موسى بن بغا ، وبايكال ، الى حرب الشاري ، ولكنهما عادا ، ليهاجم بايكال الخليفة المهتدي ، وتكون بينهما حرب عظيمة قتل فيها خلق كثير من الناس .

^{٣٧٦} - المصدر، ص ٦٠ - ٦١

^{٣٧٧} - المصدر.

^{٣٧٨} - المصدر.

^{٣٧٩} - المصدر ، ص ٩٨

وبعد أن قتل المهدي بايكال في المعركة، انهزم أمام أصحابه ، فدخل سامراء مستغيثا بالعامة مستنصرًا بالناس يصيح في الأسواق فلا مغيث ، فمضى يائسا من النصر، الى دار ابن خيعونة متخفيا ، فهجموا عليه و طعنوه بالخناجر ، وذلك في ١٦ رجب سنة ٢٥٦ هـ.

وفي ظل حكم هذا الخليفة الضعيف، يقال ان (محمد بن الحسن العسكري) قد ولد، سرًا، وكنم أبوه الخير خوفا من بطشه.

وقد بويع بعد ذلك للمعتمد احمد بن جعفر المتوكل ، وهو ابن ٢٥ سنة ، وبقي في الخلافة ٢٣ سنة الى ان توفي سنة ٢٧٩ هـ ، وقد كان ضعيفا جدا مشغوبا بالطرب ، والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي .. وبايع المعتمد لابنه جعفر وسماه المفوض الى الله ، ولكن أخاه أبا احمد الموفق غلب على الأمور وتديرها فحظر على أخيه المعتمد وحبسه ، فكان أول خليفة يقهر ويجبس ويحجر عليه ، وعندما توفي الموفق قام ابنه المعتضد بأمور الناس في التدبير وخلع جعفر من ولاية العهد سنة ٢٧٨ ، واصطبح المعتمد في ١٩ رجب ٢٧٩ وتغدي غداء مسموما فمات.. ودخل إسماعيل بن حماد القاضي الى المعتضد وعليه السواد فسلم عليه بالخلافة .^{٣٨٠}

وقد توفي الإمام الحسن العسكري في عهد المعتمد سنة ٢٦٠ هـ ، وحدثت (الغيبة) والحيرة، والخليفة المعتمد يبلغ من العمر حوالي ثلاثين سنة.

وتوفي المعتضد في ٢٢ ربيع الثاني سنة ٢٨٩ هـ فخلف ابنه علي المكتفي بالله ، الذي بويع له بالخلافة وله من العمر ٢٥ سنة ، فكان شابا ضعيفا ، فغلب عليه القاسم بن عبيد الله وفاتك مولاه ، ثم غلب عليه بعد وفاة القاسم وزيره العباس بن الحسن وفاتك.^{٣٨١}

وعاش الخلفاء العباسيون بعد ذلك سلسلة من الصراعات الداخلية الدموية العنيفة على السلطة ، فيما بينهم وبين الموالي والأتراك ، فقد قتل المقتدر عام ٣٢٠ هـ في الواقعة التي كانت بينه وبين مؤنس الخادم في بغداد ، وبويع للقاهر بالله بعده ، ثم خلع بعد اقل من عامين وسمت عيناه في ٣٢٢/٥/٥ هـ وبويع للراضي بالله بعده ، الذي حكم حوالي خمس سنين ومات حتف انفه في ٣٢٩/٣/١٠ هـ ، ولكن

^{٣٨٠} - المصدر، ص ١٤١

^{٣٨١} - المصدر ، ص ١٨٧

عصره شهد سيطرة الموالي و (بجكم) التركي الذي ضرب الدنانير والدرهم ووضع صورته عليها وهو شاكي السلاح مع كتابة هذه الجملة " إنما العز فاعلم ، للأمير المعظم ، سيد الناس بجكم " .^{٣٨٢}

وبويع بعده للخليفة المتقي بالله في ٣٢٩/٣/١ هـ ، وظل في الخلافة حوالي أربع سنين ، ثم خلع وسمت عيناه في ٣٣٣/٤/٣ هـ ، وذلك بسبب استعاضته بالحمدانيين وتفويض الملك إليهم ، مما اغضب الأتراك وزعيمهم توزون الذين سيطروا على بغداد سنة ٣٣٢ فتأمروا على المتقي وخلعوه وأرسلوا الى عبد الله بن علي المستكفي وبايعوه بالخلافة في ٣٣٣/٢/٣ هـ ، ولكنه خلع بعد عام وسمت عيناه أيضا ، وذلك على يدي احمد بن بويه الديلمي ، الذي اتهمه بمكاتبة بني حمدان واطلاعهم على أسرارهم ، وولى المطيع مكانه في ٢٣ / شعبان / ٣٣٤ هجرية.

القسم الثاني: وضع المعارضة

كما شاهدنا في القسم الأول ، كان من ابرز خصائص العصر العباسي الثاني: التفسخ والانحلال ، وقد نشأ من ضعف الخلافة وعدم امتلاكها زمام الأمور.. فصار أي واحد من أمراء الأطراف في الدولة الإسلامية الواسعة غير مقيد بالارتباط الوثيق بالعاصمة ، ان شاء كان مواليا ، وان شاء أصبح مستقلا وناجز الآخرين ، فكانت الحروب تدور في الأطراف بين الأمراء والولاة.

ومن أوضح تلك الموارد، الأندلس ، التي استقلت تلك الفترة بالخلافة تحت حكم عبد الرحمن الناصر الأموي ، وكان الشمال الأفريقي مستقلا الى حد كبير تحت إمرة آل الأغلب ، وكانت بلاد فارس والعراق مسرحا خصبا لجيوش يعقوب بن الليث الصفار وحروبه من سنة ٢٥٣ الى ان توفي سنة ٢٦٥ ، حيث خلفه أخوه عمرو بن الليث ، وفي عام ٢٦١ استقل الى حد كبير نصر بن احمد الساماني ببلاد ما وراء النهر حتى توفي عام ٢٧٠ ، ولم تكن الأطراف القريبة من العاصمة (سر من رأى) بأحسن حالا من الأطراف البعيدة ، فقد كانت أيضا مسرحا لمصالح العمال والقواد من ناحية ، ومسرحا لنشاط الخوارج والزنج ثم القرامطة من ناحية أخرى.

وكان الخليفة المعتمد الذي كان مولعا بالطرب والملاهي وشرب الخمر ، بالخصوص ، ضعيفا الى درجة كبيرة بحيث لم تبق معه من الخلافة إلا صورتها بلا واقع.. لا حل له ولا عقد .

^{٣٨٢} - المصدر ، ص ٢٤٥

وشهد هذا العصر سلسلة من ثورات الشيعة والعلويين بمختلف فئاتهم وأحزابهم ، رغم ان بعض الخلفاء العباسيين بدأ يميل الى التشيع أو يتعاطف مع العلويين بصورة كبيرة ، فقد كان النظام يتفسخ ويتفتت ، وربما حدث الصراع داخل البيت العباسي نفسه.

الثورات العلوية عشية (الغيبة)

يقول المسعودي في (مروج الذهب): " في عام ٢٥٠ هـ ظهر ببلاد طبرستان الحسن بن زيد العلوي ، فغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب كثيرة وقتال شريراً.. وظلت في يده الى ان توفي سنة ٢٧٠ فخلفه أخوه محمد بن زيد ، الى ان حاربه رافع بن هرثمة ، ودخل محمد بن زيد الديلم في سنة ٢٧٧ فصارت في يده وبإيعه بعد ذلك رافع بن هرثمة وصار في جملته وانقاد الى دعوته والقول بطاعته.. وكان الحسن ومحمد يدعوان الى الرضا من آل محمد، وكذلك من طراً بعدهما ببلاد طبرستان، وهو الحسن بن علي الحسيني ، المعروف بالأطروش " . ٣٨٣

وفي نفس الوقت (سنة ٢٥٠) ظهر بالري محمد بن جعفر ودعا للحسن بن زيد صاحب طبرستان . كما ظهر بقزوين الكركي ، وهو ثائر علوي آخر، ثم التحق بالحسن بن زيد. وظهر بعده بالري علوي آخر هو : احمد بن عيسى ، ودعا الى الرضا من آل محمد ، وسيطر على الري. كما ظهر بعد ذلك بعام الحسين بن محمد العلوي بالكوفة ، وأجلى عنها عامل الخليفة . وثار بعده علوي آخر هو : محمد بن جعفر. وفي عام ٢٥١ ثار علي بن عبد الله الطالبي المسمى بالمرعشي في مدينة أمل. كما ثار الحسين بن احمد الأرقط بقزوين ، وظل مستولياً عليها حتى عام ٢٥٢ ، كما استولى على الري أيضاً . ٣٨٤

وقد تم كل ذلك في ظل تدهور الأمور أيام الخليفة المستعين الذي اختلف مع أهل بيته ، وانحدر الى بغداد ، فاضطرب عليه الموالي وحاربوه واجبروه على خلع نفسه ، وتمت البيعة للمعتز.

٣٨٣ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ، ص ٦٨

٣٨٤ - المصدر

وفي عام ٢٥٢ هـ ، في ظل خلافة المعتز، الشاب الذي لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره ، ثار العلوي: إسماعيل بن يوسف ، في المدينة. وخلفه بعد وفاته أخوه محمد بن يوسف ، ثم سار الى الإمامة والبحرين واستولى عليها ، و خلف بها عقبه المعروف ببني الأخضر.^{٣٨٥}

وفي خلافة المهدي سنة ٢٥٥ ظهر صاحب الزنج في البصرة.

وفي عام ٢٥٦ هـ خرج في مصر ، العلوي إبراهيم بن محمد، المعروف بابن الصوفي . كما ثار علي بن زيد في الكوفة ، وقاتل بعكبرا ، حتى قتل سنة ٢٥٧ هـ .

وفي سنة ٢٥٧ ظهر القرامطة في البحرين وامتدوا الى البصرة والعراق والجزيرة.

وقد تفجرت في الري ثورة شيعية بقيادة احمد بن الحسن المادرائي الذي سيطر عليها في عهد المعتمد ، في عام ٢٧٥ ، وظهر فيها التشيع وأقام حكومة شيعية.^{٣٨٦}

الثورات الإسماعيلية في اليمن وشمال أفريقيا

وكان (الحسين بن حوشب) قبل ذلك ، وبعد سنوات قليلة من وفاة الإمام العسكري ، وذلك في سنة ٢٦٦ هـ قد استطاع ان يؤسس في اليمن ، أول حركة إسماعيلية ناجحة ، ويجمع حوله عددا كبيرا من قبائل اليمن ، ويظهر بينهم الدعوة لـ : (المهدي الإسماعيلي) الذي كان يعيش مستترا في مدينة سلمية في سوريا ، ويؤسس أول دولة إسماعيلية في التاريخ. ثم أرسل ابن حوشب : الداعي (أبا عبد الله الشيعي) الذي كان قد انسحب من الفرقة القائلة بوجود (محمد بن الحسن العسكري) والتحق بالإسماعيلية ، وكان يعمل محتسبا في بغداد ، أرسله الى شمال أفريقيا للدعوة الى الإمام الإسماعيلي المستتر (عبيد الله المهدي) . واستطاع أبو عبد الله في ظل ضعف الدولة العباسية ، ان يكسب تأييد قبيلة كتامة ، ويسيطر على المغرب ويكتسح نفوذ بني الأغلب ، ويقضي على دولتهم في القيروان في تونس عاصمة أفريقية ، ويؤسس الدولة الفاطمية ، التي امتدت بعد ذلك الى مصر وسوريا والحجاز، وذلك في سنة ٢٩٦ في عهد الخليفة العباسي المقتدر ، الذي بويع وله من العمر ١٣ عاما ، وكان الإمام المهدي الإسماعيلي يقود نشاطاته المعارضة للدولة العباسية ويعمل على إسقاطها ، وبعد نجاحه في تفجير الثورة في اليمن

^{٣٨٥} - المصدر ، ص ٩١

^{٣٨٦} - الحموي، ياقوت، معجم البلدان، أحداث سنة ٢٧٥ هـ

على يدي الداعي بن حوشب ، استطاع ان يفجر الثورة في واسط في العراق ، على يدي أحد أتباع المذهب الإسماعيلي: (حمدان بن قرمط) الذي اكتسح جنوب العراق والجزيرة العربية وامتد الى سوريا .

تعاطف الخلفاء العباسيين مع العلويين

ونتيجة لذلك ، فقد كانت سياسة المعتضد لينة مع العلويين كسياسة من سبقه من الخلفاء العباسيين ، بالرغم من خروج الداعي في طبرستان واستقلاله بالسلطة هناك. يقول المسعودي: ان الداعي العلوي بعث بمال الى عاصمة الخلافة لكي يوزع على آل أبي طالب فيها ، فعلم الخليفة المعتضد بذلك ، فلم يستطع ، أو لم يشأ ان يعارض ذلك ، بل أرسل الى الرجل المكلف بالتوزيع وأحضره ، وأنكر عليه إخفاء ذلك ، وأمره بإظهاره ، وقرب إليه آل أبي طالب ، و ادعى الخليفة المعتضد انه كان قد شاهد الإمام علي في الرؤيا قبل ان يصل الى الخلافة وقال له: ان هذا الأمر سيصل إليك فلا تتعرض لولدي ولا تؤذهم ، فقال : السمع والطاعة.^{٣٨٧}

ويروي المجلسي عن محمد بن جرير الطبري : ان المعتضد ، الذي ولي الخلافة بعد المعتمد ، عزم على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر ، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس.^{٣٨٨}

واخفق المعتضد في مسعاه لمقاومة الحركة القرمطية ، إذ أرسل جيشا لقمعها فهزم واسر قائده ، وكان القرامطة يزحفون على البصرة تارة وعلى بغداد تارة ، وعلى الحجاز تارة أخرى. ونودي بزعيم لهم هو (صاحب الناقة أبو عبد الله محمد) خليفة وتسمى بأمر المؤمنين ، ثم هجموا على الشام وظهروا فيها سنة ٢٨٩ هـ ، وظل خطرهم جاثما على المنطقة حتى نهبوا الكعبة وسرقوا الحجر الأسود وقتلوا آلافا من الحجاج سنة ٣١٧ هـ ، ثم نهبوا البصرة واحتلوا الكوفة ، واضطر الخليفة المعتضد ان يعقد معهم الهدنة ويؤدي لهم (مائة وعشرين ألف دينار) كل عام .

وفي عهد الخليفة الطفل ، المقتدر بالله ، أصيبت الدولة العباسية بالضعف الشديد داخليا وخارجيا ، واحتل الروم ساحل الشام ومدينة اللاذقية سنة ٢٩٨ هـ ، وظهر محسن بن جعفر بن علي الهادي في دمشق سنة ٣٠٠ هـ ، ولكنه هزم وقتل بعد ذلك .

ومنذ ذلك الحين شهد العصر العباسي سيطرة البويهيين (الشيعة) على مقاليد السلطة في عاصمة الخلافة العباسية بغداد ، حيث كانوا ينصبون الخلفاء ويعزلونهم .^{٣٨٩}

^{٣٨٧} - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ، ص ٩١

^{٣٨٨} - المجلسي، بحار الأنوار، المجلد الثامن من الطبعة الحجرية، ص ٥٢٣

إذا ، فان الظروف المحيطة بـ : (الغيبة) من قبل ومن بعد ، لم تكن تنطوي على أي مبرر للخوف والتقية ، بحيث يخفي الإمام الحسن العسكري مولد ابنه ويكتمه بالمرّة ، ولم يكن من العسير على (محمد بن الحسن العسكري) لو كان موجوداً فعلاً ، ان يظهر هنا وهناك . وحتى لو كان قد أعلن عن نفسه منذ البداية انه (المهدي المنتظر) لم يكن يصعب عليه اللجوء الى أطراف الدولة العباسية ويحتبئ بالجبال والغابات ، وان يتحدى السلطات العباسية الضعيفة جدا ويقيم دولته المعهودة ، ويؤدي مسؤولياته في إمامة الشيعة والمسلمين . ومن المعروف ان الحكام البويهيين (الشيعة المؤمنين به) طالبوا الشيخ المفيد ان يخرج ويحكم بدل الخليفة العباسي ، كما خرج (المهدي الفاطمي) وحكم في شمال أفريقيا ، بعد ان كان مستترا ، فلم يجر المفيد جوابا ، بعد تحافت حكاية التقية والخوف على نفسه من القتل .

المبحث الثالث

ماذا في علامات الظهور؟

إضافة الى عدم وجود مبرر حقيقي للغيبة ، فان القائلين بها يتحدثون عن محاولات السلطة العباسية للتفتيش عن (الإمام المهدي) والقبض عليه ، ومع ذلك فانهم يتحدثون عن اختباء (المهدي) في بيت أبيه في عاصمة الخلافة (سامراء) ولمدة طويلة ، وهو ما يناقض فلسفة الغيبة المفترضة : (الخوف والتقية) ، حيث كان ينبغي لو صح وجوده ، ان ينأى عن قبضة السلطة بالاختباء في نواحي البلاد البعيدة .

وبما ان الغيبة مناقضة لفلسفة الإمامة ، خاصة بتلك الصورة الطويلة ، فقد كان القول بها في البداية يتأرجح بين ستة أيام أو ستة شهور أو ست سنين ، ثم تطور الى ثلاثين عاما أو أربعين عاما أو مائة وعشرين عاما ، حسبما تقول روايات كثيرة ينقلها الطوسي .^{٣٩٠}

^{٣٨٩} - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ، ص ٢٧٧

^{٣٩٠} - الطوسي ، الغيبة ، ص ٧٦ - ٧٨

ولم تكن مدة الغيبة تتصور أكثر من عمر الإنسان الاعتيادي ، ولذا فقد رفض الشيخ الصدوق قول (الواقفية) بغيبة الإمام موسى الكاظم ، لأنه كان قد تجاوز العمر الطبيعي في القرن الرابع الهجري ، أي أصبح له من العمر حوالي مائتي عام .

وعلى أي حال ، فإن الروايات التي تتحدث عن علامات الظهور ، تشكل دليلا إضافيا على عدم صحة نظرية (المهدي محمد بن الحسن العسكري) وذلك لأنها تتحدث عن علامات ظهور مضى عليها الزمان ، كالظهور بعد سقوط الدولة الأموية ، والانتقام من الأمويين . أو الظهور في العهد العباسي ، أو نهايته عند اختلاف ولد بني العباس فيما بينهم ، أو في أعقاب قتل (ذي النفس الزكية) كما تقول روايات أخرى يذكرها الطوسي والنعماني والكليني.

ويشير بعض الروايات الى ان (المهدي) سيفتح القسطنطينية التي استعصت على المسلمين قرونا طويلة ، وانه سيفتح الديلم والسند والهند وكابل والخزر . وكل هذه العلامات أو المهمات قد حدثت ولم يظهر المهدي الموعود ، مما يدل على عدم صحة الروايات أو ارتباطها بأشخاص آخرين.

ويتحدث بعض الروايات عن علامات تعجيزية لا تحدث إلا يوم القيامة أو بعد زوال الدنيا ، كركود الشمس وسط السماء وطلوعها من المغرب ، وامتداد اليوم الى ٢٤٠ ساعة ، وخروج أموات من قبورهم .

أو يتحدث عن معاجز تقنية كالحديث مع القائم ورؤيته عن بعد ، بما يشبه جهاز (البث التلفزيوني المباشر عبر الأقمار الصناعية) وقد حدث هذا الجهاز مؤخرا ، ولكن ليس على يدي القائم ، مما يحول دون اعتباره معجزة من معاجز (المهدي). أو حدوث بعض العلامات الغريبة التي تتنافى مع سنة الله في الحياة كولادة الذكور دون الإناث بالآلاف للشخص الواحد ، كما يقول المفيد .

ومن الجدير بالذكر ان جميع الروايات الواردة في هذا الشأن هي مرسلة أو مروية عن مجاهيل وغلاة ووضاعين ، وهي لا تذكر هوية القائم المهدي بالتحديد ، وإنما تشير إليه بصورة عامة ، مما يحتمل وضعها أو اختلاقها من قبل الحركات المهدوية السابقة في القرون الهجرية الأولى ، وبالتالي فإنها تشكل دليلا على تطور النظرية المهدوية ، وتطبيق أصحاب نظرية (المهدي محمد بن الحسن العسكري) تلك الأحاديث عليه.

دور الغلاة الباطنيين في صنع الفرضية (المهدوية)

بعد تهاافت الأدلة العقلية والنقلية والتاريخية التي قدمها أصحاب نظرية (وجود المهدي محمد بن الحسن العسكري) واتضح ان ذلك القول لم يكن إلا " فرضية اجتهدانية ظنية سرية" افترضها جماعة من الناس ، يأتي السؤال المحير الكبير : من كان وراء ذلك القول الغريب الافتراضي ؟.. وكيف استطاع أولئك الناس إحداثه ؟ وما هي مصلحتهم من وراء ذلك؟ وما هي أجواؤهم الثقافية والعقلية ؟ و لماذا اختاروا القول بوجود ولد للإمام العسكري ، بالخصوص ، من بين الخيارات العديدة التي كانت تواجه الشيعة الإمامية بعد الحيرة ؟ وكيف نجحوا في تسويق نظريتهم ؟

ل يمكن الإجابة على هذه الأسئلة ومعرفة حلولها بدقة ، إلا بالرجوع الى الورا ، وقراءة التاريخ الشيعي العام خلال القرون الثلاثة الأولى ، والإطلاع على جذور الحركات المهدوية السابقة وعلاقتها بالفرق الباطنية الغالية التي كانت تحاول إلصاق نفسها بأهل البيت (عليهم السلام) .

العلاقة بين الغلو والمهدوية في التجارب السابقة

كنا قد استعرضنا في الفصل الثاني من هذا الجزء، قصة نشوء حوالي عشرين حركة مهدوية ، وكان معظمها وليد الحركات المغالية ، وقد رأينا ان أول نظرية مهدوية في التاريخ الشيعي كانت تدور حول الإمام أمير المؤمنين (ع) وقد اختلقها الغلاة (السبئية) الذين كانوا يغالون في شخصية الإمام علي ويرفعونه الى درجة الربوبية .^{٣٩١}

أما النظرية الثانية فقد كانت حول محمد بن الحنفية ، وقد اختلقها الكيسانية المتأثرين بالسبئية الغلاة ، وخاصة (الكربية) منهم . وكان رجل من الكيسانية الغلاة اسمه (حمزة بن عمارة البربري) قد طور نظرية مهدوية ابن الحنفية ، فقال بألوهيته وبنوة ابن كرب ، وجعل من نفسه إماما مرتبطا بالسماء .^{٣٩٢}

^{٣٩١} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٢٢ ، والأشعري القمي، المقالات، ص ٢٠

^{٣٩٢} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٢٧ ، والأشعري القمي، المقالات، ص ٣٣

وقد تناسلت تلك الحركة المغالية ، بعد ذلك ، الى عدة فرق ، وقالت فرقة منهم تعرف بـ : (البيانية) بزعماء (بيان النهدي) قالت: بمهدوية أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وغلت فيه ، وادعى (بيان) النبوة عن أبي هاشم.^{٣٩٣}

كما قال قسم آخر من الكيسانية الغلاة يعرف بـ : (الجناحية) بمهدوية الثائر الطالبي عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار.^{٣٩٤}

وقد انتقلت عدوى الغلو من الكيسانية الى بعض الزيدية الذين قالوا بمهدوية (ذي النفس الزكية : محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن) حيث رفض قسم منهم الاعتراف بوفاته وقالوا بغيبته ، وحدث فيهم ما حدث في الحركة الكيسانية ، عندما قام رجل يدعى (المغيرة بن سعيد) بتطوير النظرية المهدوية وادعى الإمامة لنفسه في ظل (غيبه) ذي النفس الزكية ، ثم ترقى به الأمر الى ان ادعى انه رسول نبي ، وان جبرائيل يأتيه بالوحي من عند الله ، كما يقول النوبختي والأشعري.^{٣٩٥}

وتسربت روح الغلو بعد ذلك من (المغيرة) الى (الخطابية) أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأجدع ، الذين كانوا يغالون في الإمام الصادق ، ويؤلهونه ، وقد قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ورفضوا الاعتراف بوفاته في حياة أبيه ، وقالوا بمهدويته وغيبته.^{٣٩٦}

وبالقرب من أجواء الغلو اللامنطقية تلك ، قال فريق آخر من الشيعة الامامية الفطحية، بمهدوية (محمد بن عبد الله الأفطح بن جعفر الصادق) وكان هذا اغرب قول بالمهدوية في ذلك الزمان ، حيث نسب ذلك الفريق (المهدوية) الى شخص موهوم ليس له وجود ، نتيجة المرور في أزمة نظرية بعد وفاة (الإمام عبد الله الأفطح) دون عقب يخلفه في الإمامة ، وذلك بسبب إيمانهم بضرورة استمرار الإمامة في الأعقاب وأعقاب الأعقاب الى يوم القيامة، وعدم جواز الجمع بين أخوين في الإمامة .^{٣٩٧}

^{٣٩٣} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٢٩ و ٣١ و ٣٤ ، والأشعري القمي، المقالات، ص ٣٤ و ٣٧

^{٣٩٤} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٣٥ ، والأشعري القمي، المقالات، ص ٤٤

^{٣٩٥} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٦٣ ، والأشعري القمي، المقالات، ص ٧٧

^{٣٩٦} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٦٨ - ٦٩ ، والأشعري القمي، المقالات، ص ٨١

^{٣٩٧} - الأشعري القمي، المقالات ، ص ٨٨

وقد كان القول بوجود (محمد بن عبد الله الأفطح) في البداية ، مجرد فرضية فلسفية ، ولكنهم قاموا بعد ذلك بجياكة مجموعة من القصص الأسطورية حول اللقاء به ومشاهدته هنا وهناك ، واختلقوا بعض المعاجز للاستدلال الغيبي على وجوده.

والى جانب هؤلاء وأولئك.. كان فريق آخر من الشيعة الامامية المتأثرين بالغلاة وهم (الواقفية) يقولون بمهدوية الإمام موسى الكاظم (ع) وغيبته واستمرار حياته الى أمد غير منظور. وكان بعضهم يزعم ان الكاظم مات ثم قام بعد موته ، واختفى في موضع من المواضع السرية .^{٣٩٨}

وكما حدث في الحركتين الشيعيتين الكيسانية والزيدية، من استغلال بعض أقطابهما لفكرة المهدوية، وادعاء الإمامة أو النبوة ، قام واحد من (الواقفية) اسمه (محمد بن بشير الكوفي) بادعاء الخلافة و (النيابة الخاصة) عن الإمام الكاظم (الغائب) ، والالتقاء به في (غيبته) . وذلك من اجل الحصول على منافع مالية وسياسية ضخمة ، ثم نقل الخلافة الى ولده (سميع) والى من أوصى إليه سميع من بعده . وقال : "انه الإمام المفترض الطاعة على الأمة الى وقت ظهور موسى ، فما يلزم الناس من حقوقهم في أموالهم مما يتقربون به الى الله عليهم أداؤه إليه الى قيام القائم" .^{٣٩٩}

ويقول النوبختي والأشعري : ان محمد بن بشير كان على قدر كبير من الغلو والقول بالتناسخ والتفويض والإباحة.^{٤٠٠}

التفسير الباطني

الى جانب القول بالمهدوية والغلو في الأئمة ، الذي طبع قسما من المنتسبين للحركة الشيعية العريضة ، كان يوجد أيضا القول بالتفسير الباطني . وفي الحقيقة ان كثيرا من المقولات الباطلة لم تكن تستقيم إلا بهذا التفسير الباطني المقلوب للأحداث والأقوال ، ورفض الاعتراف بالحقائق التاريخية الظاهرية ، أو اختلاق حوادث وأشخاص لا وجود لهم ، كعدم الاعتراف بوفاة الإمام أمير المؤمنين ، أو وفاة محمد بن الحنفية ، أو وفاة ابنه أبي هاشم ، أو وفاة ذي النفس الزكية ، أو وفاة الإمام الصادق ، أو وفاة ابنه إسماعيل ، أو وفاة الإمام الكاظم ، واختلاق ولد لعبد الله الأفطح الذي مات دون خلف ظاهر ، والقول بوجود ولد له في السر أخفاه للتقية .

^{٣٩٨} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٨٠ ، والأشعري القمي، المقالات، ص ٩٠

^{٣٩٩} - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٨٣ - ٨٤ ، والأشعري القمي، المقالات، ص ٩١

^{٤٠٠} - المصدران،

وقد كان (الخطابية) أتباع (محمد بن أبي زينب الأجدع) ينسبون الى الإمام الصادق معاني الغلو الفاحشة ويقولون انه الله ، وقد حج جماعة منهم الى بيت الله الحرام ولبوا هكذا: (لبيك يا جعفر لبيك) فارتعش الإمام الصادق من قولهم وحرّ ساجدا الى الأرض، واستنكر قولهم اشد استنكار، ثم لعن أبا الخطاب ، فذهب أصحابه إليه واخبروه بلعن الإمام الصادق له ، فأجابهم بأن الإمام لا يلعنه شخصيا، وإنما يلعن رجلا آخر يحمل نفس الاسم في البصرة ، وقد كان هو يعيش في الكوفة. فعاد أصحابه الى الإمام الصادق في المدينة واخبروه بمقالة أبي الخطاب الكوفي ، فحدده الإمام بالاسم واللقب والمكان وجميع المواصفات الخاصة ، وكرر لعنه والبراءة من قوله. وعندما اخبره أصحابه بذلك لم يتراجع وظل مصرا على دعواه بالانتماء الى الشيعة والى الإمام الصادق ، ونسبة أقواله الى الإمام سرا ، وقال: ان الإمام لم يلعنه بهذه الصورة الدقيقة العلنية إلا لكي يحافظ على بقية الشيعة من آثار قول الألوهية ، تماما كما فعل الخضر الذي حرق السفينة لينقذها من الغصب والمصادرة ، وقرأ قوله تعالى: "أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر، فأردت ان أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا" الكهف ٧٩ . ٤٠١

وكان الباطنيون ينسبون كثيرا من الأقوال والآراء الى أئمة أهل البيت ، سراً وخلافا لما كان يعلن به أهل البيت ويقولوه أمام الملأ من الناس ، وبشكل يتعارض مع مواقفهم الحقيقية ، ولما كان الأئمة ينفون تلك الأقوال الغريبة ويستهجونها أو يرفضونها ، كان الباطنيون يتشبهون بأقوالهم ويفسرون نفي الأئمة لادعاءاتهم بالتقية وبخوف الأئمة من إعلان الحق والتحدث بما لا يحتمله الناس !.

وبغض النظر عن مناقشة دعوى (التقية) ونسبتها الى أهل البيت ، بهذه الصورة المناقضة لأمانة الكلمة والمحافظة على الرسالة ، فان الباطنيين استطاعوا لعب أدوار كبيرة في التاريخ الشيعي وتحريف الناس عن خط أهل البيت ، في كل زمان ، حتى جاء عهد الإمام الحسن العسكري ، الذي توفي عن دون ولد ظاهر ، وأوصى بأمواله الى أمه (حديث) ولم يتحدث عن وجود ولد له في حياته. وقد قبل جميع المسلمين هذه الحقيقة كما قبلها معظم الشيعة الامامية وذهبوا الى القول بإمامة جعفر بن علي الهادي ، أو القول بانقطاع الإمامة ، أو القول بالشورى .. ولكن فريقا من الغلاة والباطنيين رفض التسليم بهذه الحقيقة الظاهرية ، وأصر على اختلاق قصة سرية ووجود ولد مكتوم ومخفي لم يعلن عنه الإمام العسكري خوفا عليه من القتل ، وتقية. وارتد قسم منهم عن القول بإمامة الحسن العسكري ، وراح يقول بمهدوية محمد بن علي الهادي الذي كان قد توفي في حياة أبيه ، ويرفض الاعتراف بهذه الحقيقة ، ويصر على اختفائه واستمرار حياته الى يوم الظهور ، تماما كما فعل قسم من الإسماعيلية الذين

٤٠١ - الأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ٥١

رفضوا التسليم بوفاة إسماعيل بن جعفر الصادق ، وفسروا عملية الدفن التي قام بها الإمام الصادق بأنها مسرحية من قبل الإمام !

وقد رفض مشايخ الطائفة الامامية الاثني عشرية كالشيخ المفيد والمرتضى والطوسي منهج الفرق الشيعية الأخرى الباطنية، التي ترفض الاعتراف بوفاة الإمام علي ، أو ابنه محمد بن الحنفية أو ابنه أبي هاشم، أو وفاة الإمام الصادق أو ابنه إسماعيل، أو وفاة الإمام موسى الكاظم ، أو وفاة الإمام العسكري أو أخيه محمد ، وذلك لمخالفة منطقها الباطني للظاهر ، الذي يشكل حجة الله على الناس . ولكن جميع القائلين بوجود (الإمام محمد بن الحسن العسكري) ينتهجون بدورهم المنطق الباطني حيث يعترفون بعدم إعلان الإمام العسكري لولادة (ابنه) ووصيته لوالدته عند وفاته ، ويفسرون ذلك بالخوف و التقية. وبغض النظر عن مناقشة هذه الدعوى والتأكد من حقيقة الظروف المحيطة بوفاة الإمام العسكري ، فان القول بوجود ولد له في السر ، هو إذن قول باطني سري مخالف للظاهر .

وقد رأينا أيضا : ان معظم الروايات التي تتحدث عن ولادته ومشاهدته في حياة أبيه تتضمن معاني الغلو الفاحشة والعلم بالغيب وما الى ذلك ، من مقولات الغلاة المتطرفين ، ويجدر بنا ان نتوقف قليلا عند الحركة المغالية (النميرية) التي كانت قد نشأت حول الإمام علي بن محمد الهادي ، على يدي محمد بن نصير النميري، الذي كان من أقطاب الشيعة في البصرة . وكان هذا قد رفع الإمام الهادي الى درجة الألوهية ، وادعى لنفسه مرتبة النبوة والرسالة من قبل الإمام ، وكان يقول بالتناسخ .^{٤٠٢}

وقد التف هذا الغالي (النميري) بعد وفاة الإمام الهادي ، حول ابنه الامام الحسن العسكري ، وكان بعد وفاته من ابرز القائلين بوجود (ولد) له في السر ، هو : (محمد بن الحسن العسكري) وقد ادعى البابية و(النيابة الخاصة) عنه ، ثم ادعى النبوة وأورثها الى عدد من أصحابه .

والى جانب النميرية كان يوجد في تلك الأيام تيار آخر من الغلو والغلاة في صفوف الشيعة الامامية ، هم : (المخمسة) الذين يعتقدون ، كما يقول سعد بن عبد الله الاشعري القمي : " ان الله عز وجل هو محمد ، وانه ظهر في خمس صور مختلفة .. ظهر في صورة محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، وان أربعة من هذه الصور الخمسة تلتبس لا حقيقة لها ، والمعنى شخص محمد وصورته لأنه أول شخص ظهر وأول ناطق نطق ، لم يزل بين خلقه موجودا بذاته يتكون في أي صورة شاء ، يظهر نفسه لخلق في

^{٤٠٢} - الحلي، الخلاصة، ص ٢٧٣ ، والشيخ الأقدم ابن أبي الثلج البغدادي، تاريخ الأئمة، ص ٢٠ ، والطوسي، الغيبة، ص ٢٤٤٤ ، والأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ١٠١ ، والمجلسي، بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٣٦٧

صور شتى من صور الذكور والإناث والشيوخ والشباب والكهول والأطفال ، يظهر مرة والدا ومرة ولدا وما هو بوالد ولا بمولود ، ويظهر في الزوج والزوجة ، وإنما اظهر نفسه بالإنسانية والبشرانية لكي يكون لخلقهم به انس ولا يستوحشوا ربهم.

" وان محمدا كان آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى لم يزل ظاهرا في العرب والعجم.. وانه كان يظهر نفسه لخلقهم في كل الأدوار والدهور ، وانه تراءى لهم بالنورانية ، فدعاهم الى الإقرار بوحدانيته فأنكروه ، فترأى لهم من باب النبوة فأنكروه ، فترأى لهم من باب الإمامة فقبلوه ، فظاهر الله عز وجل بالإمامة وباطنه الله الذي معناه محمد يدركه من كان من صفوته بالنورانية ، ومن لم يكن من صفوته بدرجة بالبشرانية اللحمانية الدموية ، وهو الامام... وان كل من كان من الأوائل مثل أبي الخطاب وبيان وصائد والمغيرة وحمة وبزيع والسري ومحمد بن بشير، هم أنبياء أبواب بتغيير الجسم وتبديل الاسم ، وان المعنى واحد ، وهو سلمان وهو الباب الرسول يظهر مع محمد في كل صورة ظهر ، وهو رسول محمد متصل به ، ومحمد الرب".^{٤٠٣}

ويقول الاشعري القمي : " انهم (لعنهم الله) اظهروا دعوة التشيع واستبطنوا الجوسية ، فرغموا ان سلمان (رحمه الله) هو الرب ، وان محمدا داعٍ إليه ، وان سلمان لم يزل يظهر نفسه لأهل كل دين . وذهبوا في جميع الأشياء مذهب الجوس". وقد كان شيعة الكرخ في تلك الأيام من (المخمسة) وانه لا أحد يشك في ذلك . كما يقول الشيخ الطوسي .^{٤٠٤}

وكان شيخ الشيعة بالكرخ يوم ذاك : (احمد بن هلال العبرتائي) وهو من اعظم الغلاة - وقد اخرج الحسين بن روح النوبختي (النائب الثالث) توقيعا بلعنه بشدة والتبرؤ ممن لا يلعنه - وقد كان قطبا رئيسيا في عملية اختلاق نظرية (وجود ولد مخفي) للامام الحسن العسكري ، ومن اقرب المساعدين لعثمان بن سعيد العمري (النائب الأول) وقد أيدته في دعوى (الوكالة عن المهدي) ثم اختلف مع ابنه محمد (النائب الثاني) وادعى النيابة لنفسه .

والى جانب أولئك الغلاة النميرية والمخمسة ، كان يوجد في صفوف الشيعة تلك الأيام صنف آخر من الغلاة هم (المفوضة) الذين كانوا يعتقدون: " ان الله أقام شخصا واحدا كاملا لا زيادة فيه ولا نقصان ، ففوض إليه التدبير والخلق ، فهو محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وسائر الأئمة ، ومعناهم واحد ،

^{٤٠٣} - الاشعري القمي ، المقالات والفرق، ص ٥٨

^{٤٠٤} - الأشعري القمي، ص ٦٢ ، والطوسي، الغيبة، ص ٢٥٦

والعدد يلبس ، وان هذا (الواحد الكامل) - أي محمد - هو الذي خلق السماوات والأرضين والجبال والإنس والجن والعالم بما فيه .^{٤٠٥}

وقد اضطر هؤلاء (المفوضة) بعد وفاة الامام الحسن العسكري الى افتراض (وجود ولد) له في السر ، لكي تستمر نظرية (الواحد الكامل) الذي يدبر الكون ويخلق ويرزق .. ولكن عامة الشيعة لم يكونوا يؤمنون بأفكارهم الغالية ، وقد حدث بين الفريقين نوع من التنازع والاختلاف ، وقاموا بالاحتكام الى محمد بن عثمان العمري ، باعتباره (نائبا عن صاحب الزمان) وطلبوا منه ان يحسم النزاع ، فأخرج لهم (توقيعا) يتضمن رفض نظرية (التفويض الكامل) ، ويؤكد تدخل الأئمة في السؤال من الله ان يخلق فيخلق ، أو يرزق فيرزق .^{٤٠٦} ولم يخل جواب العمري لهم ، في الواقع ، من درجة مخففة من القول بالتفويض ، وهو ما يدل على ارتباطه وارتباط القول بوجود (ابن الحسن) بالغلالة.

وهذا ما يؤكده الحسين بن روح النوبختي في حديثه عن اختلاف الشيعة في ذلك الزمان حول مسألة التفويض ، وذهابه الى أبي طاهر ابن بلال (أحد أقطاب النظرية المهدوية) ومناقشته في الموضوع ، وإخراجه حديثا عن أبي عبد الله (ع) يذكر فيه: " ان الله إذا أراد أمرا عرضه على رسول الله ، ثم أمير المؤمنين، ثم الأئمة واحدا بعد واحد .. الى ان ينتهي الى صاحب الزمان ، ثم يخرج الى الدنيا . وإذا أراد الملائكة ان يرفعوا الى الله عز وجل عملا عرض على صاحب الزمان ثم يخرج على واحد واحد من الأئمة الى ان يعرض على رسول الله ثم يعرض على الله عز وجل ، فما نزل من الله فعلى أيديهم ، وما عرج الى الله فعلى أيديهم ، وما استغنوا عن الله عز وجل طرفة عين " .^{٤٠٧} وهو ما يوحي بمشاركة الأئمة مع الله في إدارة الكون ، وهذا نوع من (التفويض) غير الكامل .

وكان محمد بن الحسن الصفار القمي ، الذي كان معاصرا لفترة الحيرة ، وكان أحد أقطاب (النظرية المهدوية الاثني عشرية) ، يعتقد بنوع من التفويض للأئمة في التشريع وإدارة الحياة ، وهو يقول: " وجدت في كتاب قديم في نوادر محمد بن سنان ، قال قال أبو عبد الله : " لا والله ما فوّض الله الى أحد من خلقه ، إلا الى رسول الله والأئمة ، فقال: (انا أنزلنا الكتاب لتحكم بين الناس بما أراك الله) وهي جارية في الأوصياء " .^{٤٠٨}

^{٤٠٥} - الأشعري القمي ، المقالات والفرق ، ص ٦١

^{٤٠٦} - الطوسي ، الغيبة ، ص ١٧٨

^{٤٠٧} - النوبختي ، فرق الشيعة ، ص ٢٣٨

^{٤٠٨} - الصفار ، بصائر الدرجات ، ص ٣٧٦

ومن الواضح ان هذه النظرية تحتوي على درجة من الغلو ، وان لم تصل الى درجة القول بالتفويض في الخلق والرزق و إدارة الكون . وقد كان الصفار يتطرف في الغلو في الأئمة ، يشهد على ذلك كتابه (بصائر الدرجات) المليء بالأفكار المرفوضة من الشيعة اليوم .

وكان بعض أهل نيسابور من الشيعة على درجة كبيرة من الغلو والارتفاع والتفويض ، كما يقول الكشي في ترجمة الفضل بن شاذان . وعموما فقد كان الغلو بمختلف مدارس ومذاهبه ينتشر بين الشيعة في منتصف القرن الثالث الهجري ، كما يقول السيد هبة الدين الشهرستاني في مقدمته لكتاب الشيخ المفيد : (أوائل المقالات) .

وقد لعب جعفر بن محمد بن مالك الفزاري ، وآدم البلخي ، وأحمد الرازي ، والحسين بن حمدان الخصيبي، دورا كبيرا في نشر نظرية (وجود الامام المهدي) ونسج الروايات الأسطورية حول مولده واللقاء به ، وكان هؤلاء من أعظم الغلاة الذين يجمع علماء الحديث الشيعة على رفض أحاديثهم.

المبحث الخامس

دور الإعلام في تكريس الفرضية المهدوية

السؤال الذي يفرض نفسه الآن .. بعد وضوح تأليف نظرية (المهدي محمد بن الحسن العسكري) من قبل الغلاة والمتكلمين وأدعياء النيابة المستفيدين ، وتبين عدم وجود رصيد لها من الواقع والحقيقة ، وأنها لم تكن إلا فرضية وهمية اخترعت في عصر (الحيرة) التي أعقبت وفاة الامام العسكري دون ولد يرثه في الإمامة .. السؤال هو: كيف إذاً شقت هذه النظرية أو الفرضية طريقها الى عقول وقلوب ملايين المسلمين من الشيعة الامامية الاثني عشرية ، وغيرهم عبر التاريخ؟ وكيف أصبحت عقيدة راسخة وقوية ؟

في الإجابة على هذا السؤال لا بد ان نقول: أولاً : إن الشيعة الأوائل في عصر الأئمة من أهل البيت (ع) لم يعرفوا هذه النظرية بتاتاً ، كما لم يعرفها الشيعة بعد وفاة الامام الحسن العسكري مباشرة ،

وقد احتار الامامية في أمرهم عندما لم يجدوا له خلفا ظاهرا ، وكان المهدي مجهولاً لديهم بالمرّة، وغامضا غير محدد في شخص معين ، وقد قالت فرقة واحدة من أربعة عشر فرقة بنظرية وجود ولد للامام العسكري ، مما يعني ان الشيعة لم يجمعوا على هذه النظرية في فترة (الغيبة الصغرى) وربما مال إليها بعض الشيعة الامامية .

ثم .. ان عامة الشيعة تراجعوا عن هذا القول بعد حوالي خمسين عاما ، وقد سجل الكليني في (الكافي) والخصبي في (الهداية الكبرى) ظاهرة التراجع عن القول بوجود الولد عند قوم من أهل المدينة من الطالبين .^{٤٠٩}

وقال تلميذ الكليني : محمد بن أبي زينب النعماني (توفي سنة ٣٤٠ هـ) : " انا رأينا طوائف من العصابة المنسوبة الى التشيع ممن يقول بالإمامة .. قد تفرقت كلماتها وتشعبت مذاهبها.. وشكوا جميعا إلا القليل في إمام زمانهم وولي أمرهم وحجة ربهم ... فلم يزل الشك والارتباب قادحين في قلوبهم... حتى أدامهم ذلك الى التيه والحيرة والعمى والضلالة ، ولم يبقَ منهم إلا القليل النزر" . وقال في موضع آخر من كتابه: " أي حيرة اعظم من هذه الحيرة التي أخرجت من هذا الأمر الخلق الكثير والجسم الغفير؟.. ولم يبقَ ممن كان فيه إلا النزر اليسير ، وذلك لشك الناس " .^{٤١٠}

وروى النعماني مجموعة من الروايات التي تتحدث عن وقوع الحيرة بعد الغيبة ، ووصف حالة الحيرة التي عمت الشيعة في ذلك الوقت ، فقال: " ان الجمهور منهم يقول في (الخلف) أين هو؟ وأنى يكون هذا ؟ والى متى يغيب؟ وكم يعيش؟ هذا وله الآن تيّف وثمانون سنة ؟ فمنهم من يذهب الى انه ميت ، ومنهم من ينكر ولادته ويحدد وجوده بواحدة ، ويستهزئ بالمصدق به ، ومنهم من يستبعد المدة ويستطيل الأمد" . وقال: " شدّ الأكثر ممن كان متقدما وطار يمينا وشمالا .. وتفرق الناس عنه (الخلف) ويأسهم منه واستهزئهم بالمعتقد لإمامته ونسبتهم إياهم الى العجز . ووصف القائلين بوجود (الامام الثاني عشر) ب : ٠ الشذمة المنفردة عن هذا الخلق الكثير المدعين للتشيع الذين تفرقت بهم الأهواء.. واستوحشوا من التصديق بوجود الامام مع فقدان شخصه وطول غيبته " .^{٤١١}

^{٤٠٩} - الكليني، الكافي، ج ١ ، ص ٥١٨ ، والخصبي، الهداية الكبرى، ص ٣٧٠

^{٤١٠} - النعماني، الغيبة، ص ٢٠ و ١٨٦

^{٤١١} - المصدر ، ص ١٥٧ و ١١٣

كما أشار الشيخ محمد بن علي بن بابويه الصدوق (توفي سنة ٣٨١ هـ) في مقدمة كتابه: (إكمال الدين وإتمام النعمة) الى حالة الحيرة التي عصفت بالشيعة ، وقال: " وجدت أكثر المختلفين اليّ من الشيعة قد حيرتهم الغيبة ودخلت عليهم في أمر القائم الشبهة وعدلوا عن طريق التسليم الى الآراء والمقاييس.. وورد إلينا شيخ من بخارى من أهل الفضل والعلم والنباهة ببلد قم ، فبينما هو يحدثني ذات يوم إذ ذكر لي عن رجل قد لقيه ببخارى من كبار الفلاسفة والمنطقيين كلاما في القائم قد حيره وشككه في أمره ". " وقد كلمني رجل بمدينة السلام (بغداد) فقال لي: إن الغيبة قد طالت، والحيرة قد اشتدت ، وقد رجع كثير عن القول بالإمامة لطول الأمد".^{٤١٢}

وقد ذكر الكليني والنعماني والصدوق مجموعة من الروايات التي تؤكد وقوع الحيرة بعد غيبة صاحب الأمر واختلاف الشيعة وتشنتهم في ذلك العصر ، واتهام بعضهم بعضا بالكذب والكفر ، والتفل في وجوههم ولعنهم ، وانكفاء الشيعة كما تكفأ السفينة في أمواج البحر ، وتكسّرهم كتكسر الزجاج أو الفخار، وقولهم بموت صاحب الأمر، وارتدادهم وعدم البقاء على أمره إلا يسيرا منهم.^{٤١٣}

وبغض النظر عن مناقشة هذه الروايات المختلفة أو المستوردة من الفرق الشيعية والحركات المهدوية القديمة ، فان نقل الكليني والنعماني والخصبي والصدوق وغيرهم لها ، وتطبيقهم لها على الشيعة في القرن الرابع ، يكشف عن تراجع عامة الشيعة، في ذلك الوقت، عن القول بوجود (محمد بن الحسن العسكري) بعد قول فئة منهم بذلك فترة من الزمن.

وإذا كانت النظرية قد أصبحت في وقت لاحق عند قسم من الشيعة الامامية وهم (الاثني عشرية) أشبه بالعقيدة الراسخة التي لا تقبل الجدل أو النقاش ، فليس ذلك إلا بسبب عملية إعلامية كبرى قام بها أدعياء النيابة وأعوانهم ، وامتدت آثارها الى اليوم .

كانت الحملة الإعلامية تتألف من عدة أمور ، هي :

١ - التلفيق الروائي ، واختلاق الأحاديث المختلفة حول (الاثني عشرية والمهدي) . وقد مرّ عرضها ونقدتها في الفصل الخاص بالأدلة النقلية حول إثبات المهدي .

^{٤١٢} - الصدوق: إكمال الدين، ص ٢ و ١٦

^{٤١٣} - الكليني، الكافي، ج ١، ص ٣٣٦ و ٣٣٨ و ٣٤٠ ، والنعماني، الغيبة، ص ٨٩ و ٢٠٦ و ٢٠٨ ، وال صدوق، إكمال الدين، ص ٤٠٨ و عيون أخبار الرضا، ص ٦٨

٢ - الإرهاب الإعلامي ، وقد استخدم أصحاب النظرية ، بالإضافة الى ذلك ، قسماً آخر من الروايات الهجومية التي تتهم من لا يؤمن بالمهدي المفترض : (محمد بن الحسن العسكري) بالكفر والردة والفسق والضلال ، والتي تساوي بين إنكار (وجود) المهدي وإنكار الرسول الأعظم ، وتكذيبه والجلد بنبوته .^{٤١٤}

واعتمدت الحملة الإعلامية على بعض الأحاديث القديمة التي تعتبر من يموت ولا يعرف إمام زمانه كأنه قد مات ميتة جاهلية ، وفسرتها بمعرفة (صاحب الزمان وإمام العصر المهدي المنتظر) واعتبرت كل من لم يعرفه ومن لم يؤمن به بأنه سوف يموت ميتة جاهلية ، وذلك بالرغم من عدم وجود طريق الى معرفته والالتفاف حوله ونصرته والانقياد إليه. حيث قال محمد بن عثمان العمري (النائب الثاني) : انه سمع الحسن العسكري يقول: "من مات ولم يعرف ابني مات ميتة جاهلية".^{٤١٥}

وذهب العمري شأواً بعيداً جداً في هجومه الإعلامي ، حيث اعتبر المشككين بوجود المهدي مفارقين للدين ومرتابين ومعاندين للحق ، وأخرج (توقيعاً) باسم المهدي يندد بمن لا يؤمن به ويهدده بالويل الوخيم . وقد ساعد الشيخ أبو عبد الله جعفر الحميري القمي ، وسعد بن عبد الله الأشعري القمي على نشر تلك الرسالة في صفوف الشيعة.

٣ - الأدعية والزيارات ، وربما كانت الأدعية والزيارات أهم عمل إعلامي ساهم في ترسيخ نظرية (المهدي محمد بن الحسن) بين الشيعة ، وذلك لما لهذه الأدعية والزيارات من دور حيوي مؤثر في حياة الناس ، حيث يدأب الشيعة على قراءة الأدعية عقيب كل صلاة وفي جميع المناسبات الدينية ، ويحرصون على زيارة قبور الأئمة دائماً وفي الجمعة.

والأدعية والزيارات المتداولة بين الشيعة حول المهدي والقائم تنقسم الى قسمين :

أ - أدعية عامة وغير محددة بمحمد بن الحسن العسكري ، وإنما تدور حول القائم أو المهدي المطلق ، كدعاء صاحب الأمر ، أو الدعاء في غيبة الامام ، وهي مروية عن الأئمة السابقين كالباقر والصادق والكاظم والرضا ، مما ينسجم مع العمومية التي كانت تلف موضوع المهدي نفسه وعدم تحديد هويته في زمن الأئمة ، الأمر الذي بحثناه في الفصول الماضية ، وهو ما يوحي بأن هذه الأدعية والزيارات مستوردة من التراث الشيعي القديم ، أو الفرق الشيعية المختلفة ، كالواقفية التي كانت تقول بمهدوية الامام

^{٤١٤} - الصدوق، إكمال الدين، ص ٣٣٨ و ٣٦١ و ٤٠٩ - ٤١٠ و ٤١٢ - ٤١٣

^{٤١٥} - المصدر نفسه.

الكاظم ، وقد طبق الشيعة المتأخرون تلك الأدعية والزيارات على المهدي (محمد بن الحسن) الذي افترضوا وجوده ، حتى لم يعد لها من مفهوم سوى هذا (الامام المهدي) ، ولم يعد أحد ينتبه الى عمومية الروايات وعدم تحديد المصداق الخاص بها .

ب - أدعية خاصة محددة بمحمد بن الحسن العسكري ، كأدعية شهر رمضان ودعاء الافتتاح والاختتام واليوم الثالث عشر منه ، ودعاء العهد والندبة ، والزيارات المختلفة لمراقدة أهل البيت (ع) وزيارة سرداب الغيبة في سامراء. وهي أدعية وزيارات مؤلفة بصورة مستقلة ، أو ملفقة من مجموعة روايات ، أو أدعية عامة مضاف إليها اسم المهدي .

ومما يميز هذه الأدعية والزيارات التي تتحدث عن المهدي وتذكر اسمه بالتحديد ، بعد ان تسرد أسماء الأئمة السابقين واحدا واحدا ، أنها تخلو من ذكر السند ، وتعتمد على الإرسال التام ، وهي صادرة عن عثمان بن سعيد العمري (النائب الأول) أو ابنه محمد بن عثمان العمري (النائب الثاني) أو الحسين بن روح النوبختي (النائب الثالث) أو محمد بن جعفر الحميري الذي كان أحد مساعدي العمري في مدينة قم .

وقد روى السيد ابن طاووس في (مهج الدعوات) دعاء يقول انه يصلح لأيام الغيبة ، يقول انه رأى في المنام من يعلمه إياه! ^{٤١٦} وروى المجلسي بالإسناد الى علي بن محمد بن عبد الرحمن البشري ، قال : دخلت مسجد صعبعة (في الكوفة) وإذا برجل عليه ثياب الحجاز وعمته كعمتهم قاعد يدعو بهذا الدعاء : " اللهم يا ذا المنن السابغة..." ثم سجد طويلا وقام وركب الراحلة وذهب ، فقال صاحبي : هو والله صاحب الزمان . ^{٤١٧}

٤ - الطقوس والقصص المرتبطة برؤية المهدي

وبالإضافة الى الأدعية والزيارات الواردة حول (المهدي) هناك بعض الطقوس المعتادة التي تلعب هي الأخرى دورا إعلاميا مهما في تكريس الاعتقاد بنظرية (وجود المهدي) وتحويلها الى "حقيقة راسخة" في أذهان الشيعة ، وذلك مثلا ، كالقيام و أداء التحية والانحناء عند سماع اسم (القائم) وهو ما يفعله عامة

^{٤١٦} - راجع: محمد تقي الموسوي الاصفهاني، مكيال المكارم في فوائد الدعاء للقائم، ص ١٠١

^{٤١٧} - الكاشاني، الصحيفة المهدية، ص ١٣٨

الشيعة المتدينين اليوم ومنذ زمن طويل ، الأمر الذي يبعث على الاحترام والخشوع والرهبة والتحسس بوجود المهدي ، والتعامل معه كأنه حي وحاضر في الأوساط.

وتلعب القصص الكثيرة التي يتداولها العامة والخاصة من الشيعة ، حول رؤية بعض الناس أو العلماء للمهدي ، ولقائهم به ، وهي قصص يسرد المجلسي كمية كبيرة منها في موسوعته : (بحار الأنوار / الجزء ٥١) .. تلعب دورا كبيرا أيضا في تعزيز نظرية المهدي ، وتحويلها الى قصة قريبة من الواقع ، خاصة وانها تروى عن مجموعة من الزهاد والعباد والعلماء البارزين .

وهناك مسجد شهير في الكوفة في العراق يعرف بمسجد السهلة يشتهر بأنه مسجد الامام المهدي ، وان من يدأب على الصلاة فيه أربعين ليلة أربعاء فانه يحظى برؤية المهدي ، وتوجد بعض المساجد هنا وهناك في العراق تعرف بـ (مقامات المهدي) حيث يقال انه قد شوهد (الامام) في تلك الأماكن وهو يصلي فبني فيها مساجد ، كما هو الحال في مسجد جمران في قم ، الذي اشتهر بعد قيام الجمهورية الإسلامية في إيران. ان هذه المساجد أو المقامات تلعب هي الأخرى دورا إعلاميا في تعزيز الإيمان بالنظرية المهدوية (الاثني عشرية) وتحويلها من فرضية الى واقع مادي يعيشه الناس وينظرون إليه بأعينهم.

وهكذا يلعب الإعلام المهدوي بكل فقراته وفروعه دورا كبيرا في تعزيز نظرية " وجود الامام المهدي " وترسيخها بين أوساط الشيعة ، وتحويلها من فرضية وهمية الى " حقيقة بديهية " لا تقبل الجدل !

ملخص الجزء الثالث

تطور الفكر السياسي الشيعي في (عصر الغيبة)

نظرية التقية والانتظار

دخل الشيعة الامامية الاثني عشرية ، بعد قولهم بوجود الامام الثاني عشر "محمد بن الحسن العسكري" وغيبته، في مرحلة أسموها (الانتظار) وكانوا يعنون به: انتظار الإمام الغائب (الثاني عشر). وقد اتسمت تلك المرحلة بالسلبية السياسية المطلقة حيث حرموا الثورة وإقامة الدولة إلا بعد ظهور الإمام المعصوم المنصوص عليه من الله، وعطلوا كل ما يتعلق بالدولة من أمور، كجباية الخمس والزكاة وإقامة الحدود ، وصلاة الجمعة، ورفضوا حتى نظرية ولاية الفقيه باعتبارها تفتقد الى شروط الإمامة من العصمة والنص والسلالة العلوية الحسينية.^{٤١٨}

فقد قال الشيخ محمد بن أبي زينب النعماني (توفي سنة ٣٤٠ هـ) : " ان أمر الوصية والإمامة بعهد من الله تعالى وباختياره ، لا من خلقه ولا باختيارهم ، فمن اختار غير مختار الله وخالف أمر الله سبحانه ، وَرَدَّ مورد الظالمين والمنافقين الحاليين في ناره " . وأورد سبع عشرة رواية حول وجوب التقية والانتظار وتحريم الخروج في (عصر الغيبة).^{٤١٩}

^{٤١٨} - لمزيد من التفصيل راجع: الفصل الأول من الجزء الثالث من كتابنا تطور الفكر السياسي الشيعي، والمنشور في الطبقات السابقة، والذي قمنا باختصاره هنا

^{٤١٩} - النعماني، الغيبة، ص ٥٧ و ٢٠١ وكان من تلك الروايات التي اعتمد عليها محمد بن أبي زينب النعماني في تنظيره لفكرة الانتظار ، هي ما رواه عن أبي جعفر الباقر (ع) انه قال:

- الزم الأرض ، لا تحركن يدك ولا رجلك أبدا حتى ترى علامات اذكركها لك.. وإياك وشذاذ آل محمد ، فان لأل محمد وعلي راية ولغيرهم رايات ، فالزم الأرض ولا تتبع منهم رجلا أبدا حتى ترى رجلا من ولد الحسين معه عهد النبي ورايته وسلاحه.. فالزم هؤلاء أبدا وإياك ومن ذكرت لك .

- أوصيك بتقوى الله وان تلزم بيتك وتقعدي دهاء هؤلاء الناس ، وإياك والخوارج منا فانهم ليسوا على شيء ولا الى شيء.

وقال الشيخ الصدوق (توفي سنة ٣٨١ هـ) : "التقية فريضة واجبة علينا في دولة الظالمين ، فمن تركها فقد خالف دين الامامية وفارقه .. والتقية واجبة لا يجوز تركها الى ان يخرج القائم ، فمن تركها فقد دخل في نهي الله عز وجل ونهي رسوله والأئمة (ع) ويجب الاعتقاد ان حجة الله في أرضه وخليفته على عباده في زماننا هذا هو القائم المنتظر ابن الحسن .. ويجب ان يعتقد انه لا يجوز ان يكون القائم غيره بقي في غيبته ما بقي ، ولو بقي عمر الدنيا لم يكن القائم غيره " .^{٤٢٠}

و من هنا فقد رفض المتكلمون الاماميون الأوائل دعوة المعتزلة والشيعة الزيدية، الى تبني نظرية (ولاية الفقيه) في ظل (الغيبة الكبرى) ، استنادا الى فقدان الفقيه للعصمة والتعيين من الله ، وتعارض نظرية (ولاية الفقيه) مع نظرية (الإمامة الإلهية).^{٤٢١}

وعلى رغم أن الشيعة الامامية الاثني عشرية كانوا يعيشون في القرنين الرابع والخامس، في ظل الدولة البويهية الشيعية، إلا أنهم لم يستطيعوا إنتاج نظرية عصرية سياسية تلي متطلبات الحياة ، وأصرروا على تكريس نظرية (الانتظار) السلبية وترديدها في مختلف كتبهم الفكرية والفقهية. وحتى عندما قامت الدولة الصفوية في القرن العاشر الهجري ، فان قسما من الشيعة ظل يتمسك بموقف الانتظار السلبي للإمام الغائب المنتظر، كلازمة من لوازم نظرية (الإمامة الإلهية)، ويرفض الانخراط في الدولة الصفوية، بالرغم من تأييد الشيخ علي الكركي بناء على نظرية (نيابة الفقهاء العامة عن الإمام الغائب) والتي أجاز لنفسه

- انظروا الى أهل بيت نبيكم فان لبدوا فالبدوا ، وان استصرخوكم فانصروهم ، تؤجروا ، ولا تستبقوهم فتصرعكم البلية .

- كل راية ترفع قبل راية المهدي فصاحبها طاغوت يعبد من دون الله .

- كل بيعة قبل ظهور القائم فانها بيعة كفر ونفاق وخديعة.

- والله لا يخرج أحد منا قبل خروج القائم إلا كان مثله كمثل فرخ طار من وكرة قبل ان يستوي جناحاه فأخذه الصبيان فعبثوا به.

^{٤٢٠} - الصدوق، الهداية، ص ٤٧

^{٤٢١} - انظر المبحث الثاني من الفصل الأول من الجزء الثالث من كتاب: تطور الفكر السياسي الشيعي، حول الموقف السلبي من الاجتهاد وولاية الفقيه.

على ضوءها إضفاء نوع من الشرعية على الدولة الصفوية. حيث كان ذلك القسم يرى في المحاولة الصفوية - الكركية انقلابا على أهم أسس النظرية الامامية ، من حيث اشتراط العصمة والنص في الإمام (الرئيس) واستلابا واغتصابا لدور الإمام المعصوم (المهدي المنتظر الغائب).^{٤٢٢}

وتجلى ذلك الموقف السلبي من إقامة الدولة في (عصر الغيبة) في القرن الثالث عشر الهجري أيضا في موقف الشيخ محمد حسن النجفي صاحب (جواهر الكلام)، والذي عاصر الأيام الأخيرة للدولة العثمانية، ولكنه لم يفكر في الثورة عليها وإقامة دولة شيعية خاصة في العراق، رغم إيمانه بنظرية ولاية الفقيه الى درجة كبيرة، نظرا لأنه كان يؤمن بعدم إمكانية إقامة الدولة في عصر (الغيبة) وإلا لظهرت دولة الحق وخرج الإمام المهدي، الذي لم يحتف إلا بسبب الخوف على نفسه. ولذلك توصل النجفي الى ضرورة الانتظار ، وعدم جواز إقامة الدولة الإسلامية في عصر الغيبة، بل عدم إمكانية قيامها.^{٤٢٣}

وقد انعكست نظرية الانتظار السلبي للإمام الغائب (الثاني عشر) على موقف الشيعة الامامية الاثني عشرية من : (قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) مما أدى إلى نشوء ظاهرة الانسحاب السياسي عند قطاع واسع من الشيعة الامامية ، وضعف المشاركة الشعبية في التغيير الاجتماعي ، وقد تمثل ذلك بصورة جلية في إحجام عدد من الفقهاء الذين تسلموا زمام المرجعية الشيعية العامة عن خوض العمل السياسي أو التصدي للظلمة والطواغيت .^{٤٢٤}

^{٤٢٢} - وكان يقود ذلك التيار الشيخ إبراهيم القطيفي ، الذي أفتى بحرمة صلاة الجمعة خلافا للشيخ الكركي الذي أفتى بإباحتها. و ألف رسالة خاصة في حرمة الخراج في الرد على الشيخ الكركي ، اسمها : (السراج الوهاج لدفع عجاج قاطعة اللجاج) وأيده في ذلك المقدس الاردبيلي الذي كتب (تعليقات على خراجية المحقق الثاني) .

^{٤٢٣} - حيث قال في كتاب القضاء من (جواهر الكلام): " لم يأذنوا (الأئمة) لهم (للفقهاء) في زمن الغيبة ببعض الأمور التي يعلمون عدم حاجتهم إليها كجهاد الدعوة المحتاج الى سلطان وجيوش وأمرأء ونحو ذلك مما يعلمون قصور اليد فيها عن ذلك ونحوه ، وإلا ظهرت دولة الحق".

^{٤٢٤} - راجع المبحث الثالث من الفصل الأول من الجزء الثالث من هذا الكتاب، الموقف من عملية الإصلاح الاجتماعي

كما انعكست نظرية (الانتظار) التي التزم بها أولئك العلماء ، أيضا ، على مسألة إقامة الحدود في (عصر الغيبة) ، حيث اشترطوا إقامتها بظهور الإمام المهدي الغائب.^{٤٢٥}

وكاد إجماع الشيعة الامامية الاثني عشرية ينعقد عبر التاريخ على حرمة الجهاد الابتدائي في (عصر الغيبة). فقد اشترط الشيخ الطوسي في : (المبسوط) في وجوب الجهاد : ظهور الإمام العادل الذي لا يجوز لهم القتال إلا بأمره ، ولا يسوغ لهم الجهاد دونه ، أو حضور من نصبه الإمام للقيام بأمر المسلمين ، وقال بعدم جواز مجاهدة العدو متى لم يكن الإمام ظاهرا ولا من نصبه الإمام حاضرا ، وقال : " ان الجهاد مع أئمة الجور أو من غير إمام خطأ يستحق فاعله به الإثم ، وان أصاب لم يؤجر وان أصيب كان مأثوما". واستثنى من ذلك حالة الدفاع عن النفس وعن حوزة الإسلام وجميع المؤمنين إذا دهم المسلمين عدو يخاف منه على بيضة الإسلام.^{٤٢٦}

وإضافة الى تلك الجوانب السياسية التي علقها الفقهاء الذين آمنوا بنظرية (الانتظار) في عصر الغيبة ، فقد علقوا أيضا الجوانب الاقتصادية التي ترتبط بالدولة ، كالزكاة والخمس والأنفال والخراج وما شابه.. إلا انهم لم يعطلوا قانون الزكاة بالمرة ، ولكنهم عطلوا بعض موارد صرفها ، وهي الموارد التي تتعلق بشؤون الدولة و (الإمام) فقد أجازوا لمن وجبت عليه الزكاة ان يتولى إخراجها من ماله وتوزيعها بنفسه ، وذلك عند فقد الإمام والنائبين عنه ، وتعذر إيصالها اليه . واسقطوا سهم المؤلفلة قلوبهم وسهم (سبيل الله) والعاملين عليها من مصارف الزكاة.^{٤٢٧}

ومع سقوط نظرية الدولة في الفكر السياسي الشيعي الاثني عشري ، وتحريم إقامتها في (عصر الغيبة) تعامل الفقهاء مع موضوع الزكاة من ثلاثة جوانب ، فأوجبوا الزكاة من ناحية ، وأمروا المكلفين بإخراجها

^{٤٢٥} - راجع المبحث الرابع من الفصل الأول من الجزء الثالث من هذا الكتاب، الموقف من إقامة الحدود. وقد قال الشيخ الطوسي في : (النهاية ص ٢٨٤) : " أما إقامة الحدود .. فليس يجوز لأحد إقامتها إلا لسلطان الزمان المنصوب من قبل الله تعالى أو من نصبه الإمام لإقامتها ، ولا يجوز لأحد سواهما إقامتها على حال " .

^{٤٢٦} - الطوسي، المبسوط، ص ٢٨١، لمزيد من التفصيل راجع المبحث الخامس من الفصل الأول من الجزء الثالث من هذا الكتاب، المنشور في طبعات أخرى.

^{٤٢٧} - لمزيد من التفصيل راجع المبحث السادس من الفصل الأول من الجزء الثالث من هذا الكتاب، الموقف من الزكاة

وتوزيعها بأنفسهم لعدم وجود الإمام الشرعي ، من ناحية ثانية ، واسقطوا حصص العاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والجهاد ، من ناحية أخرى .

هكذا فعل ابن حمزة في (الوسيلة الى نيل الفضيلة)، وهكذا قال ابن إدريس في (السرائر) وهكذا أفتى المحقق الحلي نجم الدين جعفر بن الحسن في (شرائع الإسلام) و (المختصر النافع) والمقداد بن عبد الله السيوري الحلي في : (كنز العرفان في فقه القرآن).

وبالرغم من رعاية المحقق الكركي للدولة الصفوية الشيعية ، وإعطاء الشاه (طهماسب) الإجازة في الحكم نيابة عنه باعتباره نائبا عن الإمام المهدي ، إلا انه التزم بنظرية : (التقية والانتظار) واسقط في (جامع المقاصد) سهم المؤلفة قلوبهم والساعي والغازي حال الغيبة ، إلا مع الحاجة الى الجهاد.

أما في موضوع الأنفال التي ينص القرآن الكريم على أنها لله وللرسول، فيعتقد الشيعة الامامية أنها للإمام القائم مقامه من بعده، خالصة له كما كانت خالصة للرسول (ص) في حياته ، ولا يحق لأحد ان يعمل في شيء من الأنفال إلا بأذن الإمام العادل ، فمن عمل فيها بأذنه فله أربعة أخماس المستفاد منها وللإمام الخمس. ولما كان (الإمام العادل) في المصطلح الامامي يعني : (الإمام المعصوم المعين من قبل الله تعالى) وانه منذ وفاة الإمام الحسن العسكري سنة ٢٦٠ هـ هو (الإمام الثاني عشر المهدي محمد بن الحسن العسكري) الذي ولد سنة ٢٥٥ هـ وغاب بعد ذلك الى اليوم ، فانه يصبح : المالك الحقيقي للأنفال ، وكذلك المالك الحقيقي للخمس، وهو قانون خاص غير الزكاة يفرضه الشيعة على المغنم والأرباح أيضا، ويعتقدون ان عليهم تقديمه لله وللرسول وللإمام ولليتامي والمساكين وأبناء السبيل من بني هاشم ، وان سهم الله والرسول وذو القربى يجب تقديمه للإمام (الذي يمثل ذوي القربى) والذي هو اليوم (الإمام المهدي المنتظر) كما يجب إعطاؤه الأسهم الثلاثة الأخرى: اسهم اليتامي والمساكين وأبناء السبيل ، لكي يوزعها على الأصناف الثلاثة من بني هاشم .^{٤٢٨}

وقد أدى الالتزام بنظرية (الانتظار) الى الوقوع في أزمة حادة في موضوع الخمس والأنفال في (عصر الغيبة) ، فمن جهة : ان الإمام المهدي هو الشخص الوحيد صاحب الخمس والأنفال ، والذي يحق له استلامها وتوزيعها ، ومن جهة أخرى : لا سبيل الى الوصول اليه لأداء حقوقه ، كما لا توجد أية نصوص منه في مسألة توزيعها والتصرف فيها في ظل الغيبة. ومن هنا فقد احتار الفقهاء في حكم الخمس والأنفال ، وقال الشيخ المفيد في : (المقنعة): " قد اختلف قوم من أصحابنا في ذلك عند الغيبة ،

^{٤٢٨} - راجع: الطوسي، النهاية ، ص ٢٦٥

وذهب كل فريق منهم الى مقال: فمنهم من يسقط فرض إخراجهم ، لغيبة الإمام ، وما تقدم من الرخص فيه من الأخبار . و بعضهم يوجب كنزه ، ويتأول خبراً ورد : (ان الأرض تظهر كنوزها عند ظهور الإمام ، وانه (ع) إذا قام دله الله على الكنوز فيأخذها من كل مكان). وبعضهم يرى صلة الذرية وفقراء الشيعة على طريق الاستصحاب. وبعضهم يرى عزله لصاحب الأمر ، فان خشي إدراك الموت قبل ظهوره وصّى به الى من يثق به في عقله وديانته حتى يسلم الى الإمام ، ثم ان أدرك قيامه .. وإلا وصّى به الى من يقوم مقامه في الثقة والديانة، ثم على هذا الشرط الى ان يظهر إمام الزمان . وهذا القول عندي أوضح من جميع ما تقدم ، لأن الخمس حق لغائب لم يرسم فيه قبل غيبته رسماً يجب الانتهاء اليه فوجب حفظه الى وقت إيابه ، والتمكن من إيصاله اليه أو وجود من انتقل بالحق اليه ، ويجري ذلك مجرى الزكاة التي يعدم عند حلولها مستحقها فلا يجب عند ذلك سقوطها ، ولا يحل التصرف فيها على حسب التصرف في الأملاك ، ويجب حفظها بالنفس أو الوصية الى من يقوم بإيصالها الى مستحقها من أهل الزكاة من الأصناف . وأضاف: "إنما اختلف أصحابنا في هذا الباب لعدم ما يلجأ اليه من صريح الألفاظ " .^{٤٢٩}

وقد أدت هذه الحيرة والغموض في موضوع الخمس في (عصر الغيبة) الى ظهور عدد من الأقوال الغريبة المناهية للعقل والقرآن من قبيل إسقاط الخمس أو دفنه في الأرض أو إلقائه في البحر أو عزله والوصية به الى يوم ظهور المهدي ، وهو الرأي الذي اختاره المفيد وفقهاء آخرون عبر التاريخ، بينما ذهب فقهاء آخرون الى تحليل الخمس وإباحته للشيعة في (زمان الغيبة).^{٤٣٠}

وكانت صلاة الجمعة هي المعقل الأخير الذي تأثر بنظرية (الانتظار) وذلك في أعقاب سقوط الدولة البويهية في أواسط القرن الخامس الهجري. ولم يكن ليحدث في أمر هذه الصلاة العظيمة من جديد لولا التفسير الذي راجع عند بعض الفقهاء الامامية، حول كلمة: "الإمام" أو "الإمام العادل" حيث حصروا معناها بـ: "الإمام المعصوم" . ولما كانوا يقولون : ان الإمام المعصوم غائب في هذا العصر ، وان من شروط إقامة صلاة الجمعة حضور الإمام أو إذنه ، فقد قال أولئك الفقهاء بافتقاد أحد شروط صلاة

^{٤٢٩} - المفيد، المقنعة، ص ٤٦

^{٤٣٠} - لمزيد من التفصيل راجع المبحث السابع من الفصل الأول من الجزء الثالث من هذا الكتاب، المنشور في طبعات أخرى سابقة. وراجع أيضاً: جواهر الكلام للشيخ محمد حسن النجفي، كتاب الخمس، ص ١٥٦ و ١٦٤

الجمعة ، وهو إذن الإمام المعصوم المهدي المنتظر. ونتيجة لذلك قالوا بجرمة أو بعدم وجوب صلاة الجمعة في (عصر الغيبة) .^{٤٣١}

وقد سار كثير من الفقهاء اللاحقين بعد ذلك ، والى يومنا هذا ، على خطى أولئك العلماء الذين اشتروا العدالة في الإمام وفسروا كلمة (الأمام العادل) بالإمام المعصوم (المهدي المنتظر) ، وانتهوا الى تعطيل صلاة الجمعة في عصر الغيبة ، انسجاما مع نظرية (الانتظار) التي تحرم إقامة الدولة الإسلامية لغير الأئمة المعصومين المعينين من قبل الله تعالى.

إذن فقد أدت نظرية (الانتظار للإمام المهدي الغائب) - كما رأينا في الصفحات السابقة - الى غيبة الشيعة الامامية أنفسهم عن مسرح الحياة السياسية ، وذلك بتحريم العمل السياسي وإقامة الدولة في (عصر الغيبة) ، مما أدى بكثير من العلماء الى التراجع عن الفكر الامامي المتصلب والتخلي عن نظرية الانتظار المتشددة ، وكانت أول خطوة في هذا الطريق هي فتح باب الاجتهاد.

وكان الاجتهاد محرما في الفكر الامامي الذي كان يحصر العمليات التشريعية الجديدة في (الأئمة المعصومين) . ولذلك فقد كانت المدرسة الامامية القديمة اخبارية تحرم الاجتهاد خارج النصوص ، وظلت هكذا الى فترة طويلة بعد (الغيبة) ، وكان منتهى العمل (الاجتهادي) يدور داخل النصوص والترجيح فيما بينها ومعرفة العام والخاص والمطلق والمقيد وما شابه ، وكانت فتاوى العلماء ، كعلي بن بابويه الصدوق ، مجرد نصوص روايات معتبرة لديهم .

ولكن بعد القول بغيبة (الأمام الثاني عشر) ومرور مدة طويلة على انقطاع الاتصال بـ : "مصدر العلم الإلهي" وحدثت مسائل جديدة تستوجب الإجابة عليها ، بدأ موقف الامامية من (الاجتهاد) يتطور .. ويتغير ، واضطروا لفتح باب الاجتهاد والقول بجواز القياس. وكان أول من قال بذلك في أواسط القرن الرابع هو الحسن بن عقيل العماني ، المعاصر للكليني . ثم جاء الشيخ المفيد في بداية القرن الخامس الهجري ليمارس (الاجتهاد) مع تلميذه السيد المرتضى والشيخ الطوسي ويؤسسوا بذلك المدرسة الأصولية التي شقت طريقها في الحياة منذ ذلك الحين.^{٤٣٢}

^{٤٣١} - لمزيد من التفصيل راجع المبحث الثامن من الفصل الأول من الجزء الثالث من هذا الكتاب، المنشور في طبعات أخرى سابقة.

^{٤٣٢} - للمزيد من التفاصيل راجع المبحث الأول من الفصل الثاني من الجزء الثالث من هذا الكتاب، المنشور في طبعات أخرى سابقة.

وقد كان فتح باب الاجتهاد خطوة كبيرة للخروج من الأزمة ، وملاً الفراغ التشريعي الذي حدث للشيعة الامامية بعد وفاة الأمام الحسن العسكري وغيبة أو افتقاد الأمام الثاني عشر ، وذلك في ظل القول بحصر العمل التشريعي بالأئمة المعصومين الذين يرتبطون بمصادر العلم الإلهي الحقيقي ، وعدم جواز اللجوء الى الطرق الظنية والإمارات كالقياس والاجتهاد وما شابه ، لمعرفة الأحكام الشرعية . وقد أدى فتح باب الاجتهاد بالشيعة الى التحرر من نظرية (التقية والانتظار) و إعادة النظر في كثير من أبواب الفقه المعطلة بسبب نظرية (الغيبة) ، و ملاحقة التطورات والإجابة على المسائل الحادثة ، كما أدى الى حدوث تطورات جذرية في الفكر الامامي والتخلي عن اشتراط العصمة والنص والسلالة العلوية الحسينية في الأمام ، والقول بجواز الحكومة لغير المعصوم أو وجوبها ، واستنباط نظرية (ولاية الفقيه) وغيرها من النظريات التي أعادت الشيعة الى مسرح الحياة.

والى جانب العمل العظيم الذي قام به الفقهاء الامامية في مطلع القرن الخامس الهجري ، وهو فتح باب الاجتهاد ، قاموا أيضا باستنباط نظرية أو فرضية كان لها دور كبير في مستقبل الفكر السياسي الامامي ، وهي: (فرضية النيابة الواقعية للفقهاء عن الأمام المهدي) . خاصة في مجال القضاء ، حيث فتحت هذه الفرضية نافذة تطورت مع مرور الزمان وأدت الى تخلي الامامية عن شرط العصمة والنص في الإمام ، وبالتالي التخلي عن الالتزام بنظرية (التقية والانتظار للأمام الغائب) والقول بنظرية (ولاية الفقيه) .

ومن المعلوم ان القضاء يعتبر من أهم أعمال الدولة ، ولما كان الشيعة الامامية يحصرون الدولة الشرعية في الدولة التي يقودها (الأمام المعصوم المعين من قبل الله) فانهم قد حرموا ممارسة القضاء لغير الإمام المعصوم ، ولكنهم رووا عدة روايات تجيز للفقهاء الشيعة ممارسة ذلك بالنيابة عن (الأئمة المعصومين) . مثل:

١ - مقبولة عمر بن حنظلة عن الأمام الصادق (ع) التي يقول فيها : "انظروا الى رجل منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فارضوا به حكما فإني قد جعلته عليكم حاكما".

٢ - مشهورة أبي خديجة عن الأمام الصادق أيضا : "انظروا آلي رجل منكم يعلم شيئا من قضايانا فاجعلوه بينكم قاضيا فتحاكموا اليه" .

وقد تم استعارة هذه الأذونات العامة الصادرة في عهد حضور الأئمة ، والحكم بجواز ممارسة القضاء في عهد (الغيبة) للفقهاء من الشيعة ، وذلك للتشابه بين الحالتين وهو عدم سيطرة الأئمة وممارستهم للحكم ، وحل الشيعة الامامية بذلك مشكلة القضاء في عصر الغيبة.

وقد استنبط الشيخ المفيد من تلك الروايات : (فرضية النيابة الواقعية عن الإمام المهدي). فقال في كتاب: (المقنعة ، كتاب الحدود) : "ان الأئمة قد فوضوا اليهم (الفقهاء) النظر في القضاء مع الإمكان " وأضاف: "ومن تأمر على الناس من أهل الحق بتمكين ظالم له وكان أميراً من قبله في ظاهر الحال ، فإنما هو أمير في الحقيقة من قبل (صاحب الأمر) الذي سوغه ذلك وأذن له فيه دون المتغلب من أهل الضلال".^{٤٣٣}

وهكذا قال فقهاء آخرون كالقدس الاردبيلي (- ٩٩٣ هـ) والشيخ جعفر كاشف الغطاء (- ١٢٢٧ هـ) والشيخ محمد حسن النجفي (- ١٢٦٦ هـ) بضرورة افتراض النيابة عن الإمام الثاني عشر الغائب لدى تولي القضاء، وكانت آراؤهم هذه في باب الحدود متميزة عن آرائهم في الأبواب الأخرى التي كانوا يلتزمون فيها بنظرية : (التقية والانتظار) ، وكانت وسيلة كبرى ساعدتهم على الخروج من سائر المرافق الأخرى ، وكانت " فرضية النيابة الحقيقية" التي اقترح بعض العلماء افتراضها عند إجبار الحاكم الظالم للفقيه أو لغيره على إقامة الحدود ، قاعدة أساسية لتطوير نظرية (النيابة العامة) و (ولاية الفقيه) فيما بعد.

وإذا كانت نظرية : (التقية والانتظار) تحرم الثورة والدولة في عصر الغيبة ، وتحدد - تبعاً لذلك - قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمراتب الدنيا القلبية والإعلامية ، وترفض استخدام القوة المؤدية إلى الجرح أو القتل في غياب دولة (الإمام المهدي) الشرعية الوحيدة الممكنة .. فان الالتزام بهذه النظرية في عصر الغيبة ولمدة طويلة كان يبدو صعباً جداً ، ومن هنا فقد تخلّى الشيعة عملياً وتدرجياً عن نظرية : (التقية والانتظار) واخذوا يبنون دولهم المستقلة هنا وهناك . وكان لا بد ان يطور الفقهاء قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويخففوا من الشروط التعجيزية التي تحول دون تنفيذه . وربما كان أول من حاول الخروج من كهف الغيبة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو السيد المرتضى الذي نقل عنه الطوسي في: (الاقتصاد) قوله بجواز ممارسة القتل والجرح في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عصر الغيبة بلا حاجة إلى استئذان الإمام.

وقد تبعه بعد ذلك حمزة بن عبد العزيز الديلمي (سلار) و محمد بن إدريس ، صاحب (السرائر) والعلامة الحلي ويحيى بن سعيد، والقدس الاردبيلي ، والشيخ محمد حسن الفيض الكاشاني، وآخرون.

^{٤٣٣} - لمزيد من التفصيل راجع المبحث الثاني من الفصل الثاني من الجزء الثالث من هذا الكتاب، المنشور في طبعات

ومع تبلور نظرية (النيابة العامة للفقهاء عن الإمام المهدي) أو (ولاية الفقيه) فقد قوي القول بجواز القتل والجرح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بإذن الفقيه الولي أو " نائب الإمام".

هذا في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أما في موضوع الجهاد الابتدائي ، فإنه بالرغم من تحرر الفقهاء الشيعة الامامية من نظرية : (التقية والانتظار) خلال القرون الأخيرة وفي كثير من المجالات ، فإن الموقف العام ظل سلبيا ولم يحدث تطور يذكر إلا في السنوات الأخيرة . ولم أجد من يتحدث عن جواز الجهاد في عصر الغيبة سوى السيد محمد الحسيني الشيرازي الذي كان يقول بنظرية (ولاية الفقيه) ٤٣٤ .

وقد تقدم الشيعة الامامية الاثنا عشرية خطوة أخرى الى الأمام، على طريق التحرر من نظرية انتظار الإمام الغائب (الثاني عشر)، وذلك عبر تطوير حكم الخمس من الإباحة الى الوجوب. وقد تم الانسحاب من القول بالإباحة في وقت مبكر ، خطوة .. خطوة ..

وكانت الخطوة الأولى هي القول بوجوب الخمس في عصر الغيبة ، مع القول بدفنه أو الاحتفاظ به حتى ظهور المهدي ، أو الايضاء به بعد الموت من واحد إلى واحد حتى يوم الظهور.

وكانت الخطوة الثانية هي القول بتسليم الخمس إلى الفقهاء للاحتفاظ به حتى ظهور الإمام المهدي. ثم القول بجواز قيامهم بتوزيعه بأنفسهم على المحتاجين.

وقام الشيخ حسن الفريد (١٣١٩ - ١٤١٧هـ) بثورة في باب الخمس عندما سلب حق الخمس من الإمام المهدي لغيبته وعدم قيامه بمهام الإمامة ، وقال بضرورة قيام واحد من الناس باستلام الخمس وتوزيعه من باب الحسبة ، لأنه من الأمور الحسبية التي لا محيص عن وقوعه في الخارج ولم يعين للقيام به في غيبة الإمام شخص أو صنف خاص . ٤٣٥

٤٣٤ - للمزيد من التفصيل راجع المبحث الثالث من الفصل الثاني من الجزء الثالث من هذا الكتاب، المنشور في طبعات أخرى سابقة.

٤٣٥ - حيث قال في (رسالة في الخمس ص ٨٣-٨٦): "ان مقتضى القاعدة سقوط النصف الذي هو للإمام (ع) إذ لا ريب انه إنما استحق ذلك بحق الرئاسة والإمامة ، ولذا ينتقل هذا الحق بموته إلى الإمام الذي يقوم بعده بالإمامة لا إلى ورثته ، فإذا غاب عن الناس ولم يقم بالإمامة انتفت رئاسته خارجا ، وينتفي حقه بانتفاء موضوعه". وأضاف: "لا إشكال في وجوب إيصال نصف الخمس الذي للإمام (ع) إليه أو إلى وكيله في زمان الحضور ... وبعد غيبته ان قلنا بـ

ومع تطور نظرية ولاية الفقيه كان لا بد ان يتطور حكم صلاة الجمعة، ويتغير من التحريم الى الوجوب أو الجواز. فقد حاول عدد من الفقهاء التحرر من نظرية (الانتظار) التي كانت تشترط إذن الإمام المعصوم الغائب، والعودة الى القرآن الكريم الذي يأمر بإقامتها بصورة مطلقة ولا يشترط لذلك أية شروط ، ولا يربطها بالإمام (المعصوم) الغائب .

ورغم ادعاء ابن إدريس الحلبي :إجماع الشيعة الامامية على تحريم إقامتها في عصر الغيبة. فقد قام عدد من الفقهاء بنقض الموقف السلبي منها، وربما كان المحقق الحلبي أول من حاول الخروج من نظرية (الانتظار) في باب صلاة الجمعة ، حيث قال باستحباب إقامتها عند إمكانية الاجتماع.^{٤٣٦} وكسر بذلك حاجز الإجماع المدعى على التحريم .

ومع بروز نظرية (نيابة الفقيه العامة) في القرن السابع والثامن الهجريين، وجد بعض العلماء فيها مخرجاً للهروب من نظرية (الانتظار) فقالوا بجواز إقامة الفقهاء للجمعة باعتبارهم نواباً عامين للإمام المهدي. وهو ما مهد السبيل أمام فقهاء آخرين ليقولوا بالوجوب، خاصة بعد قيام الدولة الصفوية في بلاد فارس.

و حاول الشهيد الثاني (- ٩٦٥ هـ) ان يتحرر من عقدة (إذن الأمام) في وجوب صلاة الجمعة ، وان يحصر ذلك في زمان حضور الإمام ، وان يسقط ذلك في عصر الغيبة ، من الأساس ، وانتقد في رسالة له حول ضرورة صلاة الجمعة ، حالة التقليد الأعمى وتهدم الدين بالشبهات ، وشنّ هجوماً عنيفاً على الذين يتهاونون في صلاة الجمعة ، واشتكى بحرقه وحسرة من القائلين بتحريمها ، وقال: " اتفق علماء الإسلام في جميع الأعصار وسائر الأمصار والأقطار على وجوب صلاة الجمعة على الأعيان في

: (ولاية الفقيه) على الإطلاق ونيابته العامة عن الإمام ، كان للفقيه الولاية على ذلك ، وان لم نقل بولايته إلا في باب القضاء والإفتاء فلا بد ان يقوم به واحد من باب الحسبة لأنه من الأمور الحسبية التي لا محيص عن وقوعه في الخارج ، ولم يعين للقيام به في غيبة الإمام شخص أو صنف خاص ، وليس من الوظائف التي يقوم بها آحاد الناس ، بل من الأمور التي لا بد ان يقوم بها الحاكم .. فان .. الفقيه الجامع للشرائط هو الذي ينبغي ان يقوم به وانه القدر المتيقن ممن يصح منه القيام به وتوزيع الخمس على أهله ، فلا بد ان يقوم به الفقيه .. من باب الحسبة ، وان شئت قلت : ان للفقيه الولاية على صرف الخمس على أهله ، ولكن ولايته على ذلك لم تستفد من الكتاب والسنة بل من دليل الحسبة والضرورة .. يعني : ان الضرورة الدينية هي التي كشفت كشفاً قطعياً عن ولايته على ذلك .. وما ذكرنا يمكن ان يستكشف : ان له ولاية التحليل إذا اقتضت الضرورة ذلك فيما لم يشملته أخبار التحليل .

^{٤٣٦} - المختصر النافع ، ص ٣٦

الجملة ، وإنما اختلفوا في بعض شروطها ... ومع ذلك فالحث على فعلها والأمر به بضروب التأكيد في الكتاب والسنة لا يوجد مثله في فريضة البتة".^{٤٣٧}

وهكذا قام الشهيد الثاني بخطوة كبيرة نحو الأمام في سبيل التحرر من نظرية : (الانتظار) ، وذلك بتحليله أو إيجابه إقامة صلاة الجمعة في عصر الغيبة حتى لغير الفقيه.

و منذ إقامة الجمهورية الإسلامية في إيران، بدء الشيعة الامامية الاثنا عشرية يقيمون صلاة الجمعة هنا وهناك بشكل واسع.

تطور النظريات السياسية الشيعية في عصر الغيبة

لقد كانت تلك محاولات جريئة للخروج من أزمة : (الانتظار للإمام المهدي) التي وقع بها الامامية، نتيجة قولهم باشتراط العصمة والنص في الإمام ، وافترض وجود الإمام المعصوم الغائب . وقد نجحوا فيها بنجاحا كبيرا حيث استطاعوا فتح باب الاجتهاد والسماح بتنفيذ الحدود وممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأداء الخمس والزكاة وإجازة أو إيجاب صلاة الجمعة في (عصر الغيبة) ، تلك الأمور التي جملوها في البداية انتظارا لخروج (الإمام المهدي) "الحاكم الشرعي الوحيد الذي يحق له إقامة الدولة الإسلامية".

وقد كانت تلك المحاولات متفرقة ومتدرجة بابا .. بابا ، وجزءا .. فجزءا .. ولكنها لم ترق لتعالج المشكلة من جذورها ، حيث لم تبحث موضوع (الإمامة) و (الغيبة) من الأساس. ومع ذلك فقد حاول العلماء تطوير نظرية سياسية بديلة عن الإمامة والإمام المهدي ، وذلك بافتراض النيابة الواقعية أو الحقيقية عن الإمام الغائب في مجال الحدود. وقد تطورت هذه النظرية البسيطة الافتراضية التي ولدت في بداية القرن الخامس الهجري لتصبح نظرية سياسية متكاملة في نهاية القرن الرابع عشر تحت اسم (ولاية الفقيه).

نظرية : (النيابة الملكية)

وبينما كانت نظرية (النيابة العامة) تنمو ببطء وبصورة جزئية ومحدودة ، على أيدي علماء الحلة وجبل عامل في القرن السابع والثامن الهجريين ، كان الواقع الشيعي السياسي يتطور بعيدا عن الفكر الإمامي ..

^{٤٣٧} - لمزيد من التفصيل راجع المبحث السادس من الفصل الثاني من الجزء الثالث من هذا الكتاب

حيث انفجرت ثورة (السريدارية) في نيسابور ، وأقامت دولة دامت خمسين عاما من سنة ٧٣٨هـ الى سنة ٧٨٢هـ ، كما قام الشيعة بتأسيس دولة لهم في مازندران وخوزستان وجنوب العراق.

ثم انفجرت حركة جديدة في تبريز على أيدي الصفويين بقيادة إسماعيل بن صفى الدين بن حيدر الذي أعلن قيام الدولة الصفوية سنة ٩٠٧ هـ ، الا انه كان يفتقد الى نظرية سياسية شيعية شرعية. حيث لم تكن نظرية النيابة العامة للفقهاء الافتراضية، قد تطورت بعد الى مستوى إقامة الدولة.

وعندما أراد الصفويون التحرك العسكري لإقامة دولة خاصة بهم.. وجدوا نظرية الانتظار غير معقولة ولا واقعية ، وتشكل حجر عثرة أمام طموحهم وتحركهم.. وبالرغم من انهم كانوا منذ فترة قد أعلنوا التمسك بالمذهب الامامي الاثني عشري ، إلا انهم في الحقيقة لم يستوعبوا نظرية (الإمامة الإلهية) التي تشترط العصمة والنص في الإمام ، وحولوها الى نظرية تاريخية ، ورفضوها عمليا .. حيث أجازوا لزعمائهم وهم غير معصومين ولا منصوح عليهم من الله ، ان يستولوا على الملك ويقوموا بمهام الإمامة تماما كما فعل الأمويون والعباسيون والعثمانيون . و لم يصعب عليهم الالتفاف على نظرية الانتظار وتجاوزها.

واختلفت تجربة الدولة الصفوية في مرحلتها الأولى (أيام الشاه إسماعيل بن صفى الدين) عن التجارب السياسية الشيعية السابقة كالدولة البويهية والسريدارية والمرعشية والمشعشعية ، في ان هذه التجارب كانت دولا سياسية بحتة ، أي غير أيديولوجية ، بينما حاولت الدولة الصفوية تقديم نفسها كدولة عقائدية ومرتبطة بالأئمة الاثني عشر بصورة روحية غيبية. ولذلك فإنها كانت تشكل تطورا انقلابيا في الفكر السياسي الشيعي ، نقل الشيعة من نظرية الانتظار السلبيّة الانعزالية الى سدة الحكم والسلطنة. وقد طور الشاه إسماعيل ، أو تطور على يديه ، فكر سياسي جديد حاول الالتفاف على فكر (التقية والانتظار) فادعى ذات يوم انه اخذ إجازة من (صاحب الزمان : المهدي المنتظر) بالثورة والخروج ضد أمراء التركمان الذين كانوا يحكمون إيران ، وبينما كان ذات يوم مع مجموعة من رفقاءه الصوفية خارجين للصيد في منطقة تبريز ، مروا بنهر ، فطالبهم بالتوقف عنده وعبر هو النهر بمفرده ودخل كهفا .. ثم خرج متقلدا بسيف ، واخبر رفقاءه انه شاهد في الكهف (صاحب الزمان) وانه قال له: " لقد حان

وقت الخروج وانه امسك ظهره ورفع ثلاث مرات ووضعه على الأرض وشد حزامه بيده ووضعه خنجرا في حزامه وقال له: " اذهب فقد رخصتك".^{٤٣٨}

وادعى بعد ذلك انه شاهد الأمام علي بن أبي طالب (ع) في المنام وانه حثه على القيام وإعلان الدولة الشيعية. وذلك في محاولة للتحرر من نظرية الانتظار. وبناء على ذلك فقد كان الشاه إسماعيل يعتبر نفسه " نائب الله وخليفة الرسول والأئمة الاثني عشر وممثل الأمام المهدي في غيبته".^{٤٣٩}

وقد كان بروز التجربة الصفوية نتيجة الفراغ السياسي الذي كان يهيمن على الشيعة في ظل نظرية الانتظار السلبية الانعزالية ، في تلك الأيام.

ولما كانت دعاوى الشاه إسماعيل بالنيابة والخلافة عن الإمام المهدي الغائب خطيرة، ومنافسة لدور الفقهاء الشيعة، فقد تصدى له الشيخ المحقق علي بن الحسين بن عبد العالي الكركي الذي طور نظرية (النيابة العامة للفقهاء عن الأمام المهدي) من نظرية جزئية محدودة غير سياسية .. الى نظرية سياسية متقدمة، وادعى بأنه نائب الإمام المهدي وانه صاحب الحق الشرعي الوحيد في الحكم. واستطاع ان يؤثر على الشاه طهماسب بن إسماعيل فيدفعه للتسليم بمكانته كنائب عام عن الإمام المهدي، وطلب الإجازة منه لممارسة السلطة.^{٤٤٠}

وقد لقي تحالف الشيخ الكركي مع الدولة الصفوية معارضة شديدة من قبل عدد كبير من العلماء كالشهيد الثاني والمقدس الاردبيلي والشيخ إبراهيم القطيفي والملا محمد أمين الاسترابادي والملا محمد طاهر القمي ، وغيرهم من الفقهاء ، وذلك لأن نظرية (النيابة العامة) لم تكن قد تطورت لتحل محل

^{٤٣٨} - تاريخ الشاه إسماعيل، ص ٨٨، طبع مركز تحقيقات فارس إيران وباكستان، إسلام آباد. وعالم آراي صفوي، ص ٦٤

^{٤٣٩} - راجر سيوري، إيران في العصر الصفوي، ص ٢٦ و ٢٩

^{٤٤٠} - يقول السيد نعمة الله الجزائري في صدر كتابه (شرح غوالي اللغالي): " لما قدم الشيخ الكركي آلي اصفهان وقزوين في عصر السلطان العادل طهماسب مكّنه من الملك والسلطان وقال له: أنت أحق بالملك لأنك النائب عن الأمام ، وإنما أكون من عمالك ، أقوم بأوامرك ونواهيك وقد أعطى الكركي الشاه طهماسب إجازة لحكم البلاد بالوكالة عن نفسه باعتباره نائبا عن الأمام المهدي ، ولقبه الشاه بنائب الأمام وعينه (شيخا للإسلام) . ولمزيد من التفصيل راجع: المبحث الثاني من الفصل الثالث من الجزء الثالث من هذا الكتاب، المنشور في طبعات أخرى سابقة.

نظرية: (الإمامة الإلهية) وإنما كانت لا تزال محدودة وجزئية ، وتقتصر على الفتيا وتنفيذ بعض الأمور الاجتماعية والاقتصادية والعبادية.

ومع ذلك فإن نظرية (إجازة الملوك) لم تمنح نظام الحكم الشرعية الكاملة ، حيث ظل الفقهاء يعتبرون الملوك غاصبين لحق الإمامة الخاص بالأئمة المعصومين المعينين من قبل الله تعالى، وظل عامة الفقهاء حتى الذين تعاونوا مع الدولة الصفوية أو خليفاتها: القاجارية ، متأثرين بنظرية (الانتظار) في عدة جوانب . وهذا ما أدى لاحقاً الى تطورات مختلفة لدى الفقهاء والملوك من اجل تطوير الفكر السياسي وحل عقدة الشرعية المزمنة في الفكر السياسي الشيعي في ظل (الغيبة) .

ومع تطور الواقع السياسي الشيعي، ووجود الشك بصحة نظرية (النيابة العامة للفقهاء عن الإمام المهدي) بادر بعض الفقهاء الى الدعوة الى بناء نظام سياسي مدني معقول، فاقترح السيد محمد باقر السبزواري (١٠١٨ هـ - ١٠٩٠ هـ) تأسيس نظام ملكي مستقل ، وحاول الالتفاف على نظرية الغيبة والانتظار التي تشترط العصمة والنص في الإمام فقال: "لا يخلو زمان من حجة ، ولكن في بعض الأوقات يغيب عن أبصار الناس لأسباب ومصالح ، ولكن العالم ليس بعيدا عن ألطافه وبركاته... ونحن الآن في هذه الدورة من الغيبة إذا لا يوجد سلطان عادل وقوي يدير العالم ويحكمه ، فإن الأمور تنتهي الى الفوضى والهرج والمرج وتصبح الحياة غير قابلة للتحمل بالنسبة لكل شخص ، لذلك لا بد للناس من الخضوع تحت سيطرة ملك يحكم بالعدل ويتبع سيرة وسنة الإمام".^{٤١}

رد فعل الاماميين (الإخباريين)

وقد أدى قيام الدولة الصفوية ، في القرن العاشر الهجري ، وتطوير نظرية (النيابة العامة للفقهاء) إلى نظرية سياسية .. أدى ذلك إلى حدوث انشقاق عميق وعنيف في المجتمع الشيعي الامامي الاثني عشري.. وهو ما عرف بالصراع الاخباري - الأصولي ، الذي امتد عدة قرون. ولم يكن هذا الصراع يدور حول أمر جزئي بسيط.. وإنما كان يتعلق بأمر أساسي يدخل في موضوع الهوية العقائدية.. وكان في حقيقته صراعا بين المحافظين والمجددين.. بين الخط الامامي المتمسك بنظرية (الانتظار) بالتحديد ، وبين الخط الشيعي المتحرر من شروط الإمامة المتصلبة كالعصمة والنص ، والمتحرر من نظرية (الانتظار) .

^{٤١} - حميد عنايت، تفكير نوين سياسي إسلام، ص ٢٣٩

كان الفكر الامامي يعطي للإمام مهمتين رئيسيتين هما : التشريع والتنفيذ وقيادة المسلمين، ويحصر مهمة الإمامة في (الأئمة المعصومين المعينين من قبل الله) ولا يجوز لأي شخص غيرهم ان يقوم بشيء من ذلك.. وعندما اضطر بعض العلماء ، في القرن الخامس الهجري ، إلى فتح باب الاجتهاد، اعتبر الاخباريون (أو الاماميون القدماء) اللجوء إلى الاجتهاد خروجاً عن الخط الامامي لأنه يهدم ركنا رئيسيا من أركان نظرية الإمامة التي تشترط العلم الإلهي في أحكام الدين ، وتحصر عملية التشريع والإفتاء في (الإمام المعصوم العالم من الله) . وعندما قام العلماء المتأخرون بالقول بنظرية (النيابة العامة السياسية) اعتبر الاخباريون (أو بالأحرى : الاماميون) العمل السياسي وإقامة الدولة وممارسة مهامها اغتصاباً لسلطات وصلاحيات (الإمام المعصوم) وتهدىما للركن الثاني الأساسي من أركان نظرية (الإمامة الإلهية) وهو (التنفيذ). ومن هنا كانت معارضة الاخباريين مرتكزة على قاعدة نظرية الإمامة التي تحرم التشريع والتنفيذ خارج دائرة (الإمام المعصوم) وكان الاخباريون يعتبرون (المجتهدين) وأصحاب نظرية (النيابة العامة أو ولاية الفقيه) خارجين من المذهب الإمامي ..

نظرية ولاية الفقيه

شهد القرن الثالث عشر الهجري ، وخاصة بعد سقوط الدولة الصفوية، انتعاش المد الأصولي وقيام العلماء هنا وهناك بتطبيق الحدود وممارسة القضاء والإفتاء وتولي أمور الرعية والتصرف في أموال اليتامى والمجانين والسفهاء وتقسيم الخمس والزكوات وممارسة مهمات الحكومة الأخرى.

وهذا ما دل على تطور نظرية (النيابة العامة) من إجازة الملوك إلى تصدي الفقهاء بأنفسهم للحكم، وتجاوز نظرية (الانتظار) والتخلي عنها تماماً.. الأمر الذي دفع الشيخ احمد بن محمد مهدي النراقي (توفي ١٢٤٥ هـ) إلى طرح النظرية في إطار جديد وشامل أكثر تطوراً ، تحت عنوان : (ولاية الفقيه) وليس تحت العنوان السابق : (النيابة العامة) القائمة على قاعدة نظرية (الغيبة والانتظار) ، حيث نظر النراقي إلى واقع قيام الفقهاء بتشكيل حكومات لا مركزية في بلاد شيعية واسعة مما ينفي أدنى مبرر لاستمرار نظرية (الانتظار) أو القول بالحدود الاستثنائية بقيام الفقهاء بتغطية بعض الجوانب الجزئية من الحياة ، وبحث النراقي في كتابه : (عوائد الأيام في بيان قواعد الأحكام) مشكلة الإمامة أو السلطة و الولاية العامة

وضورتها في (عصر الغيبة) وذلك على نفس الأسس الفلسفية والمبادئ التي توجب (الإمامة) للأئمة المعصومين .^{٤٤٢}

وقد كانت نظرية الشيخ النراقي تتألف من قسمين هما: أولاً : ضرورة الإمامة في عصر الغيبة ، وثانياً: حصر الإمامة في الفقهاء.. وبغض النظر عن مناقشة القسم الثاني ، فإن القسم الأول من نظريته يرفض القبول بنظرية (الغيبة) وفائدة الإمام الغائب كإمام ، ويحتم استمرار الإمامة .. ويؤكد الحاجة الملحة لوجود الإمام الحجة العالم المعلم المهادي والداعي إلى سبيل الله بصورة ظاهرة حيوية متفاعلة مع الأمة .^{٤٤٣}

ولما كانت نظرية (الإمامة) أو (وجود الإمام الثاني عشر الغائب) تعجز عن تلبية حاجة الأمة المستمرة للإمام فإن النراقي يتخلى مضطراً عن اشتراط العصمة والنص والسلالة العلوية في الإمام ، ويأتي بكل أدلة ضرورة الإمامة التي كان يستخدمها المتكلمون الاماميون الأوائل ومن ضمنها حديث الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا ، الذي يتحدث عن ضرورة الإمامة والعصمة ، فيأخذ النراقي الشطر الأول ويلغي (العصمة) ويكتفي بشرط الفقاها والعدالة.

ويعتمد النراقي كثيراً على الأدلة العقلية والإطلاالات العامة التي تحتم إقامة الدولة بصورة مستقلة ، وليس بالضرورة : بالنيابة العامة عن الإمام المهدي.. إذ ان قيام الفقهاء بمهام الإمامة الكبرى - ولو بالنيابة - يتناقض مع اشتراط العصمة والنص في الإمام ، خاصة مع انتفاء ظروف التقية والخوف التي تجبر الإمام على الاختباء .

ومن هنا يمكن اعتبار نظرية النراقي حول (ولاية الفقيه) تطوراً جذرياً في الفكر الشيعي السياسي نحو التحرر من نظرية (الإمامة الإلهية) أكثر من التحرر من نظرية (الانتظار) .. وإذا كانت نظرية: (ولاية الفقيه) قد تعرضت منذ ذلك الحين إلى مناقشات حامية من قبل عدد من العلماء والمحققين ، فأنها نجحت في طرح موضوع (الإمامة) على بساط البحث ، وجاء العلماء من بعد ذلك ليلبحثوا المسألة في ضوء الحاجة الماسة والمستمرة إلى الإمامة والقيادة العامة في (عصر غيبة الإمام الذي لا يقوم بمهام الإمامة). كما فعل الشيخ رضا الهمداني (- ١٣١٠هـ) الذي أسمى نظرية ولاية الفقيه ب: (القائمقامية

^{٤٤٢} - لمزيد من التفاصيل راجع: المبحث الثالث من الفصل الثالث من الجزء الثالث من هذا الكتاب، المنشور في طبعات أخرى سابقة.

^{٤٤٣} - النراقي، عوائد الأيام، ج ١٥ ، ص ٤٢٢ و ٤٢٥ و ١٣٧

(وذهب في : (مصباح الفقيه) الى : " ثبوت منصب الرئاسة والولاية للفقيه ، وكون الفقيه في زمان الغيبة بمنزلة الولاية المنصوبين من قبل السلاطين على رعاياهم في الرجوع إليه ، وإطاعته فيما شأنه الرجوع فيه إلى الرئيس " .^{٤٤٤} وكما فعل الشيخ محمد حسن النائيني نظريته في (المشروطة) على أساس استحالة التفاف الأمة حول الإمام المهدي المنتظر الغائب و عدم وجود الأئمة المعصومين ، وحاجة الأمة إلى قيادة مشروطة بمجلس منتخب منها.

أما الإمام الخميني فقد مهد لنظرية : (ولاية الفقيه) بالحديث عن ضرورة الإمامة في عصر الغيبة، وقال : "ان ما هو دليل الإمامة بعينه دليل على لزوم الحكومة بعد غيبة ولي الأمر (ع)". وقال: "... أما في زمان الغيبة فالولاية والحكومة ، وان لم تجعل لشخص خاص ، لكن يجب بحسب العقل والنقل ان تبقىا بنحو آخر، لما تقدم من عدم إمكان إهمال ذلك ، لأنها مما يحتاج إليه المجتمع الإسلامي... والعلة متحققة في زمن الغيبة ، ومطلوبية النظام وحفظ الإسلام معلومة لا ينبغي لذي مسكة (عقل) إنكارها".^{٤٤٥}

الحركة الديمقراطية الإسلامية

وبينما كان الفقهاء الاماميون في النصف الأخير من القرن الثاني عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) يتناقشون حول (ولاية الفقيه) وحدودها السياسية ، فيثبتها بعضهم كالنراقي ويرفضها بعض آخر كالشيخ مرتضى الأنصاري ، كان الملوك الفاجاريون يعززون من سلطتهم في إيران ويوسعون صلاحياتهم بلا حدود ، مما سمح للشاه ناصر الدين (١٨٤٨م - ١٨٩٦م) بتوقيع اتفاقية جائزة لحصر بيع وشراء التنباك مع شركة بريطانية استعمارية كادت تؤدي إلى هيمنة بريطانيا على إيران. وهذا ما اضطر مرجع ذلك العصر : (الميرزا محمد حسن الشيرازي) الذي كان يقطن مدينة سامراء في العراق ، للإفتاء بحرمة استعمال التنباك بأية صورة زراعة وشراء وبيعا وتدخينها، وذلك في سنة ١٣٠٩ هـ / ١٨٩١ م . وكان لفتواه هذه اثر كبير جدا في الشعب الإيراني الذي أطاعه بدقه تامة، مما اضطر الشاه ناصر الدين إلى إلغاء امتياز الشركة البريطانية.

وقد فتحت تلك المواجهة ملف شرعية الملكية المستبدة في إيران، فانخرط بعض العلماء المشاركين في حركة إسقاط التنباك ، في حركة جديدة متواصلة من اجل تطوير النظام السياسي الإيراني وإصلاحه،

^{٤٤٤} - الهمداني، مصباح الفقيه، ص ١٦١

^{٤٤٥} - الخميني، كتاب البيع، ص ٤٦١ و ٤٦٢ و ٤٦٦

وبناء نظام ديمقراطي، وتحديد صلاحيات الملك المطلقة بمجلس شوري منتخب من الشعب ، وطالبوا ان يحكم الملك حكما دستوريا (مشروطا) بالبرلمان. وكان على رأسهم الشيخ الآخوند كاظم الخراساني .

واستطاع التيار الديمقراطي الإسلامي، بعد معركة طويلة، ان ينتصر ويقيم أول مجلس برلماني دستوري في إيران سنة ١٩٠٦ م . وقد شكل ذلك تطورا في الفكر السياسي الشيعي الذي لم يكن قد وصل - شعبيا - بعد إلى مرحلة (ولاية الفقيه). وقد أصبح دستور ١٩٠٦ م أساسا لنظام الجمهورية الإسلامية الذي قام سنة ١٩٧٩ م ، واستبدل الملك برئيس الجمهورية ، وأعطى للفقيه (ولي) صلاحيات أكبر، استنادا إلى نظرية (ولاية الفقيه) .

وكان هناك من ينادي باستبدال النظام الملكي بالنظام الجمهوري ، كالسيد جمال الدين الاصفهاني الذي أعلن خلال الثورة ضد مظفر الدين سنة ١٩٠٥ م : ان نظام الحكم الأقرب للإسلام هو النظام الجمهوري ، وأيد ذلك بآيات من القرآن الكريم .^{٤٤٦}

لقد كان الفكر السياسي الشيعي في هذه المرحلة واقعيًا ومتطلعًا نحو الأفضل في تعامله مع مسألة السلطة ، فبعد تخليه عن نظرية (الإمامة الإلهية) المثالية التي لم يكن لها وجود في الخارج ، ورفضه لوليدتها ولازماتها: نظرية (الانتظار للإمام الغائب) انطلق الفكر الشيعي الذي كان قد قبل بمبدأ قيام الدولة في (عصر الغيبة) منذ العهد الصفوي.. انطلق في هذه المرحلة ليطور نظرية السلطة والدولة ويشارك العلماء ونواب الشعب في إدارة البلاد. وقد عبر هذا الفكر عن نفسه بقلم أحد أبنائه وهو الشيخ محمد حسين النائيني في كتابه: (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) الذي يعتبر قمة الفكر السياسي الشيعي في بداية القرن العشرين..

وقد أكد النائيني على ان اصل الحكومة الإسلامية يقوم على الشورى، وان السلطة حق من حقوق عامة الناس ، وأشار الى عجز الأمة عن الالتفاف حول الإمام المهدي المنتظر الغائب ، وعدم وجود الأئمة المعصومين، مما يفتح الطريق أمام الأخذ بالنظام الديمقراطي أو الشورى.^{٤٤٧}

^{٤٤٦} - طلال مجذوب: إيران من الثورة الدستورية إلى الثورة الإسلامية ص ٨٠

^{٤٤٧} - لمزيد من التفصيل راجع: المبحث السادس من الفصل الثالث من الجزء الثالث من هذا الكتاب، المنشور في طبعات أخرى سابقة.

لم تصمد نظرية (الحكم الملكي الدستوري) التي أقامها الفقهاء الشيعة في إيران طويلا ، فسرعان ما قام الشاه رضا بهلوي بانقلاب عسكري ، ونصب نفسه ملكا على إيران دون استشارة من الفقهاء المراجع ، بل قاد حملة شعواء ضد رجال الدين، وهذا ما دفع الفقهاء المراجع إلى مقاومته بشدة.

وفي سنة ١٩٦٣ قاد الإمام الخميني انتفاضة ضد الشاه محمد رضا بهلوي ، انتهت بتسفير الإمام إلى العراق .. وهناك راح الإمام الخميني يلقي دروسه على طلبته ويطور نظرية سياسية جديدة تجمع بين نظرية (النيابة العامة للفقهاء عن الإمام المهدي الغائب) و نظرية:(ولاية الفقيه) لينقل الفكر السياسي الشيعي من مرحلة إجازة الفقهاء للملوك للحكم باسمهم ووكالة عنهم إلى مرحلة جديدة هي حكم الفقهاء المباشر وممارسة مهمات الإمامة بصورة كاملة. وقد شكلت تلك الدروس القاعدة الفكرية التي قامت عليها الثورة الإسلامية وانتهت بتشكيل (الجمهورية الإسلامية الإيرانية) عام ١٩٧٩.

الخميني ينقد نظرية الانتظار

رفض الإمام الخميني في البداية نظرية (الانتظار للإمام المهدي) التي كانت تهيمن على الفكر السياسي الشيعي حتى وقت قريب ، رفضا مطلقا ، واسقط بالأدلة العقلية الأحاديث التي كانت تحرم العمل السياسي في ظل (الغيبة) ، ولم يعبأ بها ، وكتب يقول : " بديهي .. ان ضرورة تنفيذ الأحكام لم تكن خاصة بعصر النبي (ص) بل الضرورة مستمرة.. واعتقاد: ان الإسلام قد جاء لفترة محدودة أو لمكان محدود يخالف ضروريات العقائد الإسلامية ، وبما ان تنفيذ الأحكام بعد الرسول (ص) وإلى الأبد من ضروريات الحياة ، لذا كان وجود حكومة فيها مزايا السلطة المنفذة المدبرة ضروريا ، إذ لولا ذلك لساد الهرج والمرج... فقد ثبت بضرورة الشرع والعقل: ان ما كان ضروريا أيام الرسول (ص) وفي عهد الإمام أمير المؤمنين (ع) من وجود الحكومة لا يزال ضروريا إلى يومنا هذا. ولتوضيح ذلك أتوجه إليكم بالسؤال التالي: قد مر على الغيبة الكبرى لإمامنا المهدي أكثر من ألف عام ، وقد تمر عليه ألوف السنين قبل ان تقتضي المصلحة قدوم الإمام المنتظر، وفي طول هذه المدة المديدة هل تبقى أحكام الإسلام معطلة يعمل الناس خلالها ما يشاءون؟.. ألا يلزم من ذلك الهرج والمرج؟ وهل حدد الله عمر الشريعة بمائتي عام ؟ هل ينبغي ان يخسر الإسلام من بعد الغيبة الصغرى كل شيء ؟". وأضاف:"ان الذهاب إلى هذا الرأي أسوء في نظري من الاعتقاد بان الإسلام منسوخ ، فلا يستطيع أحد يؤمن بالله واليوم الآخر ان يقول: انه لا يجب الدفاع عن ثغور الإسلام والوطن ، أو انه يجوز الامتناع عن دفع الزكاة والخمس وغيرها ، أو يقول بتعطيل القانون الجزائي في الإسلام وتجميد الأخذ بالقصاص والديات ، إذن فان كل من يتظاهر بالرأي القائل بعدم ضرورة تشكيل الحكومة الإسلامية فهو ينكر ضرورة تنفيذ الإسلام ، ويدعو إلى تعطيل أحكامه وتجميدها ، وهو بالتالي ينكر شمول وخلود الدين الإسلامي

الحنيف". وخاطب الإمام الخميني الملتزمين بنظرية (الانتظار) قائلاً: " لا تقولوا ندع إقامة الحدود والدفاع عن الثغور وجمع حقوق الفقراء حتى ظهور الحجة (الإمام المهدي) فهلا تركتم الصلاة بانتظار الحجة؟!".

ثم استشهد على ضرورة الإمامة في عصر الغيبة، وقال: " ان ما هو دليل الإمامة بعينه دليل على لزوم الحكومة بعد غيبة ولي الأمر(ع) ". ^{٤٤٨}

وبعد إثبات الإمام الخميني للحاجة المستمرة إلى الإمامة في (عصر الغيبة) وعدم جواز تجميدها انتظاراً للإمام المهدي ، عقلاً ونقلاً ، توصل الى ضرورة إقامة الدولة بقيادة من تتوفر فيه خصائص الإمامة من العلم بالقانون والعدالة.

وتحدث الإمام الخميني عن التشابه بين الفقيه والإمام المعصوم فقال: " للفقيه العادل جميع ما للرسول والأئمة (ع) مما يرجع إلى الحكومة والسياسة ، ولا يعقل الفرق ، لأن الوالي - أي شخص كان - هو مجري أحكام الشريعة والمقيم للحدود الإلهية والأخذ للخارج وسائر الماليات والتصرف فيها بما هو صلاح المسلمين... ومع اقتضاء المصالح يأمر الناس بالأوامر التي للوالي ويجب إطاعتهم.. فولاية الفقيه - بعد تصور أطراف القضية - ليست أمراً نظرياً يحتاج إلى برهان ، ومع ذلك دلت عليها بهذا المعنى الواسع روايات ". ^{٤٤٩}

واعتبر الإمام الخميني الفقهاء أوصياء للرسول (ص) من بعد الأئمة وفي حال غيابهم ، وقد كلفوا بجميع ما كلف الأئمة (ع) بالقيام به . ^{٤٥٠}

وكان الإمام الخميني يؤمن نتيجة لبعض الروايات ان ولاية الفقيه ولاية دينية إلهية و يقول: " ان الله جعل الرسول (ص) ولياً للمؤمنين جميعاً ، ومن بعده كان الإمام ولياً ، ونفس هذه الولاية والحاكمة موجودة لدى الفقيه " . ^{٤٥١} ويقول: " إذا نهض بأمر تشكيل الحكومة فقيه عالم عادل فانه يلي من أمر المجتمع ما كان يليه النبي (ص) منهم ، ووجب على الناس ان يسمعوا له ويطيعوا ، ويملك هذا الحاكم من أمر الإدارة والرعاية والسياسة للناس ما كان يملكه الرسول (ص) وامير المؤمنين (ع) على ما يمتاز به

^{٤٤٨} - الخميني، الحكومة الإسلامية، ص ٢٥ - ٢٦

^{٤٤٩} - الخميني، كتاب البيع، ص ٤٦٧

^{٤٥٠} - الخميني، الحكومة الإسلامية، ص ٧٥

^{٤٥١} - الخميني، الحكومة الإسلامية، ص ٥١ - ٥٢

الرسول والإمام من فضائل ومناقب خاصة... وقد فوض الله الحكومة الإسلامية الفعلية المفروض تشكيلها في زمن الغيبة نفس ما فوضه إلى النبي (ص) وأمير المؤمنين (ع) من أمر الحكم والقضاء والفصل في المنازعات وتعيين الولاة والعمال وجباية الخراج وتعمير البلاد ، غاية الأمر ان تعيين شخص الحاكم الآن مرهون بمن جمع في نفسه العلم والعدل".^{٤٥٢}

وكان يحصر الحق في إقامة الدولة في (عصر الغيبة) في الفقهاء فقط ، ويقول: " الفقهاء العدول وحدهم المؤهلون لتنفيذ أحكام الإسلام وقرار نظمهم وإقامة حدود الله وحراسة ثغور المسلمين ، وقد فوض إليهم الأنبياء جميع ما فوض إليهم ائمتهم على ما أؤتمنوا عليه".^{٤٥٣}

الولاية المطلقة

ونظرا لإيمان الخميني بأن ولاية الفقيه مستمدة من الله، فقد طرح بعد حوالي عشرة أعوام من إقامة (الجمهورية الإسلامية في إيران) نظرية (ولاية الفقيه المطلقة) التي لا تحدّها حدود، وجاء في رسالة له الى رئيس الجمهورية: " ان الحكومة التي تعني الولاية المخولة من قبل الله إلى النبي الأكرم (ص) مقدمة على جميع الأحكام الفرعية الإلهية... ولو كانت صلاحيات الحكومة محصورة في إطار الأحكام الفرعية الإلهية لوجب ان تلغى أطروحة الحكومة الإلهية والولاية المطلقة المفوضة إلى نبي الإسلام (ص) وان تصبح دون معنى .. لا بد ان أوضح : ان الحكومة شعبية من ولاية رسول الله (ص) المطلقة ، وواحدة من الأحكام الأولية للإسلام ، ومقدمة على جميع الأحكام الفرعية حتى الصلاة والصوم والحج... ان باستطاعة الحاكم ان يعطل المساجد عند الضرورة ، وان يخرب المسجد الذي يصبح كمسجد ضرار ولا يستطيع ان يعالجه بدون التخريب. وتستطيع الحكومة ان تلغي من طرف واحد الاتفاقيات الشرعية التي تعقدها مع الشعب ، إذا رأتها مخالفة لمصالح البلد والإسلام. وتستطيع ان تقف أمام أي أمر عبادي أو غير عبادي إذا كان مضرا بمصالح الإسلام ، مادام كذلك. ان الحكومة تستطيع ان تمنع مؤقتا وفي ظروف التناقض

^{٤٥٢} - الخميني، كتاب البيع، ص ٤٩

^{٤٥٣} - الخميني، الحكومة الإسلامية، ص ٧٠ و ٧٦

مع مصالح البلد الإسلامي - إذا رأيت ذلك - ان تمتع من الحج الذي يعتبر من الفرائض المهمة الإلهية".^{٤٥٤}

وكانت هذه الرسالة تطورا كبيرا في نظرية (ولاية الفقيه) باتجاه الشمولية والإطلاق ، وقفزة كبيرة في توسيع الولاية، وهي تتحدث عن صلاحيات مشابهة لصلاحيات الرسول الأكرم والأئمة المعصومين ، للفقيه بحكم منصب الولاية والسلطان. وقد توصل الإمام الخميني الى ذلك بالجمع بين نظرية (النيابة العامة) و نظرية (ولاية الفقيه) وتطويرهما بحيث تصبحان نظرية واحدة مطلقة.

ان الحديث عن "النيابة العامة للفقهاء عن الإمام المهدي" في "الغيبة الكبرى" هو فرع لثبوت "النيابة الخاصة" التي ادعاها "الوكلاء الأربعة" في فترة "الغيبة الصغرى". وان القول بذلك يبتنى على القول بوجود ولادة "الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري" ووجود غيبتين له، وإذا لم نستطع التأكد من وجود هذا "الإمام" فان تلك النظرية تتلاشى بالطبع من باب الأولى.

ونظرا للغموض الذي لف موضوع الخلف للإمام العسكري، والحيرة التي عصفت بالشيعة الامامية الاثني عشرية، والشك الذي أحاط بدعاوى النيابة الخاصة عن الإمام الغائب، فان نظرية النيابة العامة لم تكن معروفة لدى الشيعة الامامية في بداية "الغيبة الكبرى" التي يقال أنها ابتدأت بعد وفاة "النائب الرابع : علي بن محمد الصيمري". بل ان الشيعة الأوائل (في القرن الرابع) اعتبروا النيابة العامة التي توازي الإمامة أو ولاية الفقيه متناقضة تماما مع نظرية الإمامة، لأنها تسقط شرطي العصمة والنص في الإمام، وإنما هي نظرية ظنية استنبطها بعض العلماء في وقت لاحق وطوروها عبر التاريخ ، ولم يكن لها وجود من قبل. وقد توفي الصيمري سنة ٣٢٩هـ ولم يتحدث عن "النيابة العامة" بينت شفة، ولو كان لها أي رصيد من الواقع لتحدث عنها "الإمام المهدي" - على فرض وجوده - بدلا من ان يترك الشيعة يتخبطون قرونا طويلة في ظلمات الحيرة .

ومن هنا فلم يعرف الشيخ الصدوق نظرية النيابة العامة ، ولم يشير إليها أبدا بالرغم من روايته ل :
"توقيع إسحاق بن يعقوب عن العمري عن المهدي : " وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة

^{٤٥٤} - صحيفة كيهان، العدد رقم ١٣٢٢٣ المؤرخ ١٦ جمادى الأولى ١٤٠٨هـ

أحاديثنا فانهم حجتي عليكم وأنا حجة الله ". وذلك أما للشك بصحة " التوقيع " المروي عن مجهول هو (إسحاق بن يعقوب) واما لعدم دلالة على " النيابة العامة " خاصة وانه يتحدث عن الرجوع إلى الرواية في ظل " النيابة الخاصة " وفي أيام "السفير الثاني : العمري" . وإذا كانت النيابة الخاصة المتصلة - حسب الفرض - بالإمام المهدي محدودة وغير سياسية ، فكيف يمكن ان يفهم من "التوقيع" معنى أكبر وأوسع منها ؟.

لقد كان أول من تحدث عن تفويض الأئمة للفقهاء في مجال إقامة الحدود فقط هو الشيخ المفيد الذي جاء بعد الغيبة بحوالي مائة وخمسين عاما، وكان ذلك منه افتراضا أكثر منه قولاً بيقين ، وقد انطلق في محاولته استنباط نظرية (النيابة العامة) من الأحاديث السابقة (مقبولة عمر بن حنظلة ومشهورة أبي خديجة وتوقيع إسحاق بن يعقوب) التي تعطي الإذن لرواية أحاديث أهل البيت بممارسة القضاء من دون الحاجة إلى إذن خاص من الأئمة.

وقد أثار التطور السياسي الكبير الذي حدث في تاريخ الشيعة في العهد الصفوي في القرن العاشر الهجري، والذي نقلهم من مرحلة "التقية والانتظار" إلى مرحلة إقامة الدولة في (عصر الغيبة) بعدما ادعى (الشاه إسماعيل الصفوي) النيابة الخاصة عن الإمام المهدي .. أثار ذلك التطور جدلاً واسعاً في صفوف الفقهاء وفتح الباب واسعاً أمام القول بنظرية "النيابة العامة" وتعزيزها بقوة ، ثم تطويرها بعد ذلك نحو حكم الفقهاء بصورة مباشرة على يدي النراقي في منتصف القرن الثالث عشر الهجري .

وقد اعتمد الإمام الخميني في قوله بنظرية (ولاية الفقيه) بصورة رئيسية على روايات عامة عن الرسول الأعظم (ص) مثل (الفقهاء ورثة الأنبياء و حصون الأمة وخلفاء الرسول) واستنتج منها معنى الوراثة والخلافة السياسية والولاية التامة للفقهاء كما كانت للرسول الأعظم (ص) والأئمة من أهل البيت (ع) حسب النظرية الامامية ، وقال: " كما ان الرسول الأعظم جعل الأئمة (ع) خلفاء ونصبهم للخلافة على الخلق أجمعين ، جعل الفقهاء ونصبهم للخلافة الجزئية... وتحصل مما مر ثبوت الولاية للفقهاء من قبل المعصومين (ع) في جميع ما ثبت لهم الولاية فيه من جهة كونهم سلطاناً على الأمة " .^{٤٥٥} و لذلك اعتبر الخميني الفقهاء أكثر من (نواب للإمام المهدي الغائب) وإنما أيضاً : أوصياء للرسول (ص) من بعد الأئمة ، وفي حال غيابهم ، وقد كلفوا بجميع ما كلف به الأئمة بالقيام به.^{٤٥٦} واعتبر - بناء على

^{٤٥٥} - الخميني، كتاب البيع، ص ٤٨٥

^{٤٥٦} - الخميني، الحكومة الإسلامية، ص ٦٢ و ٧٥ و ٧٦

ذلك - ولاية الفقهاء على الناس مجعولة من قبل الله كولاية الرسول والأئمة من أهل البيت ، وأنها ولاية دينية إلهية.^{٤٥٧}

وقد رفض الإمام الخميني الأدلة "العقلية والنقلية" التي قدمها ويقدمها علماء الكلام الاماميون السابقون الذين كانوا يشترطون العصمة والنص والسلالة العلوية الحسينية في الإمام ، و استخدم العقل في رفض نظرية الانتظار السلبية المخدرة التي تحرم إقامة الدولة في (عصر الغيبة) إلا للإمام المعصوم الغائب ، وضَعَفَ عقليا الأحاديث "المتواترة" و التي كان يجمع عليها الاماميون في السابق ، والتي تقول: "ان كل راية ترفع قبل راية المهدي فهي راية ضلالة وصاحبها طاغوت يعبد من دون الله" . وقد استخدم المقدمة الامامية الأولى في " ضرورة وجود إمام في الأرض" لينطلق منها إلى إثبات "ضرورة الإمامة في هذا العصر" .

وعلى أي حال فقد كانت نظرية "ولاية الفقيه" التي تحصر الحق في ممارسة السلطة في "الفقهاء" محل نقاش كبير بين العلماء الشيعة. وقد رفضها بعض العلماء المحققين كالشيخ مرتضى الأنصاري (١٢١٦ هـ - ١٢٨١ هـ) الذي ناقش في (المكاسب) أدلة القائلين بالولاية العامة ، وأنكر دلالة الروايات العامة التي يشبثون بها على الموضوع ، وحدد دلالتها في موضوع الفتيا والقضاء فقط ، وشكك في صحتها ودلالاتها وقال: " لكن الإنصاف بعد ملاحظة سياقها (الروايات) أو صدرها أو ذيلها يقتضي الجزم بأنها في مقام بيان وظيفتهم من حيث الأحكام الشرعية لا كونهم كالأنبياء أو الأئمة (ص) في كونهم أولى بالمؤمنين من أنفسهم ... وان إقامة الدليل على وجوب إطاعة الفقيه كالإمام - إلا ما خرج بالدليل - دونه خرب القتاد".^{٤٥٨}

كما رفض السيد أبو القاسم الخوئي نظرية ولاية الفقيه المبتنية على نظرية (النيابة العامة) وقال: "ان ما استدلل به على الولاية المطلقة في (عصر الغيبة) غير قابل للاعتماد عليه ، ومن هنا قلنا بعدم ثبوت الولاية له إلا في موردين هما الفتوى والقضاء... ان الأخبار المستدلة بها على الولاية المطلقة قاصرة السند والدلالة".^{٤٥٩}

ان إعطاء الفقيه العادل ، وهو بشر غير معصوم ومعرض للخطأ والانحراف ، صلاحيات الرسول الأعظم (ص) المطلقة وولايته العامة على النفوس والأموال ، والتطرف في ذلك إلى حد السماح للفقيه

^{٤٥٧} - الخميني، الحكومة الإسلامية، ص ٥١ - ٥٢

^{٤٥٨} - الأنصاري، المكاسب، ص ١٧٣

^{٤٥٩} - الخوئي، التنقيح في شرح العروة الوثقى / كتاب الاجتهاد والتقليد

بتحמיד القوانين الإسلامية الجزئية (الشريعة) - كما يقول الإمام الخميني وبعض أنصار ولاية الفقيه في إيران - يلغي الفوارق الضرورية بين النبي المعصوم المرتبط بالسما والبين الفقيه الإنسان العادي المعرض للجهل والهوى والانحراف ، وهذا ما يتناقض تماما مع الفكر الامامي القديم الذي رفض مساواة أولي الأمر (الحكام العاديين) في وجوب الطاعة لهم كوجوب الطاعة لله والرسول ، وذلك خوفا من أمرهم بمعصية والوقوع في التناقض بين طاعتهم وطاعة الله.. ومن هنا اشتراط الفكر الامامي العصمة في "الإمام" - مطلق الإمام - ثم قال بوجوب النص ، وانحصار النص في أهل البيت وفي سلالة علي والحسين إلى يوم القيامة. فإذا أعطينا الفقيه الصلاحيات المطلقة والواسعة التي كانت لرسول الله (ص) وأوجبنا على الناس طاعته ، وهو غير معصوم ، فماذا يبقى من الفرق بينه وبين الرسول؟.. ولماذا إذن أوجبنا العصمة والنص في الإمامة وخالفنا بقية المسلمين وشجبنا اختيار الصحابة لأبي بكر مع انه كان افقه من الفقهاء المعاصرين ؟

ومادام الفقيه إنسانا غير معصوم فانه معرض كغيره للهوى وحب الرئاسة والحسد والتجاوز والطغيان ، بل انه معرض أكثر من غيره للتحويل إلى اخطر دكتاتور يجمع بيديه القوة والمال والدين ، وهو ما يدعوننا إلى تحديد وتفكيك وتوزيع صلاحياته أكثر من غيره ، لا ان نجعله كالرسول أو "الأئمة المعصومين" ، فانه عندئذ سيتحول إلى ظل الله في الأرض ، ويمارس هيمنة مطلقة على الأمة كما كان يفعل الباباوات في القرون الوسطى .

إلغاء الدور السياسي للإمامة

وقد كان لتطور نظرية (ولاية الفقيه) على قاعدة نظرية (النيابة العامة عن الإمام المهدي) المرتكزة على نظرية (الإمامة الإلهية) أثر كبير على طبيعة النظرية ونموها في جانب واحد هو جانب السلطة ، دون جانب الأمة ، حيث أصبح للفقيه من الصلاحيات ما للإمام (المعصوم) وما للنبي الأعظم (ص) وأصبح الفقيه (منصوبا) و (مجمعولا) و (معينا) من قبل (الإمام المهدي) و (نائبا) عنه ، كما كان (الإمام المعصوم) منصوبا ومجمعولا من قبل الله تعالى ، وبالتالي فانه قد أصبح في وضع (مقدس) لا يحق للإمامة ان تعارضه أو تنتقده أو تعصي أوامره أو تخلع طاعته ، أو تنقض حكمه .

ومن هنا فقد اتخذت فتاوى العلماء وآراؤهم الاجتهادية الظنية صبغة دينية مقدسة ، ووجب على عامة الناس غير المجتهدين " تقليد" الفقهاء والطاعة لهم سواء في التشريع أو التنفيذ أو القضاء ، وحرمت عليهم مخالفتهم .

وبما ان (الأئمة المعصومين) - حسب نظرية الإمامة الإلهية - معينون من قبل الله تعالى ، وان لا دور للامة في اختيارهم عبر الشورى ، ولا حق لها في مناقشة قراراتهم أو معارضتها ، وان الدور الوحيد المتصور للامة هو الطاعة والتسليم فقط ، فقد ذهب أنصار مدرسة ولاية الفقيه المنسوب والمجوعول والنائب عن (الإمام المهدي) إلى ضرورة طاعة الأمة وتسليمها للفقيه ، ولم يجدوا بعد ذلك أي حق للامة في ممارسة الشورى أو النقد أو المعارضة أو القدرة على خلع الفقيه ، أو تحديد صلاحياته أو مدة رئاسته .

وقد ذهب الإمام الخميني في رسالته الشهيرة إلى رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية السيد علي الخامنئي عام (١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) إلى قدرة الفقيه الولي على فسخ الاتفاقيات الشرعية التي يعقدها مع الأمة ، من طرف واحد ، إذا رأى بعد ذلك ان الاتفاقية معارضة لمصلحة الإسلام أو مصلحة البلاد ، وأناط بالحاكم وليس بالأمة تحديد المصلحة العامة.

وقد كان للتطور التدريجي الطويل الذي امتد أكثر من ألف عام أثره أيضا على طبيعة نظرية (ولاية الفقيه) من حيث عدم التكامل والشمول في البحث ، واقتصار النظرية على الجانب الرئاسي وإهمال الدور السياسي للامة .

وفي الحقيقة .. ان أساس المشكلة في هذه المسألة المهمة يعود إلى الدمج بين نظرية (النيابة العامة) المستنبطة من بعض الأدلة الروائية الضعيفة وبين نظرية (ولاية الفقيه) المعتمدة على العقل وعلى ضرورة تشكيل الحكومة في (عصر الغيبة) بعيدا عن شروط العصمة والنص الإلهي والسلالة العلوية الحسينية ، وان الخلط بين هاتين النظريتين ، أو تطوير نظرية (النيابة العامة) إلى مستوى إقامة الدولة أدى إلى جعل الفقيه بمثابة الإمام المعصوم أو النبي الأعظم وإعطائه كامل الصلاحيات المطلقة ، وإلغاء الفوارق بين المعصوم وغير المعصوم ، بالرغم من قابلية الأخير للجهل والخطأ والانحراف ، وهو ما يتناقض مع أساس الفلسفة الامامية القديمة حول اشتراط العصمة في الإمام .

الشورى .. وولاية الأمة على نفسها

بغض النظر عن مناقشة تفاصيل نظرية "ولاية الفقيه" فانها تشكل ثورة جذرية على نظرية الإمامة، وذلك لأنها لا تشترط العصمة ولا النص ولا السلالة العلوية الحسينية في الإمام، وتكتفي بالفقه والعدالة،

وكذلك تشكل ثورة على نظرية "الانتظار للإمام المهدي" وان كانت تدعي النيابة العامة عنه، وهو ما أدى إلى نهضة الشيعة في العصر الحديث ، وقيامهم بتأسيس (الجمهورية الإسلامية) في إيران .

وإذا كان الفكر الامامي القديم يرفض الشورى، فان الفكر السياسي الشيعي المعاصر يقوم على الشورى، ويقبل حتى بالنظام الديمقراطي الحديث. وهو ما يعني تحوله جذريا، وتخليه عملياً عن نظرية "الإمامة الإلهية" التي كانت تشكل عقدة خلافه مع بقية الشيعة والمسلمين.

ولو كان الفكر السياسي الامامي يقبل بنظرية (الشورى) من قبل أو يؤمن بنظرية (ولاية الفقيه) لما كان بحاجة إلى افتراض وجود (ولد للإمام العسكري) بالرغم من عدم وجود أدلة علمية تثبت ذلك. ولما كان بحاجة بعد ذلك إلى القول بنظرية (الانتظار) ثم افتراض (النيابة الواقعية) أو (النيابة العامة) لحل إشكالية تحريم إقامة الدولة في (عصر الغيبة). أما وقد آمن الفكر السياسي الشيعي المعاصر بنظرية (ولاية الفقيه) فهو مطالب بإقامتها على أساس (الشورى) وحق الأمة في السيادة على نفسها وإدارة شؤونها بنفسها. وليس على أساس فرضية (النيابة العامة للفقهاء عن الإمام المهدي). بل ان الفكر السياسي الشيعي مطالب اليوم بإعادة النظر في فرضية "وجود محمد بن الحسن العسكري" التي تفرعت عن نظرية (الإمامة الإلهية) وحتمية وجود (الإمام المعصوم المعين من قبل الله) . فلو قلنا بإمكانية إقامة الدولة الإسلامية تحت قيادة الفقيه العادل أو المؤمن العادل، فانه لا تبقى بعد ذلك أية حاجة إلى افتراض وجود "إمام معصوم" غائب لا يتفاعل مع الأمة.

وإذا لم نقل بفرضية وجود الإمام الغائب ، فإننا لسنا بحاجة إلى افتراض (النيابة الخاصة أو العامة) .. ومن ثم فإننا لا نعطي الفقيه من الصلاحيات والسلطات أكثر من دوره الطبيعي الاستشاري، ولا نجعل منه شخصية مقدسة في الفتوى والحكم كشخصية الرسول الأعظم محمد (ص) أو (الأئمة المعصومين) .

وإذا تحررنا من نظرية (النيابة العامة)، بعد وضوح ضعفها وعدم صحتها لعدم وجود (المُتاب عنه : الإمام المهدي) وعدم ثبوت ولادته ، فإننا يمكن ان نقيم أساس الدولة على قاعدة (الشورى) وولاية الأمة على نفسها ، بمعنى ان يكون الإمام منتخباً من الأمة، ونابغاً من إرادتها، ونائباً عنها، ومقيداً بالحدود التي ترسمها له، وملتزمًا بالصلاحيات التي تعطيها له. وذلك لأن الأدلة العقلية تعطي للأمة حق اختيار الحاكم ليحكم بالنيابة عنها ، كما تعطيها الحق في ان تهيمن على الإمام وتشرف عليه وتراقبه وتحاسبه، وان تعطيها من الصلاحيات بقدر ما تشاء وحسبما تشاء ، وذلك لأن منبع السلطة في غياب النص الشرعي وعدم وجود الإمام المعين من قبل الله تعالى هي الأمة الإسلامية. حيث لا تعطي الأدلة

العقلية الحاكم العادي (غير المعصوم) القابل للخطأ والصواب والانحراف والهدى ، من الصلاحيات المطلقة ، مثلما تعطي للرسول المرتبط بالله عبر الوحي ، ولا تساويه أبداً مع (الإمام المعصوم) .

لذا نعتقد ، في هذه المرحلة من تطور الفكر السياسي الشيعي ، ومن اجل إعادة تصحيح الفكر السياسي الشيعي وبناء علاقات أكثر ديمقراطية بين الأمة والإمام ، ان من الضروري جدا بحث موضوع وجود وولادة (الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري) وإعادة النظر في الأدلة الفلسفية والنقلية والتاريخية التي تحدثت عن ذلك .. وكذلك إعادة النظر في نظرية الإمامة الإلهية التي تقوم على العصمة والنص وحصر الحق في الحكم في السلالة العلوية الحسينية.

وخصوصا إذا علمنا ان نظرية الإمامة لم تكن نظرية أهل البيت السياسية، وإنما كانت من صنع المتكلمين الذين اندسوا في صفوف الشيعة في القرن الثاني الهجري، والذين كانوا يخشون من نسبتها الى الأئمة علنا خوفا من رفضهم، ولذلك كانوا يغلفونها بغطاء من دعاوى التقية، وان نظرية أهل البيت السياسية كانت تقوم على الشورى وحق الأمة في اختيار أئمتها، وانهم لم يعرفوا مطلقا شخصا باسم (الإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري) لأنه ببساطة كان شخصية افتراضية وهمية لا حقيقة لها. تم اختلاقتها بعد وفاة الإمام الحسن العسكري.

وإذا كان الشيعة اليوم قد تخلصوا عمليا من نظرية الإمامة ومن فرضية وجود الإمام الثاني عشر، بعد رحلة طويلة من الحيرة والعذاب استمرت ألف عام، وعادوا الى فكر أهل البيت الأصيل: الشورى ، فلا بد ان يتخلصوا نهائيا من كل مخلفات ورواسب نظرية "الإمامة" المثالية والوهمية. ومن أهم تلك الرواسب : الموقف السليبي من الشيخين الجليلين الخليفين الراشدين أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما). ذلك الموقف الذي يقوم على أساس الاعتقاد باغتصابهما للخلافة من الامام علي عليه السلام، حسب نظرية "النص الإلهي" وتعيين النبي الأكرم (ص) له كخليفة من بعده. وما يسببه هذا الموقف من توتر وتشنج وعداء بين الإمامية وعموم المسلمين.

وفيما يلي قراءة جديدة لنشوء نظرية الإمامة، ولازمتها : فرضية وجود الولد للإمام العسكري، قراءة تلاحظ التباين السافر بين فكر أهل البيت وأقوالهم وأعمالهم، وبين نظريات المتكلمين الاماميين وافتراساتهم المناقضة للعقل والقرآن الكريم.

الخاتمة

نستخلص من كل ما مضى: أن الشيعة كانوا يشكلون حزب الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في مقابل حزب معاوية والأمويين، وأنهم في القرن الأول الهجري، لم يكونوا يعرفون نظرية الإمامة الإلهية القائمة على العصمة والنص، حيث كانوا يؤمنون فقط بأولوية وأحقية أهل البيت بالحكم والخلافة من الأمويين. وعندما اختلف أهل البيت في القرن الثاني الهجري، بين عباسيين، وطالبيين، وعلويين، وكيسانيين، وحسينيين، وحسينيين، وإسماعيليين، وموسويين، نشأ من الشيعة فريق يؤمن بحق خط معين منهم، هو الخط العلوي الحسيني الموسوي، بالإمامة والخلافة إلى يوم القيامة. ولكن هذه النظرية وصلت إلى طريق مسدود، مع وفاة الإمام الحسن العسكري، سنة ٢٦٠ للهجرة، دون خلف يرثه في الإمامة، مما سمح للتيارات الشيعية الأخرى الزيدية والإسماعيلية أن تواصل معركتها ضد الخلفاء العباسيين، وتنجح في إقامة دول لها في اليمن وطبرستان وأفريقيا والحجاز، حتى كادت أن تقضي على الدولة العباسية في بغداد، في منتصف القرن الخامس الهجري.

وكان من المحتمل جدا، أن يطوي التاريخ حديث التيار الإمامي الموسوي، لولا مبادرة بعض أركانه إلى اختلاق قصة وجود ولد مستور وغائب للإمام العسكري، وتأليف النظرية الإثني عشرية في القرن الرابع الهجري، مما سمح لها بالبقاء في أذهان فريق من الشيعة، ظل ينتظر خروج ذلك الإمام أكثر من ألف عام، ولم يحن ذلك الفريق من انتظاره للإمام الغائب، سوى العزلة والتلاشي والانكفاء والغيبة عن مسرح الحياة.

واضطر هؤلاء الشيعة، في نهاية الأمر، إلى الثورة على نظرية الانتظار التي كانت تكبلهم وتمنعهم من النشاط السياسي، وتأليف نظرية جديدة هي "فرضية النيابة العامة للفقهاء عن الإمام المهدي الغائب" وتطويرها من بعد ذلك إلى "نظرية ولاية الفقيه". ومع أن هذه النظرية قد حررتهم تماما من نظرية الإمامة الإلهية المثالية، القائمة على اشتراط العصمة والنص في الإمام، إلا أنها ظلت في أذهانهم تشكل امتدادا لها، وترتبط بها ببعض الخيوط الرقيقة، مثل الاعتقاد بأن الفقهاء منصوبين ومعينين من قبل الإمام الغائب، بالنيابة العامة. وهو ما أضفى هالة قدسية على الفقهاء المراجع رفعتهم فوق مستوى الشعب، وحالت دون مراقبتهم ومحاسبتهم ونقدهم. وهذا ما أدى إلى قيام ديكتاتورية باسم الدين، هنا وهناك، في بعض الأحيان.

ولكن مسيرة الفكر السياسي الشيعي لم تتوقف عند هذه النقطة، حيث واصل الفقهاء سعيهم من أجل تقديم فكر سياسي أفضل وبناء نظام سياسي أكثر حرية وعدلاً، فرفض كثير منهم فرضية النيابة العامة، وكذلك نظرية الولاية العامة والمطلقة للفقهاء، وقالوا بمبدأ الشورى وولاية الأمة على نفسها، ولم يتردد بعضهم عن إعلان تأييده للنظام الديمقراطي على أسس إسلامية. (كما هو حاصل اليوم في العراق).

كل هذا التطور الجذري في الفكر السياسي الشيعي، يجعلنا نعيد النظر في التسمية الموروثة والشائعة: "الإمامية" ومدى انطباقها على شيعة اليوم، الذين يمكن أن نقول عنهم أنهم "جعفرية" باعتبارهم يتبعون فقه الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، كما يتبع بعض المسلمين المذهب الحنفي أو الشافعي أو المالكي أو الحنبلي أو الإباضي، ولكن لا يمكن أن نصفهم بالإمامية أو الإثني عشرية. وهو، كما قلنا قبل قليل، اسم أطلق على فريق صغير من الشيعة في القرون الأولى، في حين لم يكن أحد من الشيعة يعرف هذا الاسم في القرن الأول الهجري. وفي الواقع لا يعرف معظم الشيعة المعاصرين شيئاً عن نظرية الإمامة، سوى الحب والولاء لأهل البيت (عليهم السلام)، وهو أمر يشترك فيه عامة المسلمين، وبالتالي فلا يجوز نعتهم بالرافضة، كما يفعل بعض السلفيين.

ولا يجوز مؤاخذه الشيعة، أو محاسبتهم على ما قاله أو يقوله الغلاة والمتطرفون، كما لا يجوز محاكمة أمم وطوائف وشعوب على ما يقوله ويفعله الغلاة منهم.

إن من الخطأ الكبير تصوير الخلاف بين السنة والشيعة وكأنه خلاف عقدي لا ينتهي حتى يوم القيامة، والتشبث بالأقوال الشاذة والنادرة التي تفوه بها بعض الغلاة والمتطرفين عبر التاريخ، لأنه خلاف كان يدور في الإطار السياسي، وهو موضوع فرعي اجتهادي، وقد انتهى اليوم، ولم يبق منه سوى أوهام أو رواسب وطقوس ومخلفات قشرية.

وإذا كانت هنالك من عقدة تعكر صفو العلاقات الشيعية مع الآخرين، فهي تكمن في قضية الموقف السلي من الشيخين أبي بكر وعمر، والصحابة عموماً (رضي الله عنهم) وذلك بسبب اعتقاد الإمامية بـ "اغتصاب" الشيخين للخلافة من الإمام علي، الذي "نصَّ عليه رسول الله وعينه خليفة من بعده".

وبعد وضوح فكر أهل البيت السياسي القائم على الشورى، وتخلي الشيعة عن نظرية الإمامة التي وصلت إلى طريق مسدود في القرن الثالث الهجري، وانقرضت، وتخليهم كذلك عن نظرية الانتظار للإمام الغائب (محمد بن الحسن العسكري) الذي ثبت أيضاً أنه لم يكن سوى فرضية وهمية لا تمت بصلة إلى أهل البيت، حان الوقت للتخلص من كل رواسب التاريخ، وتصحيح الموقف وإعادة النظر بإيجابية إلى الشيخين الجليلين أبي بكر وعمر، وعموم الصحابة الكرام الذين كانوا على علاقة طيبة وحميمة مع أهل البيت.

وهذا أمر كفيل بتعزيز علاقة الشيعة بأخوتهم المسلمين، وإزالة ما في قلوبهم من أحقاد وأدران. وأجدي مضطراً لتكرار: أن ليس كل الشيعة، قديماً وحديثاً، يؤمنون بنظرية الإمامة، ويلتزمون بكل حذافيرها، وبالتالي فإنهم لم يتخذوا.. ولا يتخذون موقفاً سلبياً من الصحابة والشيخين، بصورة حتمية. ولذا فإن نظر الآخرين إليهم يجب أن يكون واقعياً، ودقيقاً، ومميزاً بين فرقهم المختلفة وتياراتهم العديدة. ولا بد أن يلاحظ المسلمون التطورات الجذرية الكبيرة التي حدثت وتحدث في صفوف الشيعة بصورة عامة.

وربما كان أهم درس يأخذه المسلمون من التطور الديمقراطي عند الشيعة، هو ضرورة التخلص من الفكر الاستبدادي، الذي رَوَّج لهم فقهاء السلاطين في ظل الدولة العباسية، والذي يشكل اليوم عقبة كأداء أمام مسيرة الأمة الإسلامية من أجل إقامة نظام سياسي موحدٍ و حرٍّ وعادل.

وإذا ما توصل المسلمون جميعاً الى فكر الشورى والحرية والعدالة، ورفض الاستيلاء على السلطة بالقوة، فانهم يمكن أن يبدؤوا طريق النهوض، وإعادة صياغة حضارتهم من جديد، ويطووا صفحة الصراع على السلطة، ويوحدوا أمتهم الممزقة من جديد.

أحمد الكاتب

محتويات الكتاب

ملخص الجزء الأول:

نظرية الإمامة الإلهية

عند الشيعة الامامية الاثني عشرية

الشورى نظرية أهل البيت (ع)

من الشورى إلى الحكم الوراثي

بوادى الفكر الإمامي

أركان نظرية الإمامة

نظرية الإمامة في مواجهة التحديات

التطور الإثنا عشري

الجزء الثاني:

(الإمام المهدي مُجَّد بن الحسن العسكري)

حقيقة تاريخية ؟ أم فرضية فلسفية؟

المدخل: عصر الحيرة

الفصل الأول

أدلة وجود (الإمام المهدي مُجَّد بن الحسن العسكري):

المبحث الأول: الاستدلال الفلسفي

المبحث الثاني: الدليل الروائي

المبحث الثالث: الدليل التاريخي

المطلب الأول: ولادة المهدي

المطلب الثاني: شهادة (النواب الأربعة)

المبحث الرابع: الدليل الاعجازي

المبحث الخامس: دليل الإجماع

المبحث السادس: الغيبة .

الفصل الثاني:

مناقشة النظرية المهديوية (الاثني عشرية)

المبحث الأول:

الإمام مُجَدِّد بن الحسن العسكري

حقيقة تاريخية؟.. أم فرضية فلسفية؟

المطلب الأول: غموض هوية المهدي عند أهل البيت

المطلب الثاني: ظاهرة المهدوية في التاريخ الإسلامي

المبحث الثاني: العوامل الفلسفية لنشوء فرضية (الإمام الثاني عشر)

المبحث الثالث: نقد الدليل الروائي (النقلي)

المبحث الرابع: نقد الدليل التاريخي

المطلب الثاني: تقييم سند الروايات التاريخية

المطلب الثالث: التحقيق في شهادة (النواب الأربعة)

المطلب الرابع: التحقيق في رسائل (المهدي)

المبحث الخامس: ماهي حقيقة حكايات المعاجز

المبحث السادس: تهاافت دعوى الإجماع

الفصل الثالث:

كيف نشأت نظرية وجود المهدي ؟

المبحث الأول: تناقض الغيبة مع فلسفة الإمامة

المبحث الثاني: الوضع السياسي العام عشية (الغيبة) وغداها

المبحث الثالث: ماذا في علائم الظهور

المبحث الرابع: دور الغلاة في صنع الفرضية المهدوية

المبحث الخامس: دور الإعلام في صنع الفرضية

ملخص الجزء الثالث

تطور الفكر السياسي الشيعي في (عصر الغيبة)

الخاتمة

.....

المصادر

القرآن الكريم

الامام علي: نهج البلاغة

ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة

النوبختي: فرق الشيعة.

الأشعري القمي، سعد بن عبد الله: المقالات والفرق.

الحميري: قرب الإسناد.

الخصيبي: الهداية الكبرى

الصدوق، علي بن بابويه: الامامة والتبصرة من الحيرة.

الصفار القمي، أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ (المتوفى سنة ٢٩٠هـ): بصائر الدرجات. نشر

مكتبة آية الله المرعشي النجفي، سنة ١٤٠٤ هـ، في قم إيران.

البرقي : المحاسن .

العباشي : التفسير .

تفسير فرات ابن ابراهيم الكوفي

الكليني : الكافي ، والروضة .

كتاب سليم بن قيس الهلالي

النعماني ، محمد ابن أبي زينب : الغيبة .

الصدوق ، محمد بن علي : اكمال الدين ، والأُمالي ، و عيون اخبار الرضا ، و الهداية ، و علل الشرائع و الخصال .

الخزاز : كفاية الأثر في النص على الأئمة الإثني عشر .

الطبري : دلائل الإمامة .

الطبري ، تاريخ الرسل والملوك .

ابن قتيبة : الامامة والسياسة .

المسعودي : مروج الذهب .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ .

ابن عساكر : التهذيب .

ابن كثير : البداية والنهاية .

تاريخ يعقوبي

الاصفهاني : مقاتل الطالبين .

والمسعودي : التنبيه والاشراف

البلاذري : أنساب الأشراف .

الحموي ، ياقوت : معجم البلدان .

الاسفراييني : الفرق بين الفرق .

الشهرستاني : الملل والنحل .

الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا: مقتل الامام أمير المؤمنين، تحقيق مصطفى القزويني، مركز الدراسات والبحوث العلمية، بيروت

الشيخ الأقدم ابن أبي الثلج البغدادي: تاريخ مواليد الأئمة ووفياتهم

المفيد: المقنعة ، و الأمالي، و الارشاد ، و أوائل المقالات و الاختصاص ، المسائل الجارودية، والإفصاح في إمامة علي بن أبي طالب ، و شرح عقائد الصدوق ، والنكت الاعتقادية، وعدة رسائل، و الرسائل العشر، مختصر من الكلام على الزيدية ، و الفصول المختارة من العيون والمحاسن ، والمسائل الجارودية في تعيين الخلافة والإمامة في ولد الحسين بن علي ، والثقلان.

الشريف الرضي: خصائص الأئمة .

المرتضى: تثبيت دلائل النبوة، و الشافي.

الطوسي: الغيبة، و النهاية ، و المبسوط، الفهرست ، و مسائل كلامية / المسائل العشر، وتلخيص الشافي .

النجاشي: الرجال .

الكشي: معرفة الرجال.

الكراچكي: البرهان على صحة طول عمر صاحب الزمان، و الاستنصار في النص على الأئمة الأظهر، المطبعة العلوية في النجف سنة ١٣٤٦ هـ، وكنز الفوائد، الطبرسي: الاحتجاج.

القطب الراوندي: الخرائج والجرائح

النيسابوري: روضة الواعظين.

الدلمي : أعلام الدين في صفات المؤمنين.

ابن ادريس الحلبي: المختصر النافع.

إبراهيم القطيفي : السراج الوهاج لدفع عجاج قاطعة اللجاج .

المقدس الاردبيلي: تعليقات على خراجية المحقق الثاني .

المجلسي: بحار الانوار

النجفي محمد حسن: جواهر الكلام

نعمة الله الجزائري : شرح غوالي اللغاليء

ابن بطريق الحلبي: رسالة نهج العلوم

الأردبيلي الحائري، محمد بن علي: جامع الرواة.

العلامة الحلبي ، الحسن بن المطهر: الباب الحادي عشر، و الخلاصة، و نهج الحق وكشف الصدق، و منهاج الكرامة في إثبات الإمامة، وكشف المراد.

الحر العاملي : إثبات الهداة .

النوري الطبرسي ، خاتمة لمستدرك وسائل الشيعة.

النراقي ، أحمد: عوائد الأيام.

الهمداني: مصباح الفقيه.

الأنصاري، مرتضى: المكاسب

الخميني: كتاب البيع ، والحكومة الاسلامية

الفريد، حسن: رسالة في الخمس.

الخوانساري: التنقيح في شرح العروة الوثقى / كتاب الاجتهاد والتقليد ، ومعجم الرجال.

العطاردي: مسند الرضا.

القرشي، باقر شريف: حياة الإمام موسى بن جعفر ، وحياة الإمام الحسن العسكري .

الجزائري ، نعمة الله: الأنوار النعمانية.

شبر : حق اليقين.

الاصفهاني، محمد تقي الموسوي: مكيال المكارم في فوائد الدعاء للقائم،

الكاشاني: الصحيفة المهدية.

الحسني، هاشم معروف: بين التصوف والتشيع.

الزين، محمد حسن: الشيعة في التاريخ
الأميني: الغدير.

الصدر، محمد صادق: الشيعة الامامية.

الصدر، محمد: الغيبة الصغرى.

صحيفة كيهان، العدد رقم ١٣٢٢٣ المؤرخ ١٦ جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ

طلال مجذوب: إيران من الثورة الدستورية إلى الثورة الإسلامية.

تاريخ الشاه إسماعيل، طبع مركز تحقيقات فارس إيران وباكستان، إسلام آباد.
راجر سيوري: إيران في العصر الصفوي.

التنكابني: قصص العلماء

حميد عنايت، تفكير نوين سياسي إسلام.

حسين عطوان: الشورى في العصر الأموي.

كاشف الغطاء، محمد حسين: اصل الشيعة وأصولها.

صدر للمؤلف

١- تطور الفكر السياسي الشيعي.. من الشورى إلى ولاية الفقيه

٢ - الفكر السياسي الوهابي.. قراءة تحليلية

٣- تطور الفكر السياسي السني.. نحو خلافة ديمقراطية

٤ - السنة والشيعة.. وحدة الدين، خلاف السياسة والتاريخ

٥ - المرجعية الدينية الشيعية وآفاق التطور، الامام محمد الشيرازي نموذجاً

٦ - حوارات أحمد الكاتب حول وجود الإمام الثاني عشر